هاريت بيتشر-ستو

رواية

كوخ العم توم

أو حياة المعذبين على الأرض

راجع النصّ العربيّ وأضاف متمّماته د. سليم خليل قهوجي

أبوعلاء سيف الدين

دار الجيل

www.liilas.com/vb3

الكاتبة والكتاب

هاريت بيتشر - ستو
Harriet Beecher - Stowe

كوخ العم توم
Uncle Tom's Cabin

ولدت هاريت بيتشر في 14 حزيران 1811 في ليتشفيلد بولاية كُنَكْتِكِت. وهي الولد السابع (من التسعة) لليمان بيتشر، أحد المبشّرين البروتستنتيّين البارزين، وزوجته روكسانا فوت بيتشر. وكانت هاريت في الرابعة من عمرها عندما فقدت أُمّها، ثمّ تزوّج والدها ثانيةً فرزق أربعة أولاد. وقد اتجه الذكور من أسرته إلى التبشير الديني، والإناث إلى التأليف والتعليم والتربية الدينيّة والمشاركة في الحركات النسائيّة.

تلقّت هاريت دراسة متعدّدة الوجوه الثقافيّة في مجالات الدين والتاريخ والعلوم، ومارست التعليم. وتزوّجت سنة 1836 من كالفين ستو، أحد كبار الأساتذة المَعنيّين بالشؤون الدينية، ومن أبرز دعاة تحرير العبيد، ورزقا سبعة أولاد. وسنة 1849 فقدت طفلاً أصيب بالكوليرا، لم يكن تجاوز عامه الأوّل. ولعلّ الأحزان في طفولة الكاتبة وفي حياتها العائلية ألقت ظلالها على عالم الطفولة في هذه الرواية.

بدأت سنة 1834 كتابة القصّة. وظهر كتابها الأوّل "زهرة أيّار"، سنة 1843. وسنة 1850 صدر قانون العبيد الفارّين الذي يعاقب كلّ من يساعد عبدًا هاربًا، ما أثار نقمة دُعاة التحرّر، فنشرت رواية "كوخ العمّ توم" خلال سنة 1851 في إحدى الصحف المعادية لنظام الرقّ، ولاقت قبولاً حسنًا، لكنّه كان مقتصرًا على الملتزمين بقضيّة العداء للعبوديّة، أي على قرّاء تلك

الصحيفة. وكان للرواية تأثير مختلف، من حيث سعة الانتشار، عندما صدرت كتابًا سنة 1852؛ فقد بيع منها ثلاثة آلاف نسخة في اليوم الأوّل لصدورها، وأكثر من ثلاث مئة ألف نسخة في العام الأوّل. ولتكوين فكرة عن مدى انتشارها، مقارنة بأعداد القراء اليوم، تجب مضاعفة العدد عشر مرّات.

بين 1852 و1860 طُبع الكتاب في اثنتين وثلاثين لغة. وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر، لم يتجاوز عددُ نسخ هذه الرواية، في الولايات المتحدة الأميركيّة، إلّا كتابُ التوراة. ولم تقتصر شهرة الكتاب على تلك البلاد بل عمّت البلدان الأوروبيّة، فعندما زارتها المؤلّفة، سنة 1853، لاقت استقبالاً حافلاً أينما حلّت. وثبّتت الكاتبة شهرتها في عدد من المؤلّفات(*)، وفي دراسة عن الشاعر الإنكليزي اللورد بيرون (1870). وبعد حياة حافلة بالنشاط الأدبي والاجتماعي، لكن منغّصة بالمآسي العائليّة، توفّيت في الأوّل من تموز سنة 1896.

والسبب الأساس في شهرة رواية "كوخ العمّ توم"، أنّها تنطلق من صميم الواقع الذي ساد الولايات الأميركيّة في القرن التاسع عشر، ومحوره الاسترقاق (الاستعباد) والمتاجرة بالعبيد.

وقد شغلت هذه القضيّةُ الحياةَ الاجتماعيّة والسياسيّة والفكريّة حتى الدينيّة، في قسم كبير من القرن التاسع عشر، وأثارت مواجهات عنيفة بين دعاة الرقّ ومعارضيه. وكانت المطالبة بإلغائه عملاً ثوريًّا؛ لكنّه لم يخلُ من مؤيّدين. وابتداء من سنة 1831، بدأت صحيفة المحرّر حملة واسعة على الرقّ،

(*) من أهمّها:
Key to Uncle Tom's Cabin; Dred: A Tale of the Great Dismal Swamp (1856); The Minister's Wooing (1859); The Pearl of Orr's Island (1862); Agnes of Sorrento (1862); Oldtown Folks (1869); Poganuc People (1878).

وقد صدرت أعمالها الكاملة في ستة عشر مجلّدًا، سنة 1896.

وطالبت بالإلغاء الفوري غير المشروط، وهاجمت الرقّ ومالكي العبيد، بعنف. واتّسع انتشار هذه الدعوة التحريرية، وتكوّنت جمعيّات للقضاء على الرقّ بكلّ الوسائل. ونقل العبيدُ الهاربون من أسيادهم صورةً صادقة عن معاناتهم، وأدّى ذلك إلى تأجيج الحماسة في رفض هذا النظام. وقام بعض أصحاب النفوذ بتهريب العبيد من المناطق الجنوبيّة نحو الشمال، بوسائل مذهلة.

وهذا الواقع الاجتماعي كان من الخطورة بحيث إنّه أثّر بالغ التأثير في الأوضاع السياسيّة، وأدّى إلى تفاوت شديد في النتائج الانتخابيّة، سواء في انتخاب رؤساء الجمهوريّة أم المجالس التمثيليّة، تبعًا لموقف المرشّحين من الرقّ، بحسب كل ولاية. وقد شهدت الولايات تبايُنًا شديدًا في النظرة إلى هذه القضيّة، فألغيت تجارة الرقيق وأُلْغِيَ الرقُّ نفسه في بعض المقاطعات (لويزيانا، كولومبيا...). وأصابت الحريةَ نكسةٌ عندما صدر قانون يتيح للأسياد أن يستعيدوا عبيدهم الذين هربوا إلى الشمال، وفقَ نظم جائرة. وعندما اتحدت الولايات تُرك الخيار لكلّ ولاية في أن تدخل الاتّحاد مع الرق أو من دونه، تبعًا لما كانت تحدّده دساتيرها في ذلك الوقت، أي تُركت لها حرية الاحتفاظ بنظام الرقّ إذا أرادت. وإذا راعينا عدد ولايات الاسترقاق في الكونغرس، فإنّ الأغلبية الضرورية لتعديل الدستور لا يمكن توافرها.

ومن أهمّ الأدلّة على خطورة هذا الموضوع، ما قاله جون كالهون أمام مجلس الشيوخ في 4 آذار 1850: "كنت أعتقد أنّ إثارة موضوع الرقّ سيؤدّي، إذا لم يُمنع بوسيلة فعّالة وفوريّة، إلى الانفصال (بين الشمال والجنوب)... هناك أمرٌ له أهمية حيويّة للقسم الجنوبي، أعني قضيّة العلاقات بين العرقَين (الأبيض والأسود) المتعايشَين فيه، واللذين يؤلّفان قسمًا مهمًّا جدًّا من نظامه الاجتماعي. إنّ الجنوب يرى هذه العلاقات أمرًا لا يمكن تحطيمه من دون تعريض العرقين المذكورين لأعظم الكوارث، والقسم كلّه (الولايات الجنوبيّة) للفقر والوحشة والبؤس".

ومردّ ذلك إلى أن الجنوب ازدهرت فيه زراعة القطن والتبغ، فتكوّن مجتمع زراعي يعتمد على الرقيق. وكان القطن المصدَّر خاصة إلى إنكلترا يشكّل المورد الزراعي الأساس للبلاد. في حين أنّ الولايات الشماليّة شهدت ثورة صناعيّة ارتبطت بالاختراعات، وأدّت إلى ازدهار اقتصاديّ باهر. وكان لنشوء حزب "الأرض الحرّة" المعادي للرقّ (1848)، ولنشر رواية "كوخ العمّ توم" (1851، 1852) أثر حاسم في انتشار حركة الإلغاء في الشمال. وهذا ما أدّى، سنة 1854 إلى تأسيس الحزب الجمهوري الحالي. وقد استطاع هذا الحزب إيصال مرشّحه أبراهام لنكولن إلى رئاسة الجمهوريّة (1857 - 1861)، ولم يبق أمام الولايات الجنوبيّة إلّا القبول بإلغاء الرقّ أو الانفصال، وقد اختارت الحلّ الثاني، وأعلنت ذلك إحدى عشرة ولاية، فنشبت الحرب الأهليّة بين اتحاد الولايات الجنوبيّة من جهة وولايات الشمال من جهة ثانية، واستمرّت أربع سنوات (1861 - 1865)، وأدّى انتصار الشماليين إلى إلغاء نظام الرقّ رسميًا، في 6 كانون الأوّل 1865.

لقد نقمت هاريت بيتشر على هذا الواقع في روايتها، وثارت على تشريع الرقّ والسماح به في القوانين، فقالت: "إنّ التحدّث عن مشاهد الدم الوحشيّة يُدمي فؤاد الإنسان ويؤذيه... ومع ذلك فإنّ تلك الفظائع والمظالم إنّما تقترف تحت ظلّ القوانين وتحت سمع السلطة". وهكذا يجد العبيد أنفسهم مكبّلين بقانون الاسترقاق، خاضعين للّذين فرضوا عليهم سيادتهم. يرفضون هذا الواقع؛ ولكن أنّى لهم الخلاص؟ يقول أحد العبيد في الرواية لزوجته: "تقولين سيّدي! من الذي جعله سيّدي؟ ومن أعطاه الحقّ في امتلاكي؟" ولقد حُرم العبدُ أبسط الحقوق الإنسانيّة، وأهمُّها أن يؤسّس أسرة، وأن يحتفظ بامرأته وأولاده، ففرّق "الأسياد" بين العبد وزوجته، والأمّ وابنتها، وسلخوا الطفل الرضيع عن أمّه وباعوه. يقول جورج هاريس لزوجته إليزا: "ألا تعلمين، يا حبيبتي، أنّه لا يجوز للعبد أن يتزوّج؟ فليس

في قانون البلاد ما ينصّ على هذا الزواج. لهذا ليس في استطاعتي أن أحتفظ بك زوجة لي، إذا ما شاء سيّدي أن يفرّق بيننا". ويصبح الخلاص الوحيد من هذا الواقع المأساوي هو الموت: "إنّي أفضّل الموت على هذه الحياة، فإمّا أن أصبح حرًّا وإما أن أموت".

لقد صوّرت هذه الرواية أطفالاً يباعون بمعزل عن أمّهاتهم، وعبيدًا يعاملون كسلع تجاريّة، وأشخاصًا من الأحجار، رجالاً ونساء، ينظرون إلى العبيد على أنّهم مخلوقاتٌ دنيا، وأنّهم أردياء وسيّئون لا يستحقّون أن يحيّوا. وكان لأوصافها الحيّة الزاخرة بالتحسّس العميق لهول المأساة دورٌ في إلهاب النفوس بالدعوة إلى التحرّر، وهذا ما وفّر لهذه الرواية التأثير البالغ حتّى قال بعض مؤرّخي الولايات المتّحدة: "لقد أثارت هاريت بيتشر ـ ستو ما لا يقلّ عن مليون قارئ عندما قدّمت في روايتها "كوخ العمّ توم" صورة محزنة لأحوال العبيد وأحزانهم، والقسوة التي يعامَلون بها، ممّا جعل عددًا كبيرًا من الناس يحيطون علمًا بنظام الرقّ الذي يجري خلف حدودهم". وقال أبراهام لنكولن عن المؤلّفة مشيراً إلى دور روايتها في حرب الانفصال، بمبالغة لا تخلو من الحقيقة: "المرأة الصغيرة التي أشعلت هذه الحرب الكبيرة".

شخصيّات الرواية

تتعدّد في الرواية الشخصيّات: أحدها استمرّ من بدايتها إلى النهاية هو العمّ توم، وبعضها من ظهر في بعض مراحلها كشيلبي وهيلي وسانت كلير وزوجته وابنتهما إيفا وابنة عمّه أوفيليا، وبعضها ظهر في أوائل الرواية وبرز دوره في أواخرها كجورج شيلبي. وفي القصّة شخصيّات أخرى كثيرة تتفاوت من حيث الحضور والاستمرار والدور الذي تقوم به.

العمّ توم

هو بطل الرواية، بلا منازع. إنّها تُستهلُّ بمشهد حوار بين السيد شيلبي والنخّاس هيلي، وموضوع الحديث هو "توم"، لأنّ شيلبي، على الرغم من رغبته في الاحتفاظ به، مضطرّ إلى بيعه لسداد ديونه. وهكذا يغادر توم زوجته وأولاده، ويرافق مالكه الجديد نحو المصير المجهول. لكنّه، على ظهر المركب الذي أقلّ هيلي وعبيده وبعض المسافرين، يلتقي فتاة صغيرة لطيفة اسمها إيفا، فتعطف عليه، وتطلب من أبيها سانت كلير شراءه، لتخلّصه من العذاب الذي يعيش فيه والقساوة التي تنتظره. وهكذا ينتقل إلى يد سيّد رحيم، وتتوطّد صلته بالفتاة الصغيرة المُحبّة. لكن وفاة سيّده تضعه أمام مصير آخر، فيُباع إلى نخّاس وحشيّ الطبع يعامله بغِلْظة وقساوة ما يؤدّي إلى وفاته.

شكليًّا، كان "العم توم" "ضخم الجسم، عريض المنكبين، تدلّ ملامحه الأفريقيّة على الإباء وعزّة النفس ورجاحة العقل"، وهذا ما كان يرغّب النخاسين في شرائه.

وكان، فضلاً عن ذلك، وعمّا امتاز به من وداعة وبساطة، طيّب القلب، حسامًا، حسن التدبير، فقد أدار مزرعة شيلبي بتنظيم وإخلاص. وظهرت أمانته بنوع خاص، عندما كلّفه سيّده القيام بإحدى المهمات الماليّة فأدّاها بكلّ وفاء.

ومن صفاته لطفه ورقّته. وقد تجلّى هذا الجانب من شخصيّته في علاقته بالطفلة إيفا التي كان يلاعبها ويحملها في أثناء مرضها، حبًّا بها وجزعًا عليها. وقد رافقها حتّى اللحظة الأخيرة، واحتفظ بخصلة من شعرها على سبيل الذكرى، حتّى أواخر حياته. كذلك تجلّت صفاته في علاقته بالأرقّاء على اختلاف فئاتهم.

وتتّسم شخصيّته بروح التقوى والإيمان العميق، فهو منذ أن اشتراه

النخّاس هيلي، ودّع زوجته قائلاً: "لا تجزعي يا كلوا! سيكون معي هناك الله نفسه الذي أسبغ علينا رعايته هنا".

واستمرّ إيمانه بالله يشدّ عزيمته، عَبْرَ كلّ ما تعرّض له من أذًى جسديّ ومعنويّ، فـ"إذا فرغ من طعام عشائه جلس يقرأ في الكتاب المقدّس على ضوء النار". وكان يجيب سيّده الظالم لبغري: "إنّ باستطاعتك أن تُميتني ... أمّا نفسي فلا أقدّمها إلى أيّ إنسان، بل أقدّمها إلى الله وحده". وكان يسمع في أعماق نفسه السيّد المسيح يقول له بصوت حنون: "طوبى لمن يصبر ويقاوم لأنّه سيجلس معي على عرشي". وكان "إيمانه بالله العليّ القدير، إيمانه بالحب الخالد، أقوى من الأرض التي يسير عليها... وانفتحت في قلب ذلك المخلوق المعذّب على الأرض كوّة سلام لا سبيل إلى سدّها".

وقضى توم حياته متنازَعًا بين الأمل بافتدائه وعودته إلى زوجته وأولاده، والخيبة التي يشعر بها في كلّ مرّة تعاكسه الظروف؛ لكنّ ثقته بالله لم تتزعزع. ويتجلّى إيمانه قويًّا في اللحظات الأخيرة من حياته: "باستطاعة يسوع أن يُحيل فراش الاحتضار ناعمًا كالوسادة المحشوّة بزغب الأطيار". وهو يستقبل الموت بفرح اللقاء مع خالقه، فعندما أفاق ذات يوم وبدا له أنّ وفاته غدت وشيكة الوقوع، "خفق قلبه بهجة وحبورًا واستعدّ للقاء ربّه".

مالكو الرقيق وتجّاره

في الرواية أربع شخصيّات تشترك في ناحية واحدة هي تملُّكُ العبيد والمتاجرة بهم؛ لكنّها تتفاوت من حيث معاملتهم.

فالسيّد شيلبي تصفه الكاتبة بأنّ مظهره يدلّ على أنّه عريق في النبل والوجاهة، وأنّه نبيل النفس كبير القلب، ميّال إلى العطف على كلّ من يعيش معه، وهو يصف نفسه بأنّه مفطور على حبّ بني الإنسان. وكان شديد الثقة بالعم توم، ويرى أنّ أمثاله نادرون، لكنّه اضطرّ إلى بيعه بسبب تراكم الديون

عليه، وكذلك اضطرّ إلى بيع الطفل هاري، وهو في حوالى الخامسة من عمره.

أمّا هيلي، وهو النخّاس الذي اشتراهما (هربت الأم بطفلها ولم تتمّ الصفقة كاملة)، فتدلّ "ملامحه على غِلظةٍ وعلى نفسيّة مليئة بالمكر الأجوف الذي يبدو عادةً على الرجل الوضيع، عندما يسعى لأن يشقّ طريقه في دنيا الرفاهية والغنى". وهو صلب الطباع، عديم العاطفة، والشواهد في الرواية كثيرة على تحجّر عاطفته، "فقد سحب من تحت المقعد في العربة قيدين حديديّين ثقيلين، وصفد بهما رِجْلي العجوز (العمّ توم)". وباع فتًى منفصلاً عن أمّه، وربط أيديَ "السلع البشريّة" "بسلسلة حديد طويلة اقتاد بها بضائعه الجديدة إلى السجن"، وباع أحد الأطفال وعمره عشرة أشهر. وتحجّر قلبه فلم تحرّكه مآسي البشر: "حدجته أمُّ الطفل بعينين تتميّزان غيظًا وحقدًا؛ لكن مثل هذه النظرات لم تكن لتقلق هيلي، فقد اعتاد رؤية مثل هذه المواقف مئات المرات"، ففضّلت الأم الموت وألقت بنفسها في النهر.

أوغسطين سانت كلير كان على متن السفينة التي أقلّت العم توم. وهو "شاب أنيق، ومزارع طيّب القلب، ولكنّه يمتاز بسخرية لاذعة وتهكّم جارح، ولعلّه اكتسب هذه الصفة من حياته الزوجيّة المريرة". وقد وصفته ابنته إيفا، بأنّه "يحبّ جميع الناس، ولكنّه معتادٌ السخرَ منهم دائمًا". وقد اشترى سانت كلير العمَّ توم من النخّاس هيلي بناء على رغبة إيفا. وهو يملك قصرًا منيفًا تحيط به حديقة، مزيّنًا "بالبسط المخمليّة الثمينة والمرايا والصور والتماثيل والستائر الغالية الثمن". وهو عَطوف على المساكين، مُحبّ للأطفال: "كيف يقوى الإنسان البائس المسكين على العيش إذا ما حرمناه عطف الأطفال؟... وهم أزهار الجنة التي أنزلها الله خصوصًا لمؤاساة قلوب الفقراء المساكين، وليتعزّوا بها عمّا ينتابهم من ظلم اجتماعي لا يمكنهم احتماله". وقد دافع عن حقوق العبيد في الحوار الذي دار بينه وبين

أخيه ألفرد الذي يرى "أنّ الناس لم يولدوا أحرارًا ولا متساوين في الحقوق والواجبات، وأنّ الذين يستحقون أن يتمتّعوا بالحرّيّة والمساواة هم المثقّفون والأغنياء لا السُّوقَةُ الرُّعاع". وقد عانى سانت كلير عذابًا مريرًا بسبب مرض ابنته، ثمّ كان لوفاتها أشدّ الأثر في حياته. ولأنّ ابنته كانت تعطف على عبيده، لا سيّما توم، أراد أن يحرّر جميع أرقّائه، وأن "يمحوَ العار الذي يلطّخ سمعة بلاده بين سائر الأقطار المتمدّنة"، لكنّ المنيّة عاجلته قبل أن يحقّق ما عزم عليه. وبوفاته، بيعَ عبيده الذين عاشوا عنده "مترفين مدلّلين".

ومن تجّار الرقيق ليغري وهو رجل قصير القامة مفتول الساعدين دَنِس الثياب، ذو فم ضخم كبير متّسخ، يعلو ساعديه شعر كثيف قذر... والدلائل على قسوته ووحشيّته كثيرة في الرواية: فقبضته الضخمة الثقيلة كمطرقة حدّاد يهدّد بها أرقّاءه قائلاً: «إنّها لم تصبح صلبة إلّا لكثرة ما حطّمت من رؤوس العبيد». وقد درّب كلابه على التعذيب الوحشي، وربّى اثنين من عبيده على الأساليب القاسية، فهما يعذبان كل عبد يخالف الأوامر من دون رحمة أو شفقة. هذا، فضلاً عن سوء معاملته النساء، مثل كاسي وإميلي. وما يدلّ على عنفه أنّه رفس، ذات مرّة، أمّه ما أدّى إلى وفاتها. ولا يكتفي بالتعذيب الجسدي، بل هو يسوم عبيده المهانة والإذلال، كما حدث له مع توم: "انهض أيها الحيوان القذر، ورفسه برجله... اركع أيّها الكلب، وضربه بسوطه". "هاج ليغري وضرب توم بالسوط على وجهه ضربًا مبرّحًا. وانقضّ على ضحيّته، وطرحه على الأرض وراح يشبعه ضربًا وتعذيبًا" وتوفي توم على أثر الجراح التي سبّبها له عبدان بأمر من ليغري. وكان ليغري يؤمن بالخرافات والأشباح، ولازمته هواجس عانى من أجلها عذابًا نفسيًّا مريرًا.

ومن شخصيّات الرواية جورج شيلبي ابن السيّد شيلبي المذكور آنفًا. يظهر في أوائل الرواية عند بيع توم ومغادرة منزل سيّده، كما يظهر في نهايتها

قاصدًا توم لافتدائه وتحريره؛ لكنّه يصل بعد فوات الأوان. ويتأثّر بعمق لاحتضار توم ووفاته، ويتولّى دفنه، ويأخذ عهدًا على نفسه أن يعمل على تحرير العبيد. وعندما عاد إلى بيته، حرّر جميع أرقّائه داعيًا إيّاهم إلى تذكُّر العم توم كلّما شعروا بأنّهم ينعمون بالحريّة.

الشخصيّات النسائيّة

النساء في الرواية متعدّدات، وهن يقمن بأدوار متنوّعة، وأبرز هؤلاء ماري زوجة سانت كلير، وماري زوجة بيرد، وأوفيليا، وكلو زوجة العم توم، فضلاً عن إليزا وكاسي وإميلي وغيرهنّ كثيرات.

السيّدة شيلبي "تقيّة ورعة طيّبة القلب"، ترى أنّ "على الإنسان، مهما قاسى من الظلم وذاق من المتاعب، أن يبقى إيمانه باللّه شديدًا". وكانت كزوجها تعطف على عبيدها، ولم تكن تتوقّع أن يُقدِم على بيع أحد من خدمه. وعندما تحقّقت من الأمر، حارت في ما تستطيع فعله لتهدئة الخواطر، فهي غير قادرة على تبديل الواقع، ولذا، "صمتت إذ لم تقوَ على النطق أمام هؤلاء المحزونين الصامتين، ثمّ ارتمت على الكرسي وأجهشت بالبكاء". وأقسمت لتوم أنّها ستعمل على تلقُّف أخباره آملة أن تفتديَه وتستعيده من مالكه الجديد.

ماري زوجة السيّد بيرد عضو مجلس الشيوخ كانت ناقمة على القوانين الجائرة التي تسمح باستعباد الناس، فهي تسأل زوجها: "هل كان المجلس يناقش قانونًا يقضي على البيض أن يمنعوا الطعام والشراب عن أولئك الملوّنين البائسين الذين يلجأون إلى الولاية؟" وهي ترى أنّ إقرار قانون الرقّ "عمل وحشي منافٍ لروح المسيحيّة". وعندما أخبرها أنّه أيّد هذا القانون أجابته: "يحسن بك أن تخجل... إنّه قانون معيب ملحد فاسد مجرم".

أمّا **ماري زوجة سانت كلير** فموقفها من العبيد مختلف. إنّها "شهيدة حيّة من شهداء الصداع"، وتعزو تدهور صحّتها إلى العبيد. وهي أنانيّة؛ لكنّها تتّهم بهذه الرذيلة العرقَ الأسود كلّه. وهي تنكر على الخادمات اهتمامهنّ بها، وترفض لهنّ الراحة، وترى أن ولدَي العبدة مامّي "مخلوقان صغيران قذران"، ولو أتيا إلى بيتها لشغلا أمّهما بعض الوقت الذي يجب أن يخصّص لها كاملاً. وترى أنّ اختلاط ابنتها إيفا بالخدم تصرُّفٌ غريب سعت لحملها على تركه، وأنّ اللّه لم يخلق العبيد من الطينة التي خلق منها الأحرار "فهم من عرقٍ سافل منحطّ"، "إنّهم لا يستحقّون أن يحيَوا. وأنا شخصيًّا لا أشعر بذرّة من العطف عليهم". وكانت دائمة التذمّر، باردة العاطفة تجاه زوجها وطفلتها، فقد استقبلتهما بفتور حتّى بعد عودتهما من السفر.

أوفيليا، ابنة عم سانت كلير، استقدمها لتقيم في قصره وتدير شؤونه، ولتعنى بابنته إيفا. "كانت متزمّتة، متجهّمة الوجه، أبدًا تبدو عليها علامات الصرامة والقسوة". وهي ذات عقل منظّم إداري، فاجتهدت في إصلاح ما أفسدته الأيام في إدارة ذلك المنزل الكبير، وهي تنظر إلى العبيد نظرة إيجابية، وتحثّ سانت كلير على عدم الوقوف مكتوف اليدين إزاء ما يجري، وعلى رفض "هذا النظام القذر" أي العبوديّة.

أمّا النساء المنتميات إلى طبقة الرقيق فمنهنّ **العمة كلو** زوجة توم التي تلقّت خبر بيعه بتأثّر شديد، وكانت تستغرب أن يعمد السيد شلبي إلى بيعه على الرغم من تقدير أعماله وعطفه عليه، وتُنحي "باللائمة على موقفه الشاذّ". وفي صباح يوم كالح من أيام شباط، كانت تعدّ لزوجها الثياب للسفر مع مشتريه، وتكوي قمصانه الخشنة النظيفة، "ولعلّ دموعها كانت تساعدها على تبليل الثياب المعدّة للكيّ... وعندما انتهت من عملها ارتمت بيأس على المقعد الخشبي وأخذت تنتحب وتجهش بالبكاء". وكانت تفكّر في حياة توم منفصلاً عنها، فهو لن يجد من يهتم به: "هذا ثوبك الصوفيّ الذي يقيك الروماتيزم.

حافظ عليه جيّدًا فلن تجد بعد اليوم من يصنع لك ثوبًا مثله... من سيرتاً لك جواربك بعد اليوم؟" وعند رحيل توم بدت كأنّها صابرة، وعلّلت ذلك بأنّ دموعها قد جفّت، ولم تعد تحسّ بالقدرة على البكاء.

أمّا **إليزا**، الأم الياسة المُخاطرة، فقد نشأت، منذ الصغر، في منزل عائلة شيلبي متمتّعة بحنوّ سيّدتها. وتزوّجت جورج هاريس وهو "خلاسي فطن كان ملكًا لسيّد المزرعة المجاورة"، وكانت تتألّم للمعاملة القاسية التي يلقاها زوجها، ولمعرفتها أنّ سيّد زوجها ندم على تزويجها منه، فهو يريد له "امرأة تعيش على أرضه وتكون ملكًا له". وكانت أمًّا لطفل في حوالى الخامسة من عمره.

وعندما أقدم شيلبي على بيع طفلها في الصفقة نفسها التي بيع فيها العم توم، رفضت أن تركن للواقع وأن تستسلم للمصير، ففرّت به هاربة قبل أن يتسلّمه مالكه الجديد، "وغادرت المنزل الذي ضمّ حياتها الماضية، وصعب عليها أن تنقطع صلتها نهائيًا بالمكان الذي نشأت فيه... لكنّ جزعها على ابنها كان أقوى من هذه العواطف كلّها"، فمضت تضمّ طفلها إلى صدرها الخفّاق، حتى وصلت إلى نهر أوهايو "الفاصل ما بينها وبين بلاد الحرّيّة"، ولم تجد مركبًا، وشعرت بأنّ مالكها الجديد يلاحقها، ففقزت إلى قِطَع الجليد العائمة على النهر، وعانت الألم والعذاب؛ ولكنها أدركت الضفّة الأخرى من النهر، ولجأت إلى من عطف عليها، ثمّ وصلت إلى إحدى مستعمرات "الكويكرز"، وهناك التقت زوجها جورج الذي كان قد هرب من مالكه الظالم.

شخصيّة أخرى من بائسات الرواية هي **كاسي**. امرأة فارعة في الطول ترتدي ثيابًا نظيفة كيّسة. عيناها كبيرتان تظلّلهما أهداب فاحمة تنضح بيأس مفجع. كان يبدو على كلّ خطٍّ من خطوط وجهها تجبّر شرس وتحدٍّ متمرّد. نشأت في بيت ترف ونعمة، وتعلّمت في أحد الأديرة الموسيقى والفرنسيّة

والتطريز. وكانت أمّها أمَةً من الرقيق، وعندما توفي والدها لم تكفِ ممتلكاته لسداد الديون المتراكمة عليه، فعُرضت للبيع.

اشتراها أحد الشبّان وأحبّها وأحبّته وعاشت حياة هنيئة، ورزقت منه ولدين. لكنّ السعد ما لبث أن أفل، فقد قدم إليه ابن عمّ له بدّل نمط حياته وأرقعه في الديون، فاضطرّ إلى أن باعه كاسي وولديه. ثمّ اشتراها الكابتين ستيوارت فعاشت معه سعيدة وولدت غلامًا، لكنّها قتلته لتخلّصه من العبوديّة: "ترى هل كان بإمكاني أن أقدّم لذلك الطفل أفضل من الموت؟" وعندما مات ستيوارت اشتراها نحّاس ظالم هو ليغري، فذاقت عنده مرّ العذاب، وأفادت من اعتقاده بالخرافات وشدّة خوفه، فظلّت تعبث بعقله حتّى خيّل إليه أن علّيّة بيته مكان مسحور. وعندما جاء "بإميلين إلى البيت دبّت الغيرة الأنثويّة في قلب كاسي المحطّم". والمفاجأة الكبرى في حياتها أنها التقت إليزا، وعرفت أنها ابنتها.

لم تكن حياة **إميلين** عند ليغري أفضل من حياة كاسي. فهي كانت تتمنّى الفرار من بيته: "إنّي أفضل أن أحيا في المستنقعات بين الأفاعي، وأن آكل جذور الشجر على أن أحيا إلى جانبه، فإنّي لا أخشى الحيّات بقدر ما أخشاه". وقد تعاونت المرأتان على الكيد لليغري، ثمّ غادرتا منزله ليلةَ بلغ خوفه من الأشباح أقصى غايته. ووصلتا إلى كنتدا، ثمّ تزوّجت إميلين ربّان إحدى السفن.

الأطفال

بما أنّ محور الرواية هو الرق، على اختلاف فئاته، فقد كان للطفولة فيها نصيب. وليس المهمّ عدد الصفحات التي يحتلّها الأطفال في هذه الرواية، إنّما عمق المأساة التي يتعرّضون لها، حتّى لو أشارت إليهم الكاتبة أحيانًا بعبارة خاطفة.

والأطفال في الرواية بؤساء لانتمائهم إلى طبقة العبيد، باستثناء الطفلة إيڤا فبؤسها من نوع آخر.

الأطفال الأرقّاء متعدّدون في الرواية، لكن تجمعهم مأساة العبوديّة وما يتعرّضون له من بيع بانفصالهم عن أهلهم، ومن عذاب على أيدي مالكيهم، فهم في كل الحالات كسائر الأرقّاء "ضحايا الوحشيّة البشريّة".

هاري طفل في منتصف العقد الأوّل من عمره باعه مالكه منفصلاً عن أمّه إليزا؛ ولكن، قبل أن يتسلّمه المالك الجديد، هربت به في مخاطرة شُجاعة نادرة حتّى بلغت به بلاد الحريّة. **وأطفال العم توم** يعانون العيش من دونه عندما بيع إلى أحد النخّاسين. كذلك بيع الفتى **البرت** وفُصل عن والدته على الرغم من توسّلاتها ونحيبها. **وطفل** في الشهر العاشر تفتقده أمّه فلا تجده، لأنّ تاجر العبيد باعه وسلّمه إلى مشتريه، فألقت بنفسها في النهر. **وولدا مامي** يُحرمان مرافقتها إلى قصر سانت كلير لأن زوجته ترفض مجيئهما. **وطفل** سيق إلى السجن ليُجلد لأنّه عصى مالكه. **وتوپسي**، فتاة بين الثامنة والتاسعة، أتى بها سانت كلير هديّة لأوفيليا، وعندما كشفت عن ظهرها رأت "آثار السياط، وهي تدل بوضوح على فظاعة النظام الذي تعيش فيه هذه المسكينة"... إلى ما هنالك من صور البؤس والشقاء.

أمّا الطفلة **إيڤا** فهي ابنة سانت كلير، وفي حدود السادسة من عمرها "وآية في الجمال... كأنّها أحد الملائكة الأطهار". كانت رقيقة المشاعر، حزينة النفس لرؤية العبيد. أشفقت على العم توم وطلبت من والدها شراءه. وهي تعطف على جماعة الأرقّاء في قصر أبيها، وتسلّم عليهم بشوق بالغ بعد عودتها من السفر. وتعرض على والدتها أن تعتني بها لتتيح لإحدى الخادمات ليلةً من الراحة لأنّ تلك الخادمة كانت مريضة. وإيڤا تضع نفسها على قدم المساواة مع الخدم وذلك يزعج والدتها. وكانت تلاعب توم وتجلس على

ركبتيه، وتطوّق سترته بأزهار الياسمين. لكنّ إيڤا كانت مصابة بداء لم يكن له دواء، وكانت تذبل يومًا بعد يوم، وتحدّث العم توم عن السماء والملائكة، وتخبره أنّها ذاهبة في وقت غير بعيد، وترجو أن يأتي يوم يتحرّر فيه العبيد، وتأمل أن يحرّر والدها العم توم. كانت تتمنّى لو تبيع عقدًا ماسيًّا لتشتري "نزلاً في إحدى الولايات التي تعتنق مبدأ الحرية، وتنقل إليه جميع الخدم، ثمّ تستأجر لهم مدرّسين يعلّمونهم القراءة والكتابة". وهي تدافع عن الفتى الخلاسي عندما أهانه ابن عمّها وضربه، وتخبر توم أنّه يجب أن تموت افتداء للعبيد كما مات المسيح من أجل الناس. وعندما شعرت باقتراب أجلها، قصّت خصلاً من شعرها ووزّعتها على جميع الخدم للذكرى. وهي تأمل أن ترى الجميع، يومًا ما، "في السماء بين أحضان الملائكة والقدّيسين".

وخلاصة القول أن هذه الرواية تكتسب أهميّة متعددة الوجوه، فهي بدلالتها التاريخية تمثّل مرحلة أساسيّة في تكوين الولايات المتحدة الأميركية، من استقلال الولايات إلى تصادمها إلى اتحادها، ومرحلة تبلور الحياة السياسية فيها لجهة الأنظمة والتشريع، والبذور الأولى يومذاك لنشوء الحياة الحزبية المعاصرة. فضلاً عن الدلالة الحضارية والاجتماعية والتفاعل بين المؤثرات الاقتصادية (الزراعية في الجنوب، والصناعية في الشمال) وارتباط ذلك بنظام الرقّ عند أولئك ونظام الحرية عند هؤلاء. وأعمق ما في الرواية دلالتها الإنسانية من حيث تصوير هذه النماذج البشرية المتعدّدة: أشخاص يرفقون بالعبيد وآخرين يدعون إلى تحريرهم وآخرين يتاجرون بهم، ورجال ونساء وأطفال يعانون قسوة القدر وظلم البشر. وفي كل هذه العناصر ما جعل الرواية، منذ صدورها إلى اليوم، أثراً عالميّ الرّواج، ينطلق من واقع النزوع التحرري في زمانها، إلى تطلع الشعوب نحو الحرية في كل زمان.

وقد رغبت دار الجيل في إعادة نشر الترجمة العربية لهذه الرواية، وكانت قد صدرت في منشورات المكتبة الثقافية، فراجعتُ النصّ العربي وصحّحته (فليس لي فضل الترجمة)، ووضعت شرحًا لمفرداته، ومهّدت له بمقدمة، وأتبعته بأسئلة قد تساعد في فهم النص، وفي اللّفت إلى بعض القضايا اللغوية في سبيل الإفادة التربوية من هذا العمل الأدبي والأثر الإنساني. والله وليّ التوفيق.

س. ق

(*) ثمّة مراجع كثيرة لدراسة سيرة المؤلّفة والجوانب التاريخية في هذه الرواية، منها:

- بيرد، تشارلز وماري، تاريخ الولايات المتحدة الأميركية، منشورات مكتبة أطلس، جزءان. وهو ترجمة لكتاب: *The Beard's New Basic History of U.S.A.* Copyright 1944, 1960, by Doubleday & Company inc.
- *Encyclopædia Americana*, "Abolitionists", "Beecher", "Beecher Lyman", "Beecher Stowe, Harriet", "Stowe, Harriet Elizabeth Beecher", "Uncle Tom's Cabin", "United States - Selectional Conflict and Preservation of the Union (1815 - 1877)".
- *Encyclopédie Encarta*, 2004, 4 CD-Rom, "Abolitionnisme", "Américaine - Litérature", "Case de l'Oncle Tom", "Propagande", "Vote des Femmes".
- *Encyclopædia Universalis*, "Abolitionnisme", "Esclavage", "Etats - Unis (Histoire)".
- *The Norton Anthology of American Literature*, 6th ed. (2003), "Harriet Beecher Stowe".

ثَبْتُ أسماء الأشخاص المذكورين في الرواية(*)

أدولف	Adolf	سانت كلير، أوغسطين	
ألبرت	Albert		St. Clare, Augustine
ألفرد	Alfred	ستيوارت	Stuart
إليزا	Eliza	سِمُونز	Simmons
إميلي	Emily	سوزان	Suzan
إميلين	Emmeline	شيلبي	Shelby
أوفيليا (فيلي)	Ophelia (Feely)	فينياس	Phineas
إيفانجيلين (إيڤا)	Evangeline (Eva)	كاسي	Cassy
بوسي	Posscy	كدجو	Cudjoe
بيرد، جون	Bird, John	كلو	Chloe
برو	Prue	كويمبو	Quimboo
بيت	Pete	لوسي	Lucy
توپسي	Topsy	ليڤري، سايمون	Legree, Simon
توم	Tom	مامّي	Mammy
توماس	Thomas	مُوز	Mose
جون	John	مينا	Mina
جيم	Jim	هاجر	Hagar
دو تو	De Thoux	هاري	Harry
دودو	Dodo	هاليداي، راشيل	Halliday, Rachel
دينا	Dinah	هاليداي، سايمون	Halliday, Simon
روزا	Rosa	هنري	Henry
سالي	Sally	هنريك	Henrique
سامبو	Samboo	هيلي	Haley

(*) وُضِعت هذه اللائحة للمساعدة على قراءة الأسماء قراءة صحيحة.

www.liilas.com

إنسانية رجل

في إحدى أمسيات يوم من أيام شهر شباط (فبراير) الباردة، كان في غرفة غنية بالأثاث الفاخر في مدينة «ب» من ولاية كانتاكي رجلان **يحتسيان** الخمر وحدهما، وكأنهما كانا يعالجان موضوعاً شائقاً **استأثر** باهتمامهما وامتلك كل انتباههما.

كان أحدهما قصير القامة **بديناً**، ذا ملامحَ تدل على غِلْظَة ونفسية مليئة **بالمكر الأجوف** الذي يبدو عادة على الرجل الوضيع، عندما يسعى لأن يشق طريقه في دنيا الرفاهية والغنى. وكان هذا يلبس ثياباً **متنافرة**، تتعدد فيها الألوان وتتضارب، وكانت يداه الغليظتان مثقلتين بالخواتم، وكانت لغته في عداء مع قواعد اللغة، لا تتمسك بقيد ولا ضابط.

أما جليسه، السيد «شيلبي»، فكان مظهره يدل على أنه عريق في

يحتسيان: يشربان.
استأثر: أخذ كل الحصة من الشيء.
بديناً: سميناً.
المكر الأجوف: الخداع الدالّ على تفاهة صاحبه.
متنافرة: غير متناسبة، غير متآلفة في ما بينها.

النبل والوجاهة، وكان الرجلان، كما أشرنا آنفاً، يتجاذبان أطراف الحديث في أمر مهمّ.

- يجب أن تُسَوّى القضية على هذا الشكل، قال المستر شيلبي.

- ولكن لا أوافق على هذا العرض! ردَّد السيد «هيلي».

- كن على ثقة، يا هيلي، أنّ توم يندُرُ وجود شبيه له. وهو يستحق هذا الثمن، فهو قويّ مخلِص، وهو يُدير مزرعتي كلها بإخلاص وتنظيم.

فقال هيلي:

- تقصد أنه مخلص كما يعرف الزنوج الإخلاص.

- لا، بل أعني أن توم شاب طيّب وحسّاس وتقيّ. ولقد اعتنق الدين المسيحي منذ أربع سنوات فعَمَر قلبُه بالإيمان. ومنذ ذلك الحين وأنا ائتمنه على مالي وبيتي وعائلتي. وفي الخريف المنصرم أرسلته إلى سينسيناتي، في عمل من أعمالي، وكلّفته أن يجلب لي معه خمس مئة دولار فلم يُخيّب ظني به. وقد حاول بعضهم هناك أن يُغروه فقالوا له: «توم، لماذا لا تهرب؟»، فأجاب: «لقد وضع سيدي ثقته فيّ، وقد وعدته بأن أعود، وليس من طبعي أن أخون الأمانة أو أغدر بمن وثق بي».

آنفاً: سابقاً.

عمر: امتلأ.

ائتمنه على مالي: أجعل مالي أمانة بين يديه.

المنصرم: المنقضي.

وعلى أيّ حال، فأنا آسف لاضطراري إلى التخلي عن توم. وأعتقد أنك لن تخيّب رجائي في أن تعدَّ هذه الصفقة سَداداً مني لدينك كله.

ولكن هيلي اعتذر بلطف جَمّ لعدم تلبية رغبة السيد شيلبي، وقال:

- أليس عندك صبي تستطيع أن تستغني عنه أو صبية تستطيع أن تقدمها لي مع توم؟

- لا، لا! أقول لك الحق، واعلم أنها الضرورة القاهرة هي التي تحملني على بيع توم لا شيء سواها. فأنا لا أحبّ أن أفارق أيًا من هؤلاء الأشخاص الذين أمتلكهم.

وبينما كان الجليسان يتناقشان في هذا الموضوع الخطير، فُتح الباب، ودخل الغرفةَ صبيّ في منتصف العقد الأول، خلاسيّ اللون والسحنة، له شعر أسود فاحم يتدلى على جبهته الجميلة، وكانت عيناه الجميلتان السوداوان تلمعان من تحت أهدابه المنبسطة ما أكسبه جمالاً نادراً. وكان ثوبه الأحمر الزاهي ورداؤه المخطط الأصفر يزيدان جماله روعةً واستئثاراً.

دهش السيد شيلبي لرؤية الصبي، وأمرّ يده على شعره الجَعْد في رقة بالغة ثم قال:

- أرِ السيّد كيف يكون الرقص والغناء.

سَداداً: إيفاءً.

جمّ: كثير.

الخلاسي: من وُلد من أب أبيض وأم سوداء، أو العكس.

فأخذ الصبي يُنشد أغنية من تلك الأغاني القديمة الشائعة بين الزنوج محركاً يديه ورجليه وفق اللحن.

وقد فتن هيلي بالصبي فالتفت إلى السيد شيلبي وقال:

- إني على استعداد لأن أُعفيَكَ من الدين كله إذا سلمتني هذا الغلام.

وفي تلك اللحظة فُتح الباب برفق، ودخلت إلى الغرفة شابّة نصفُ خلاسية كما تدل على ذلك هيئتها، لا يزيد عمرها عن خمس وعشرين سنة.

وكانت تلك المرأة أم الغلام لأن لها عينيه الكحيلتين وأهدابه الطويلة وشعره الفاحم الجعد، فضلاً عمّا كانت عليه من آيات الجمال الأنثوي. وقد استأثرت المرأة بانتباه تاجر الرقيق الصّلب الطباع العديم العاطفة، وهنا سألها السيد شيلبي قائلاً:

- ما الذي أتى بك يا إليزا؟

- كنت أبحث عن هاري، يا سيدي!

وركض الفتى نحو أمه يضمها، فطلب منها السيد شيلبي أن تأخذ الغلام وتغادر الغرفة. ولكن النخّاس الذي أعجب بالمرأة وبجمالها عرض على شيلبي أن يبيعه إياها بأي ثمن، فأبى شيلبي بإصرار. ولما فشل في إقناعه سأله أن يعطيَه الغلام فأبى كذلك قائلاً:

الكحيلتين: الشديدتي السواد.
النخّاس: بائع العبيد.
أبى: رفض.
بإصرار: بإلحاح وحزم.

- لا تحاول عبثاً، فلن أبيعه. إني، يا سيدي، رجل مفطور على حب بني الإنسان، وأكره أن أنتزع الغلام من حُجْر أمه!

وأدرك تاجر الرقيق أن محدّثه يحب العبيد، فشرع يحدّثه عن عطفه على العبيد، وعمّا يعتمر به قلبه من حب لبني البشر، وأنه عُرف بين زملائه بهذه المزايا التي تجعله أحياناً موضع فكاهة وسخرية. حتى إذا آنس من مخاطبه نَزْعَةً إلى تصديقه، أشرقت عيناه ببريق الأمل وقال:

- والآن، ماذا ترى؟

- سأدرس الموضوع مع زوجتي، وباستطاعتك أن تسمع جوابي النهائي هذا المساء، في ما بين السادسة والسابعة.

كان نظام الرق في ولاية كانتاكي، أخفَّ وطأة على الزنوج منه في سائر الولايات الأميركية الأخرى، إذ يبدو ذلك واضحاً لمن يتسنّى له أن يزور، ولو لمرة واحدة، إحدى مزارع الولاية، فيرى تلك المعاملة الطيبة التي يلقاها الزنوج من قبل البيض رجالاً ونساء. على الرغم من ذلك كله، كان شبح القانون يخيّم على هذا البلد. فما دام القانون يجعل جميع أولئك الكائنات البشرية، بقلوبها النابضة وأحاسيسها الحية، مُلْكاً للسيد الأبيض، يتصرف بها كما يتصرف بما يملك من أشياء، وما دام موت المالك الرؤوف أو افتقاره أو طيشه

مفطور: مطبوع، من طبيعته.
حجر: حضن.
المزايا: الصفات الحسنة (مفردها مزيّة).
آنس: رأى، لاحظ.
نزعة: مَيْلاً.
الرقّ: العبوديّة.
وطأة: ضغط شديد.
يتسنّى: يُتاح.

كثيراً ما يبدّل حال الزنوج من التسامح والحماية الرقيقة إلى حال من الكفاح المتواصل والشقاء المحتّم، فإن أنظمة الرّقّ، مهما امتازت باللطف والرحمة، لا تسوّغ وجوده أو تعلّل بقاءه.

وكان السيد شيلبي رجلاً نبيل النفس، كبير القلب، ميّالاً إلى العطف على كل من يعيش معه، ولم يكن يضنّ على زنوجه بأي شيء يساعد على تمتعهم بالرفاهية المادّيّة. بيد أن إسرافه الطائش أغرقه في خِضَمٍّ من الديون. فإذا بدائنه النخّاس هيلي يقتضيه ماله، وإذا بهذا الحديث الذي افتتحنا به قصتنا، يدور بين الرجلين عندما دخلت إليزا الغرفة.

ومهما كان الأمر فقد أدركت إليزا بفطرتها، وهي تقترب من باب الغرفة، أن النخاس يعرض على مولاها بيع شخص ما، ومن يدري؟ فقد يكون المباع هو ابنها. وعندما خطر هذا الخاطر في خَلَدِها رجف قلبها وانقبضت نفسها، حتى إذا رأتها سيدتها على هذه الحال، وسألتها عما بها، أجابت والدمع يترقرق في عينيها، والزفرات تتصاعد من صدرها:

- أوّاه، يا سيدتي، هنالك نخّاس يتحدث إلى سيدي في قاعة الاستقبال، وقد تَمّ الصفقة.

المحتم: الذي لا مفرّ منه.
تعلل: توضح السبب.
إسرافه: تبذيره.
يقتضيه: يطالبه بما هو متوجّب عليه.
انقبضت نفسها: حزنت.
تسوّغ وجوده: تجعله مقبولاً.
يضن: يبخل.
خضم: بحر واسع.
خلدها: بالها.

- وأي مأساة في ذلك؟

- أتعتقدين يا سيدتي أن سيدي يُقْدِم على بيع هاري؟

قالت هذا، وارتمت على الكرسي منتحبة بصوت منخفض.

- ماذا تقولين؟ يبيع هاري!... هذا هراء أيتها الحمقاء! فأنت تعرفين سيدك، وتعلمين أنه لا يتعامل مع أولئك النخّاسين الجنوبيين، وهو لا يفكر في بيع أحد من خدمه ما داموا يسلكون النهج السويّ المستقيم. ولكن ترى من يكون ذلك المغفّل الذي يطمع بامتلاك هاري؟ أتعتقدين أن مصائر جميع الناس باتت مرتبطة به كما هو مصيرك؟

ألا عودي إلى مرحك أيتها الحمقاء، وابتعدي عن استراق السمع من وراء الأبواب، فذلك مجلبة للشكّ فيك!

منتحبة: باكية.
النهج: الطريق.
استراق السمع: الاستماع بطريقة متخفّية.

الفصل الثاني

الأبوان

نشأت إليزا منذ نعومة أظفارها تحت رعاية مولاتها السيدة شيلبي التقية الورعة الطيبة القلب. ومرّت بسنّ النضج من دون أن تتعرض للتجارب التي تعترض الفتاة الجميلة فتجعل من جمالها سبباً لشقائها... ثم تزوجت إليزا من شاب خلاسي فطن كان ملكاً لسيد المزرعة المجاورة. وكان جورج هاريس زوجها يعمل في مصنع للأكياس، فاخترع آلة لتنظيف القنّب تُعَدُّ حقاً من الأعمال العبقرية.

وعلم سيد الإقطاعة، وكان فظاً غليظ القلب، بنبإ الاختراع، فأسرع إلى المصنع ليرى الآلة البارعة التي يتحدث عنها العمال بإعجاب. وفيما كان جورج يشرح لسيده حسنات اختراعه ويعرض عليه حركات الآلة مزهوّاً بما ابتدع، استشعر السيد ضرباً من الشعور بالنقص، فإذا هو ثائر، وإذا به يأمر القيّم على المصنع أن يفصل

فطن: ذكي.

الإقطاعة: المنطقة التي يحكمها الإقطاعي. مزهوًّا: متفاخراً.

ضرباً: نوعاً. القيّم: المسؤول.

جورج عن العمل وأن ينقله إلى أحد الحقول ليعزق الأرض وينكشها.

وأول لقاء مثمر جرى بينهما كان ذات يوم، فيما كانت إليزا واقفة على شرفة المنزل الذي تعمل فيه، ففاجأها جورج بربتة رقيقة على كتفها إذ كانت غافلة، فصرخت والفرح يغمر نفسها:

ـ جورج! أهذا أنت؟ لقد أفزعتني. حسناً، كم أنا سعيدة بلقائك! تراني وحدي. فقد خرجت سيدتي لزيارة بعض معارفها، وليس في المنزل أحد يمكنه أن يعكّر صفونا. تعال معي إلى غرفتي الصغيرة لنقضي فترة الأصيل معاً.

قالت ذلك وانسحبت هي وزوجها إلى غرفتها المؤدية إلى الشرفة، ثم استطردت قائلة:

ـ ما أشدّ سعادتي! ولكن ما بالك؟ إنك لا تبتسم، ولا تنظر إلى هاري الصغير كيف ينمو ويترعرع.

وطبعت على جبين طفلها قبلة تنضحُ بالعطف والحنان، وكأنها تظهر بهذا حبها لزوجها.

فقال جورج:

ـ ليته لم يولد! وليتني أنا أيضاً لم أولد قطّ!

وهنا ارتاعت إليزا فجلست تهيُّباً للموقف، وأسندت رأسها إلى كتف زوجها وانفجرت تبكي. فقال جورج بحزن:

يعزق الأرض: يشقها ويقلب تربتها.

الربتة: الضربة الخفيفة باليد، على سبيل الاستحسان أو الملاطفة.

تنضح: ترشح، والمراد أنها تعبر عن العطف والحنان.

- يبدو أنني أسبب لك المتاعب الكثيرة. وكم كنت أتمنى ألا تَرَيني ولا أراك! فلعل في ذلك سعادة لك وراحة بال.

- جورج! جورج! كيف تقوى على ذكر هذا؟ أيّ كارثة حدثت أو توشك أن تحدث لنا؟ لم أكن لأشك بأننا كنا سعيدين جداً. فما بالك معكِّر الخاطر اليوم؟

- بالصواب تنطقين يا عزيزتي.

قال ذلك وأجلس الصبي على ركبته، وأنشأ يحدّق إلى عينيه الصافيتين، ويمرّر أنامله من خلال شعره الجعد الطويل وأردف:

- أجل يا إليزا، لقد غَدَتْ حياتي مريرة حتى لا تكاد تُطاق. فأنا عامل بائس فقير ممتَهَن، فما الغاية من عيشي؟ ليتني فارقت الدنيا قبل أن يعذبني الدهر!

- أنا أعلم يا جورج أنك ما زلت متحسراً على عملك الذي فقدته في المصنع، كما أعلم أن لك سيدًا جافي الطبع لا تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلاً. ولكن اصبر فلعل...

فقاطعها جورج قائلاً:

- أصبر؟! ألم أتحمل وأصبر طَوال هذه المدة؟

- إنه حقاً أمر مُريع. فما العمل ما دام سيدك هو نفسه الذي طردك من العمل؟!

- تقولين سيدي! من الذي جعله سيدي؟ ومن أعطاه الحق في

ممتهن: محتقَر.

جافي الطبع: غليظ الطبع، قاسي القلب.

مريع: مخيف.

امتلاكي؟ إن هذا الأمر يقضّ مضجعي. تُرى أيّ حق له علي؟ وبم يمتاز عني؟ أنا إنسان بقدر ما هو إنسان. بل إنني إنسان أفضل منه. وباستطاعتي أن أقرأ خيراً مما يقرأ، وأن أكتب خطاً أجمل من خطه. لقد تعلمت ذلك كله بنفسي، ولم يكن له أيّ فضل علي في هذا. بل إني تعلمت على الرغم منه. والآن أنّهُ الحقُّ في أن يطردني من عملي، ويحمِلَني على القيام بأعمال يستطيع أيّ حصان أن يقوم بها؟

- أوه يا جورج... لم أسمعك تتحدث بهذه اللهجة قبل اليوم، فاعتصم بحبل الأناة والصبر، بحقي أنا، بل بحق ابننا هاري...

فقال جورج:

- لقد اعتصمت طويلاً بحبل الصبر. ومن جُبل باللحم والدم لا يَقْوى على احتمال كل هذا الظلم. وللصبر حدود. تصوّري: بالأمس كنت منهمكاً في نقل الحجارة إلى العربة فرأيت توم ابن السيد، يلوّح بسوطه قرب الفرس فأفزعها، فخشيت عليه وطلبت منه في كثير من التأدب أن يقلع عن ذلك فاستمرّ في عبثه السمج، حتى إذا التمستُ منه الإقلاع عن عبثه مرة أخرى، ارتدّ إليّ وأخذ يُلهب جسدي بسوطه. فأمسكت بيده فصرخ ورفسني. وانطلق إلى أبيه وزعم أنني ضربته ضرباً مُبَرِّحاً. فما كان من الأب إلّا أن أقبل نحوي والشرر يتطاير من عينيه، فشدّني إلى جذع شجرة وقطع للسيد الصغير عدداً من القضبان، وأمره أن يضربني بها حتى ينهكه التعب. ففعل الصبي ما أمره به أبوه.

اعتصمَ: تمسّك بالشيء، لجأ إليه.

منهمكاً: منشغلاً.

يقلع: يمتنع.

السمج: القبيح.

وارتعدت إليزا ولم تنبس بكلمة. ثم إنها ملكت عواطفها وتساءلت:

- والآن ماذا تنوي أن تفعل يا جورج؟ أوه... حذار أن تُقدم على عمل طائش. واعلم أنك إذا أسلمت أمرك إلى الله وحاولت أن تعمل صالحاً، أنقذك من هذا البلاء.

- أنا لستُ مسيحياً مثلَك يا إليزا. إن قلبي يتأكله نمل قاتل، فلا أستطيع أن أسلّم أموري إلى الله. ولست أعلم، على كلّ حال، لماذا يسمح الله بأن تجري الأمور على هذه الشاكلة؟

- ولكن يحسن بك أن تعتصم بالإيمان، يا جورج، فسيدتي تقول: على الإنسان، مهما قاسى من الظلم وذاق من المتاعب، أن يبقى إيمانه بالله شديداً. فالله يكون معنا دائماً ويساعدنا.

- هذا كلام يمكن أن يؤمن به أولئك الغارقون في أسرّتهم، والمختالون على متون خيولهم، والمتئابون في عرباتهم. ولكن دعيهم يعيشون لحظة كما أعيش، وأنا كفيل بأنهم يفقدون أعصابهم أكثر مما فقدت أعصابي، وأنهم يكفرون أكثر مما كفرت. إني أتمنى لو أجد إلى الطمأنينة سبيلاً؛ ولكن قلبي يشتعل بالحقد، وليس في قدرتي تهدئته. وأنت فإنك لا تستطيعين أن تتحملي أكثر مما تحمّلتِ، لاسيّما إذا علمت ببقية الحادث...

قاسى: عانى، تحمّل بمشقّة.

المختالون: الذين يسيرون بخيلاء أي بكبرياء.

متون: ظهور.

سبيلاً: طريقاً.

- وهل من بقية بعد لهذه القصة؟

فقال جورج بألم:

- لم يخجل سيدي من أن يصرّح بأنه قد ندم على تزويجي من امرأة تحيا في إقطاعة لا تخصّه، وهدّد بأنه لن يسمح لي بعد اليوم بأن أزورك، وأنه من الأفضل لي أن أتزوج من امرأة تعيش على أرضه وتكون ملكه. وقد ابتعد في تهديده هذا حتى إنه أمرني أمس أن أتزوج «مينا»، وإلا باعني لأحد الأسياد في الجنوب.

- ولكنك زوجي وحدي. وقد تزوّجْنا كما لو كنا بِيْضَ البَشَرة!

فأجابها جورج:

- ولكن ألا تعلمين يا حبيبتي أنه لا يجوز للعبد أن يتزوج؟ فليس في قانون البلاد ما يَنُصّ على هذا الزواج. لهذا ليس في استطاعتي أن أحتفظ بك زوجة لي إذا شاء سيدي أن يفرّق بيننا. لهذا قلت لك آنفاً: إني أتمنى لو أنني لم أولَد ولم أرَكِ، ولو لم يولَد هذا الطفل لكان ذلك أفضل لنا جميعاً، فقد يقع له هذا المصاب في مستقبل غير بعيد...

- لا تقل هذا، فمولاي أرأف من سواه بكثير.

- صحيح، ولكن من يعلم؟ فقد يموت. وعند ذلك يبتاع ابنَنا سيّدٌ لا نعرفه ولا نعرف من أمره شيئاً، من غير أن يدفع عنه الضررَ جمالُه وذكاؤه.

وأنت أتدرين أن جمالك سوف يجرّ عليك الوبال فتدفعين ثمن

الوبال: سوء العاقبة.

هذه **المفاتن**، فبمثلك يطمع تجار **الرقيق**، وبهذا تخسرين ولدك إلى الأبد.

وارتجفت إليزا رعباً. لقد تراءت لها صورة هيلي النخّاس، **فامتقع** لونها وتتابعت أنفاسها، ثم إنها تطلّعت، في عصبية، إلى الشرفة حيث كان الصبي يعبث بعصا للسيدة شيلبي، ويتّخذ منها حصاناً يركبه. وفكرت في أن تبوح لزوجها بما يقلق بالها وما تخشاه من وجود النخّاس عند شيلبي سيدها؛ ولكنها فضلت أن تصمت خَشْيَةَ أن تُضيف إلى جراح زوجها جراحاً جديدة...

وأردف الزوج في حسرة بالغة:

- إن كل ما أوصيك به يا إليزا هو أن تصبري على المصائب، واسمحي لي الآن أن أودّعك فإني ذاهب...

- ولكن إلى أين أنت ذاهب يا جورج؟

- إلى كندا. وعندما أبلغ تلك الديار سأبعث بالمال لأشتريكما. ذلك هو الأمل الوحيد الذي بقي أمامي. إن لك سيداً كريماً، وهو لن يرفض أن يبيعك لي. أشتريك وأشتري هاري، إذا أسعدني الله...

- ولكن أخشى أن يُقبض عليك في الطريق.

- لن يَقْبض علي أحد يا إليزا. وإني أفضّل الموت على هذه الحياة. فإمّا أن أصبح حراً وإما أن أموت!

المفاتن: المحاسن، مظاهر الجمال. **الرقيق**: العبيد.
امتقع: تغيّر.

الفصل الثالث

هرب الأم إليزا

كوخ العم توم يقع في حديقة نظيفة مليئة بأنواع الأزهار والرياحين التي تُدخل السرور إلى قلب زوجته «كلو» التي كانت في الوقت نفسه الطاهية الرئيسية، والمسيطرة على كل ما في تلك المنطقة. حتى الدجاج والإوز التي تعجّ بها زرائب آل شيلبي، كانت تخشاها وترتعد منها **فَرَقاً** حين تشاهد وجهها **الأبنوسي** اللامع من بعيد.

أما العم توم نفسه فكان رجلاً ضخم الجسم **عريض المنكبين** تدل ملامحه الأفريقية على **الإباء** وعزة النفس ورجاحة العقل، فكان، إلى جانب ما هو عليه من الوداعة والبساطة، محترماً ومحبوباً ومتديّناً حقيقياً. وعندما أقبلَتْ إليزا إلى كوخه حاملةً ولدها هاري وجدَتْه يصلي في تلك الساعة المتأخرة من الليل. وعندما سمع نقر إليزا على زجاج النافذة، نهض من مكانه وفتح الباب، فدخلت إليزا وقالت:

فرقاً: فزعاً شديداً.
الأبنوسي: بلون خشب الأبنوس وهو شجر خشبي صلب العود، أسود اللّون.
عريض المنكبين: عريض الكتفين. **الإباء**: الترفع عن الدنايا.

- لقد تركت المزرعة وهربت بولدي هاري أيها العم توم وأيتها العمة كلو. لقد أنقذت ابني من الجحيم الذي ينتظره، فقد باعه سيدي لأحد النخّاسين!

فصاح العجوزان متعجبين ورفعا أيديهما في ذعر:

- باعه؟!

- أجل! باعه. لقد استغنى عنه. وقد سمعت السيد يقول لزوجته إنه باعكَ أنتَ أيضاً أيها العم توم لأحد التجار، وإن المشتريَ سيصل اليوم لاستلامكما.

وجمد توم في مكانه حين سمع هذا واتّسعت حدقتاه، وأحسَّ كأنه يحلم. وفي هدوء مدهش ارتمى على كرسي قديم، وتجمَّع بعضُه على بعض، وأرخى رأسه حتى كاد يلامس ركبتَيه. أمّا العمة كلو فداخلها القلق الشديد وقالت:

- ليرحمنا الله! أيّ ذنب اقترفنا؟

- بالطبع، قالت إليزا: إنه لم يفعل شيئاً قبيحاً. وأعتقد أن السيد لم يكن يودّ بيعه ولا بيعك. أما سيدتي فقد سمعتها تبكي وتتوسل إلى زوجها أن يعفَّ عن هذا البيع وينقذنا. فكان يعتذر لها متألماً، وصرّح بأنه أقدم على هذه الفعلة الشنيعة للتخلص من الديون المتراكمة التي كان مَديناً بها لذلك النخّاس، وأنه مضطر لهذا البيع وإلا طالبه النخّاس بالمزرعة كلها.

فالتفتت العمة كلو إلى زوجها وقالت:

- حسناً، أيها العجوز، لماذا لا تهرب وتنقذ نفسك؟ أليس أفضل لك من أن تنقل إلى حيث يموت الزنوج جوعاً وتعباً وراء النهر؟!

فرفع توم رأسه في بطء ونظر حوله بحسرة وقال:

- لا. لا. لن أغادر هذا المكان هرباً. لتفر إليزا إذا شاءت فإن ذلك من حقها. أما أنا فقد كنت دوماً عند حسن ظن السيد شيلبي، وسأظل على ذلك ما حييت.

- والآن، ما العمل؟ قالت إليزا بقلق وهي تلتصق بباب الغرفة... لا أدري أين يكون زوجي فلم أرَه إلا ظهيرة اليوم، وما كنت أعلم ساعتئذ ما أخبرتكم به. فأرجوكما، إذا بقيتما هنا، أن تخبراه عن هربي. وقولا له إني سأحاول اللحاق به إلى كندا. ولا تنسيا أن تُقرِئاه سلامي، وتنقلا إليه حبي. كما أرجو أن توصياه ما دام بعيداً عني وإلى أن نلتقي، بأن يكون مخلصاً لي، وأن يسعى للاجتماع بي إن لم يكن على الأرض ففي السماء!

واختنق صوتها وانسلّت تحت جنح الظلام.

ليس في الوجود مخلوق بشري يمكنه أن يكون أشدَّ بؤساً من إليزا، حين غادرت كوخ العم توم في ذلك المساء. فقد تخيلت الآلام التي سيعانيها زوجُها، والمستقبلَ الأسود الذي يهددها وابنَها. وقد شقَّ عليها، فوق كل هذا، أن تغادر المنزل الذي ضمَّ حياتها الماضية متمتعة بحنوّ سيدتها التي تحبها وتحترمها. وصعب عليها أن تنقطع صلتها نهائياً بالمكان الذي نشأت فيه، والأشجار التي عاصرتها ولبثت تحت ظلالها، والغياض التي نعمت بالتنزه فيها برفقة زوجها في

ما حييت: أي طول عمري.
انسلّت: ذهبت خفيةً.
الغياض: مفردها الغَيْضة موضع يكثر فيه الشجر والمياه.
تُقرِئاه: تُبلغاه.
شقّ: صعب، وسبّب لها الشقاء.

الأمسيات السعيدة من عمرها. ولكن جزعها على ابنها كان أقوى من هذه العواطف كلها... والواقع أن ابنها كان في سن تمكنه من السير إلى جانبها، ولكن فكرة إنزاله عن صدرها كانت تجلب لها الرعشة والوجف وتُرخي أوصالَها وتلهب قلبها، فتُضرب عن هذه الفكرة، وتشدُّه إلى صدرها الخفّاق، وتغذّ السير من دون أن تلوي على شيء.

وقبل الغروب، وصلت إليزا إلى نهر «أوهايو» الفاصل ما بينها وبين بلاد الحرية. وكان الربيع في بدئه وأمواج مياه النهر المتلاطمة تحدث دويّاً ساحراً، وفي بعض جوانب النهر كانت قطع ضخمة من الجليد تترجّح حائرة طائشة.

فتشت إليزا عن قارب أو مركب ينقلها إلى الضفة الثانية من النهر حيث تنجو من الملاحقة، فلم تجد ما يساعدها على ذلك، فاضطرت أن تأوي إلى نزل صغير اتخذه صاحبه فندقاً من دون أن يكون له صفات الفندق. فنامت مع ابنها التعِب ليلتها تلك، وكانت الهواجس تشغل بالها وتقضّ مضجعها. ولكن كل ذلك لم ينقذها من شر النخّاس الذي جن جنونه عندما علم بفرارها فلحق بها مع جماعة له. وعبثاً حاولت السيدة شيلبي أن تُعيق سيره، فقد توصّل في تحرياته الحثيثة لمعرفة مكان إليزا في تلك الليلة نفسها. وقد أحسّت إليزا بالخطر المحدق بها فغادرت

الوجف: الاضطراب.
تغذّ السير: تسرع في سيرها
دويًا: صوتاً قويًا.
تقضّ مضجعها: تمنعها النوم.
المحدق: المحيط.
أوصالها: أعضاءها.
تلوي: تنتظر او تقف.
الهواجس: الأفكار المزعجة.
الحثيثة: المتسارعة، المتواصلة.

المنزل وحملت طفلها، وانطلقت نحو النهر الهادر فبلغته من دون تأخر. قررت أن تقطعه مخاطِرة، وخاصة عندما رأت النخّاس وجماعته يلحقون بها، ويقتفون أثرها. وبشجاعة بالغة نادرة لا يمنحها الله إلا للبائسين المساكين، قفزت إليزا من الشاطئ المخيف الذي تقف عليه إلى النهر، فأدركت قطعة من الجليد كانت عائمة على النهر فوقفت عليها وهي تشد ابنها إلى صدرها. ثم انفصلت قطع عن الجليد، فتكسرت القطعة التي كانت تقف عليها، فأسرعت إليزا من دون أن تفقد توازنها لحظة واحدة، فوثبت إلى قطعة أخرى قريبة منها ثم انتقلت إلى ثالثة. وأثناء ذلك فقدت عروة حذائها ومُزّق جوربُها وجُرحت قدماها وعمل فيها الصقيع عمله؛ ولكنها لم تَرَ شيئاً ولم تشعر بشيء إلى أن رأت عيناها على شكل ضبابي، وكأنها في حلم، شاطئ «أوهايو»، إذ كان رجل يساعدها على النزول إلى اليابسة.

يقتفون أثرها: يتبعونها.

الفصل الرابع

لم يكن عُضْوُ مجلس الشيوخ سوى إنسان!

كانت تَوَهُّج نار المدفأة يُكسب أثاث حجرة الاستقبال الفخمة روعة. فبدت جوانب الكؤوس وإبريق الشاي المصقول اللامع متوهجةً بلهيب النار ما يزيد الغرفة جمالاً على جمال. وفي وسط هذا الثراء الفاخر شرع السناتور بيرد عضو مجلس الشيوخ يخلع حذاءه ليرتدي الخفين الجديدين اللذين صنعتهما له زوجته من الصوف الفاخر، أثناء غيابه عن المنزل لحضور انعقاد الدورة البرلمانية.

وبينما كان يرتدي نعليه الجديدين، التفت إلى زوجته وقال بصوت متهدّج:

- الحق، يا ماري، أن مهمة التشريع هذه مهمة مضنية!!

- حسنًا، ولكن ما الذي فعلتموه في هذه الدورة؟

لم يكن من عادة السيدة بيرد أن تُشغل رأسها بما يجري في مجلس شيوخ الولاية، فهي ترى أن ما عندها من المهام يكفيها ويُغنيها عن مثل تلك المشاكل. لذا فتح السيد بيرد عينيه في استغراب وقال:

الخفين: ما يُلبس في الرجل من جلد رقيق.
متهدّج: مرتجف.
مضنية: متعبة.

- لا شيء يستحق الذكر والاهتمام الشديد...

- ترى، هل كان المجلس يناقش قانوناً يفرض على البيض أن يمنعوا الطعام والشراب عن أولئك الملوّنين البائسين الذين يلجأون إلى الولاية؟ لقد علمتُ أنهم يعالجون شيئاً من هذا القبيل، ولكني لا أعتقد أن ثمة مجلساً مسيحياً يُقِرُّه بحال من الأحوال.

- يبدو لي أنك انقلبتِ فجأة، إلى سياسية متحمسة.

- لا، إن هذا مستحيل فإني أفضّل ألا أفقد ثانية واحدة من عمري في مناقشة سياستكم، ولكني أظن أنكم تقدمون ههنا على عمل وحشيٍّ مناقٍ لروح المسيحية، وأرجو يا عزيزي، ألا تُقدموا على إقرار مثل هذا القانون.

ولم يُرِد السناتور أن يكون جافياً في جوابه لزوجته، بل حاول أن يُفهمها أن عبيد كانتاكي قد أفسدوا الكثيرين من أبناء الولاية، وأن الكثيرين من أعداء الرق باتوا يثيرون أهل الولاية على الدولة بتصرفاتهم الشاذّة. لهذا أقر مجلس شيوخ ولاية «أوهايو» ذلك القانون الذي سمعتِ به لتهدئة الخواطر في الولاية المجاورة لها.

وما إن سمعت السيدة بيرد كلام زوجها حتى امتقع وجهها بالدم، وظهرت عليها امارات الغيظ فسألت زوجها بحزم:

- ولكن قل لي بصراحة، يا جون، هل ذلك القانون عادل أو هل ينسجم مع تعاليم المسيحية؟

يقرّه: يوافق عليه.
مناقٍ: مخالف، مناقض.
امارات: علامات.

فقال في شيء من السخرية:

ـ إنك لن تطلقي النار علي إذا ما قلت إني أجده عادلاً ومنسجماً مع الروح المسيحية.

ـ ولكنك لم تُصَدِّق على القانون طبعاً!

ـ لقد فعلتُ حقاً!

فازدادت السيدة بيرد ثورة وغيظاً:

ـ يحسن بك أن تخجل من عملك هذا، يا جون، فإنه قانون مُعيب مُلحد فاسد مجرم، ولسوف أحاول تحطيمه بنفسي عندما تسنح لي الفرصة المؤاتية، وإني لأرجو الله أن يتيح لي مثل هذه الفرصة. كم تكون الحياة تعِسة ووحشية حين ينتهي الأمر إلى أن تُمنع المرأة من تقديم عشاء ساخن وفراش إلى المخلوقات البائسة الجائعة، لا لشيء إلا لأن لهذه المخلوقات بشرة سوداء، ولأنها خضعت طوال عمرها للمستغلّين المؤذين.

وحاول السيد بيرد أن يهدئ من ثورة زوجته، ولكنها أبت الإصاخة إلى كلامه وصرخت في وجهه بقوة:

ـ هذا هراء، وكل ما تدّعيه لا يُطاق، وإنك تستطيع أن تتكلم منذ الآن وحتى ينبلج الفجر؛ ولكنك لن تتوصل إلى إقناعي بصحة رأيك. وإني أوجه إليك سؤالاً بسيطاً لترى مدى الوحشية التي ينطوي عليها

تصدّق على القانون: توافق عليه.
المؤاتية: المناسبة.
هراء: كلام فارغ.
ملحد: كافر، يدلّ على عدم الإيمان بالله.
الإصاخة: الاستماع والإصغاء.
ينبلج: يطلع.

قانونكم الأبتر حِسّيًا: ترى لو طرقت بابنا الآن مخلوقة بائسة جائعة وطلبت منك طعاماً، فهل تراك تنتهرها وتردّها خائبة ذليلة النفس مكلومة الفؤاد، لمجرد أنها عبدة وأنها هربت من ظلم جلّاديها المجرمين؟! كم أودّ حقاً أن أرى ما يمكنك أن تفعله في مثل هذه الحال يا جون! هل تطرد هذه المرأة تحت العاصفة الثلجية، أم تُلقي عليها القبض وتسوقها إلى السجن؟ ولا أخالك آنئذ خليقاً بأن تفخر بتلك المأثرة التي تقدم عليها.

وفي هذه اللحظة الحرجة مدّ «كودجو» الزنجي العجوز رأسه من وراء الباب، وطلب من سيدته أن تحضر إلى المطبخ. فتنفس عضو مجلس الشيوخ الصُّعداء، واسترخى في كرسيه ذي الذراعين، وشرع يتصفح جرائد اليوم.

وسمع صوت السيدة مدوّياً في أرجاء المنزل قائلة:

ـ أسرع يا جون وتعال إلى هنا حالاً لترى!

ورمى السناتور صُحُفَهُ، وأسرع إلى المطبخ حيث زوجته تناديه، فإذا به يرى في مطبخه امرأة هزيلة شابة، ترتدي أسمالاً ممزقة، وكانت ترتعد وترتجف من البرد وتلبس في إحدى قدميها حذاء، فيما كان الدم يسيل من القدم الأخرى ذات الجورب الممزق.

وكانت سحنة هذه المرأة تدل دلالة واضحة على أنها تنحدر من

الأبتر: الناقص.
مكلومة: مجروحة.
المأثرة: العمل النبيل الذي يفخر به الإنسان.
أسمالاً: ثياباً بالية.
تنتهرها: تصيح بها.
خليقاً: جديراً.

الجرق المحتقَر؛ ولكن جمالها الحزين ورَجْفَها من التعب والجوع أوقعا الخوف والهلع في قلب المشترع الشيخ، فأخذ يتأمل تلك المرأة من دون أن ينبس ببنت شفة، في حين انصرفت زوجته وخادمتها السوداء العجوز العمة «دينا» إلى إنعاش المرأة الفاقدة الوعي، ووضع كودجو الصبي على ركبتيه، وانهمك في خلع حذائه وجوربه من قدميه الصغيرتين الباردتين.

وصرخت السيدة بيرد في حنان:

- لا تخافي أيتها البائسة المسكينة، وذلك عندما رأتها تفتح عينيها الواسعتين السوداوين وتجيلهما في ما حولها، محاولة النهوض وعلى وجهها أمارات الموت. ثم فتحت هذه المخلوقة فاها وقالت:

- أوه هاري، ابني هاري! تُرى هل قبضوا عليه؟

وهنا وثب الصبي من حجر كودجو وعدا إلى أمه فتلقفته بذراعيها متهدة وقالت بحنوّ:

- آه! إنه هنا. إنه هنا.

ثم التفتت إلى السيدة بيرد وقالت في انكسار:

- أتوسل إليك يا سيدتي وأرجو أن يوفقك الله لقبولنا عندك، وأن تمنحينا حمايتك ورعايتك. بربك لا تسمحي لهم بأن يأخذوا ابني مني!

الهلع: الخوف الشديد.
المشترع: الذي يسنّ الشرائع أي يضع القوانين.
تُجيلهما: تُديرهما.
تلقفته: أخذته بسرعة.

فأجابتها السيدة بيرد بلهجة متحمسة دافئة:

- لن يَقْوى أحد أن يصيبك بأذى وأنت عندنا. لا تخافي أيتها المرأة البائسة، فأنت في حرز أمين منذ اليوم.

وأدخلت السيدة بيرد المتشردة المسكينة إلى فراش دافئ وثير، فنامت عليه ملء جفونها وهي تحتضن ولدها بذراعيها. فقد ابَتْ بشدة ما أرادت السيدة بيرد أن تفعله بأن تنقلَ الطفل إلى سرير آخر ليرتاح أكثر.

وعاد السيد بيرد وزوجته إلى الحجرة التي كانا فيها من غير أن يتعرضا بكلمة واحدة إلى حديثهما السابق. وتشاغلت السيدة بيرد بحياكة الصوف، في حين تظاهر السيد بيرد بقراءة الصحيفة.

وأخيراً خرج السيد عن صمته وقال:

- إني لأتساءل من تكون تلك المرأة؟

أجابت السيدة بيرد والرضى يملأ نفسها:

- سوف تعرف ذلك بعد أن تنعم بقسط وافر من الراحة وتنهض من نومها.

وساد الصمت في الغرفة. وما هي إلا لحظة حتى أقبلت العمة دينا لتخبرهما أن المرأة قد أفاقت من سُباتها وأنها ترغب في مقابلة السيدة بيرد.

حرز: ملجأ حصين.
ابت: رفضت.
وثير: مريح.
سُباتها: نومها العميق.

وعاد الشيخ وزوجته إلى المطبخ فوجدا المرأة جالسة على مقعد خشبي قرب النار. وكانت **ترنو** ببصرها إلى اللهب في وداعة ورقة. فابتدرتها السيدة بيرد بصوت رقيق:

- آمل أن تكوني مرتاحة وفي وضع أفضل بعد اليوم.

فتنهدت المرأة الغريبة ووجهت إلى السيدة بيرد نظرة **ابتهال** صارخ من عينيها الكحيليتين كان لها أبعد الأثر في نفس السيدة بيرد حتى إنها، إزاء تلك النظرة المعبّرة، لم تتمالك أنفاسها ولا حبست دموعها، فقالت بوداعة مطمئنةً المرأة:

- لا تسمحي للخوف أن يسيطر عليك، فأنت هنا بين أصدقائك أيتها المرأة المعذبة. ولكن بربّك، ألا تصارحينني بحقيقتك؟ ومن أين أقبلتِ؟ وماذا تبتغين؟

فأجابت المرأة فوراً:

- من ولاية كانتاكي، يا سيدتي.

وهنا بدأ السناتور الحديث فأخذ يسألها:

- متى؟

- هذه الليلة.

- وبأية وسيلة؟

- لقد عبرت النهر فوق الجليد.

فبهت الجميع وصرخوا بصوت واحد:

ترنو: تنظر نظراً مستديماً، أي لا تحوّل نظرها.
ابتهال: تضرّع.

- فوق الجليد؟

فقالت المرأة في **اناة** ولطف:

- أجل لقد فعلتُ ذلك، وقد ساعدني الله. لقد اجتزت الجليد لأنهم كانوا يلاحقونني ولم يكن ثمة سبيل آخر.

وسألها السيد بيرد:

- وهل كنت **أمة رقيقة؟**

- نعم يا سيدي، وكان مالكي رجلاً من كانتاكي.

- وهل تراه أساء معاملتك؟

- كلا، يا سيدي، فهو سيد كريم الطباع!

- وهل أساءت إليك سيدتك؟

- لا. لا! كانت تلاطفني دائماً وتُحسن إلي في معاملتها.

- إذاً ما الذي دعاك لمغادرة ذلك المنزل الكريم ومجابهة تلك المخاطر القاتلة كلها؟

هنا زفرت الأمة زفرة عميقة، وتطلعت إلى السيدة بيرد بعين باكية وقالت:

- أيتها السيدة المحسنة، هل خانك الدهر وفقدت ذات يوم ولداً من أولادك؟

لم يكن صاحبا المنزل يتوقّعان مثل هذا السؤال. فقد سقط قاسياً على قلبيهما، وأثار فيهما ألماً ما زال ناطقاً، وأهاج جرحاً لم

اناة: هدوء
أمة: المرأة المملوكة، وعكسُها الحرة.
رقيقة: عبدة.

يلتئم. ذلك لأنهما فقدا منذ شهر واحد ولداً عزيزاً، فكانت الصدمة عليهما قاسية. فاستدار السيد بيرد واتجه نحو النافذة لتحاشي الرد. أما السيدة بيرد فقد انفجرت آلامها في بكاء مرير، حتى إذا عاد إليها هدوؤها قالت:

- ترى لماذا توجهين إلي مثل هذا السؤال؟ أجل. لقد فقدت ولداً كان عزيزاً على قلبي!

- لا ريب إذاً في أنك ستعطفين عليّ، فقد فقدت ولدين، مات الواحد إثرَ الآخر، وقد دفنتهما في الولاية التي هربت منها. ولم يبقَ لي في الوجود سوى هذا الولد، فهو كل ما أملك، وهو عزائي وأملي في الدنيا، وقد أرادوا انتزاعه مني ليبيعوه للنخّاسين. تصوّري هذه الوحشية! طفل يباع. طفل لم يفارق أمه طول حياته. لم أحتمل ذلك، أيتها السيدة، فحملته وولّيت منهم فراراً، فتعقّبني النخّاس مع نفر من جماعة مولاي القديم، وكادوا يقبضون علي لو لم أقفز إلى النهر وأركب الجليد. فعبرت النهر ودمي على كفي، ولا أدري كيف وصلت إلى هنا!

وأجهشت السيدة بيرد بالبكاء. وصرخت دينا والدمع يغمر وجهها الأسود: «اللهم ارحمنا!» في حين فرك كودجو العجوز عينيه فركاً عنيفاً، وبدت على وجهه أمارات التأثر. أما السناتور بيرد فكان رجل دولة، فليس منتظراً منه طبعاً أن يتأثر بالبكاء شأن بقية الناس الفانين. من أجل ذلك تشاغل بالتطلع إلى بعيد، من خلال النافذة، وبصقل حنجرته وتنظيف نظارتيه، ثم صاح فجأة:

يلتئم: يشفى.
تعقّبني: تبعني.

- ولكنك زعمت منذ قليل أن سيدك رجل طيب القلب، كريم النفس!

- أجل إنه طيب؛ ولكنه اضطر لاتخاذ ذلك القرار لتغطية دَيْنٍ كان يرزح تحت ثقله المُذِلّ.

- وزوجك، ألا يستطيع أن يفعل شيئاً؟

- بلى! ولكن رقبته ملك لسيّد آخر. وهو يلاقي مثل ما لاقيت. وسيده يسومه أنواع العذاب، ويهدّده بأن يبيعه إلى نخّاسي الجنوب. وأغلب الظن أني لن أراه بعد اليوم!

فسألتها السيدة بيرد:

- وإلى أين تفكرين في أن تذهبي أيتها المرأة البائسة؟

- هل تكون كندا بعيدة من هنا يا سيدتي؟ فلا أعلم أين تقع كندا هذه التي أقصدها.

فأجابتها السيدة بيرد بوداعة ظاهرة: إنها بعيدة من هنا...

وعندما رجع السيد بيرد وزوجته إلى غرفتهما، قال السناتور لزوجته والغضب يملأ لهجته:

- يجب أن تبتعد هذه المرأة عن بيتنا حالاً. فأنا لا أقبل أن يُلقى علي القبض لمجرد وجودها عندي. فلا تنسي أن بقاءها عندي يُسيء إلى مركزي ويلوّث سمعتي.

فردّت السيدة بيرد والدموع تملأ عينيها:

- نقذف بها حالاً؟ وكيف السبيل إلى ذلك؟ وإلى أين؟

- إنني أعرف إلى أين أقودها.

يسومه: يكلّفه المشقة.

قال السناتور ذلك وشرع يلبس نعليه.

-سوف أحملها إلى صديقي «جون ڤان ترومب» فهو يعطف على مثل هذه المخلوقات، وقد **أعتق** في يوم من الأيام عبيده جميعاً، وهجر كانتاكي ليشتري بيتاً يقع بعيداً عن الغدير في قلب الغابة. إنه منيع لا سبيل إلى وصول الإشاعات الشعبية إليه أو إلى مراقبة الدولة. ولكن المشكلة هو أنه لا يستطيع أحد أن يقطع ذلك الطريق الوعر سواي...

كان السناتور بيرد من الذين ناضلوا نضال الأبطال لإقرار ذلك القانون اللاإنساني في مجلس الشيوخ. فلم يكن يفهم من كلمة «لاجئ» أكثر من أنها تتألف من أربعة حروف، أو أنها صورة بشعة كما تنشرها الصحف: رجل يحمل عصاه وجرابه **ويتيه** على وجهه. أمّا ما تحمله هذه الكلمة من بؤس حقيقي، أمّا العين البشرية الصارخة بالابتهال، أمّا اليد البشرية **الواهنة** المرتجفة، أمّا نداء **الاحتضار** اليائس الذي ينفذ إلى **شَغاف القلب** فشيء لم يعرفه السيد بيرد من قبل. ولم يكن ليتخيل أن اللاجئ المشرَّد قد يكون امرأة تعِسة أو طفلاً ضعيفاً لا يقوى على الدفاع عن نفسه! وبما أن شيخنا العاطفي لم يكن من صخر أو من فولاذ فقد رق قلبه لتلك الأمَة وابنها، ورأى أنه من الأفضل أن ينقلهما تلك الليلة إلى بيت صديقه البعيد عن الأعين. وبعد أن ارتدى ثيابه، قام **ليُعِدَّ** العربة للسفر الشاق، وقبل أن يغادر الغرفة التفت إلى زوجته وقال لها في تردّد ظاهر:

اعتق: حَرَّر.
الواهنة: الضعيفة.
شَغاف القلب: غلاف القلب.
يتيه: يسير على غير هدًى.
الاحتضار: قرب الموت.
ليعدّ: ليحضّر.

- لست أدري، يا ماري، أيّ شعور سيستولي عليك من جراء عملي هذا. وأرجو أن تهرعي إلى تلك الخزانة حيث ثياب ولدنا «هنري» الفقيد...

قال هذا و**أشاح بوجهه** ثم مشى وأغلق وراءه الباب.

لم تكن ماري **لترتاب** من رقّة عواطف زوجها وقلبه الكبير. ولكن كلامه أثار **كوامن نفسها** فطفرت عيناها بالدموع، وهرعت حالاً إلى الدُّرْج المغلق على أمتعة عزيزها الراحل هنري ففتحته، فإذا بها ترى فيه سترات صغيرة متنوعة الأشكال والألوان وكوماً من المآزر والصداري وصفًّا من الجوارب الصغيرة. ووجدت نعلين صغيرين **مخنُشين** من أمام. كما وجدت فرساً خشبياً وعربة و**خذروفاً** وكُرَة وتذكاراتٍ جمعتها دموع حزينة في نفوس لا تُنسى. وأجهشت بالبكاء حتى وصلت مدامعها إلى ثيابها، فالدرج الذي تستند إليه كالدم في الأفئدة لا يذبل. وجلست السيدة بيرد إلى جانب الدرج وأسندت رأسها إلى يديها، ثم رفعت رأسها فجأة وشرعت تختار، في سرعة عصبية، أخفَّ الأشياء وأثمنها، وتجمعُها كلَّها في ربطة واحدة.

وصاح أحد ولديها المتعلقين بها:

- ماما! أتريدين أن تقدّمي هذه الأشياء إلى أحد؟

فقالت الأم في حنان وصدق:

- لو تطلّع هنري الصغير إلينا من علياته، لابتهج بما نفعله الآن.

اشاح بوجهه: أدار وجهه.
كوامن نفسها: مشاعرها الخفيّة.
خذروفاً: دوّامة، عوداً صغيراً مشقوقاً في وسطه يُشد بخيط ويدور بسرعة.
ترتاب: تشك.

لم يكن في مقدوري أن أقدّم هذه الأشياء إلى شخص أعرفه، إلى أي إنسان سعيد. ولكن أقدمها اليوم إلى أمٍّ عرفت انسحاق الفؤاد أكثر مما عرفته أنا، وإني أسأل الله تعالى أن يمنحنا بركاته، ويسبغ علينا عفوه.

وبعد المرور بمخاطر، فتحت خزانة الملابس وانتزعت منها ثوباً أو ثوبين لتعطيهما الغريبةَ المسكينة.

وعندما دقت الساعة القديمة المعلقة على الحائط الثانية عشرة ليلاً، حمل بيرد إليزا وابنها إلى منزل جون فان ترومب، فبلغوه بعد جهد متواصل ومخاطر بالغة. وقد رحَّب جون بإليزا وهاري الصغير واستقبلهما أكرَمَ استقبال. وبعد أن مكثا عنده مدة وجيزة، ساعدهما على الفرار إلى مستعمرة صغيرة من مستعمرات «الكويكرز» (جماعة الأصدقاء) المشهورة بالتقوى والتديّن. وهناك التقت إليزا بزوجها جورج وسعدت بلقائه، وكحَّلت عينيها برؤيته، بعد أن كان اليأس من لقائه يَشيع في نفسها ويسيطر عليها.

يسبغ: يفيض.

يشيع: ينتشر.

الكويكرز: أعضاء حركة دينية بروتستنتية، أسّسها في بريطانيا جورج فوكس سنة 1652، وانتشرت في الولايات الأميركية ابتداء من 1681.

الفصل الخامس

البضاعة البشرية تنتقل إلى مالكها الجديد

انبلج صباح ذلك اليوم الكالح من أيام شباط (فبراير) على مخلوقات بشرية حزينة مكسوفة وقلوب مكلومة كانت تعيش في كوخ العم توم. لقد كوت العمة كلو قميصين خشنين ولكنهما نظيفان، واستعدت لكيّ قميص ثالث على المنضدة قرب النار. وكان من عادتها أن تبلل كل جزء من أجزاء القميص قبل أن تكويَه. ولعل دموعها المنهمرة من مآقيها كانت تساعدها على تبليل الثياب المعدَّة للكيّ. وكان توم غير بعيد عنها يتصفّح الكتاب المقدّس الكبير الموضوع على ركبتيه مسنداً رأسه إلى راحة يده. ولم ينطق الزوجان بكلمة، وكأنهما أصبحا أخرسين. وقد بدأ النهار بالوضوح وأولادهما ما يزالون نائمين في سريرهم الجامع الصغير المصنوع بطريقة بدائية، وهو عبارة عن رفوف من الخشب ترتكز على عجلات كعجلات العربات.

نهض العم توم من مكانه مثقل الرأس، ومشى في اتجاه أولاده ثم خرج عن صمته فقال:

الكالح: القاسي، العابس.

مكسوفة: مهمومة.

المعدَّة: المحضَّرة.

- قد تكون المرة الأخيرة التي يُتاح لي أن أراهم فيها!

ولم تجب العمة كلو عن كلام زوجها، بل أخذت تكثر من تمليس القميص بالمكواة جيئة وذهاباً بحركات عصبية. حتى إن القميص غدا مع خشونته ناعماً بعض الشيء. وعندما انتهت من عملها ارتمت بيأس على المقعد الخشبي وأخذت تنتحب وتجهش بالبكاء.

فقال توم:

- لا تجزعي، يا كلو! سيكون معي هناك الله نفسه الذي **أسبغ** علينا رعايته هنا.

- **هَبْ** أن ذلك صحيح! ولكن الله كثيراً ما يسمح بحدوث أشياء **مُرَوِّعة**. إني خائفة عليك يا توم.

فقال توم:

- إني أترك نفسي لله، وهو وحده كفيل بأن يُعينَني على ما رسمه لي. والحقيقة أن هنالك ما يمكنني أن أحمده عليه رغم كل شيء، هو أن السيد باعني وحدي ولم يبعك أو يبع ولداً من الأولاد. فما دمتم أنتم في مأمن هنا فإني **لا اعبا** بأي شرّ قد يصيبني وحدي. وسأستعين بالله على احتمال كل ما يمكن أن ألاقيه من متاعب، وهو يساعدني من دون شك!

- كان باستطاعة السيد أن يعفَّ عن بيعك لو أراد. ولا يمكنني إلا أن **أُنحي باللائمة** على موقفه الشاذّ!

اسبغ: أفاض.
هَبْ: افترض.
مروّعة: مخيفة.
لا اعبا: لا أحفل، لا أهتمّ.
انحي باللائمة: أُقبل عليه باللّوم.

فقال توم:

- كلو، زوجتي العزيزة، بما أنك تحبينني حتماً، لا تتحدثي بهذه اللهجة، فلا أريد أن أسمع أيَّ تجريح موجّه للسيد شيلبي... ألا تعلمين أننا ربّيناه معاً فحملتُه على كتفي وهو صغير، واعتنيت به كأحد أولادي؟!

- لا أعلم! ففي الأمر ملابسات لا أفهمها...

وبعد أن قالت هذا، انصرفت لإعداد طعام الفَطور الأخير لزوجها العجوز الراحل عنها بعيداً. وقد عَنِيَتْ بأن يكون ذلك الفطور أشهى ما يكون: أفضل دجاجة عندها، وأنواع الحلوى والفطائر، فضلاً عن الحساء الشهي.

واستغرب ولدها «مُوْز» تلك المآكل تضعها والدته على المائدة، فمدّ يده وانتشل قطعة من الدجاجة، فما كان منها إلا أن **انتهرته** وضربته بجمع كفها على أذنه، وصرخت في وجهه:

- كيف تجرؤ أن تمسَّها؟ أما تعلم أنه آخر فطور يتناوله أبوك في هذا المنزل؟! ولامها توم على تصرفها، فقالت وهي تخفي وجهها وراء **مئزرها**:

- لا تؤاخذني، فما كان ذلك بقصد مني.

وجمد الأولاد في مكانهم لدى صراخ أمهم، وأخذوا يتفحّصون حركات أمهم وأبيهم باهتمام بالغ، ثم أسرع الطفل الصغير وتعلق بثياب أمه وبكى بكاءً صارخاً مدوّياً.

انتهرته: زجرْتُه بعنف.
المئزر: قطعة من القماش تُربط على الخصر وتغطي القسم السفلي من الجسم.

عندئذ دعت «كلو» أولادها إلى المائدة فأقبلوا عليها في شوق ولذة.

والآن، قالت كلو، يجب أن أُعِدَّ لك ثيابك، ها هوذا ثوبك الصوفي الذي يَقيكَ الروماتيزم، في هذه الزاوية. حافظ عليه جيداً فلن تجد بعد اليوم من يصنع لك ثوباً مثله. وهذه هي قمصانك الجديدة والعتيقة قد رَفَوْتها أمس... ولكن يا إلهي من سيرتاً لك جواربك بعد اليوم؟!

وأسندت رأسها إلى جانب الصندوق وتنهدت. وهنا صاح أحد الأولاد:

- ها هي السيدة تأتي نحونا!

فقالت كلو:

- إنها لا تستطيع أن تبدّل الواقع، فلماذا تراها جاءت؟

ودخلت السيدة شيلبي فقدمت لها كلو في خشونة واضحة كرسياً لتجلس عليه.

وقالت السيدة:

- يا توم! إني آتية....

وصمتت إذ لم تقوَ على النطق أمام هؤلاء المحزونين الصامتين، ثم ارتمت على الكرسي وأجهشت بالبكاء. وإذ رأتها كلو، وقد تشنَّج وجهها حزناً، قالت لها:

- لا تبكي يا سيدتي. رجاءً، لا تبكي!

يقيك: يحميك.

رفوتها: أصلحتُ ما بها من ثقوب وخروق.

ثم انفجرت كلو بدورها بالبكاء، وبكى الجميع مدة من الزمن بصمت.

وأخيراً قالت السيدة:

- ثِقْ يا توم بأني لا أستطيع أن أهبك شيئاً ينفعك في مصيبتك. فَهَبْ أني أعطيتك الآن بعض المال فإنهم سيأخذونه منك من دون شك. لهذا فإني لم أجد ما أقدمه لك سوى أن أقسم بالله العلي القدير أني سأعمل دوماً لتلقُّف أخبارك أملاً في أن أفتديك وأستعيدك من المالك الجديد، عندما يتيسّر لي المال الكافي لذلك. وإلى أن يتمَّ لي ذلك أملُ أن تسلم أمورك لله!

وفي هذه اللحظة، أعلن الأولاد وصول السيد هيلي مالك توم الجديد. ولم يمض على ذلك برهة حتى فتح الباب برفسة خشنة وقحة وجَّهها القادم إلى باب الغرفة، ثم ظهر السيد هيلي في باب الغرفة بوجهه الفظّ القاسي، وعلاماتُ الانتقام بادية عليه من جراء ما عاناه بالأمس من جهد ضاع جزافًا في ملاحقة إليزا. وما كان منه إلّا أن صرخ قائلاً:

- قم أيها العبد! هل أنت مستعد؟

وأقفلت كلو الصندوق وتطلعت عابسة إلى النحّاس، وهي تنهض متثاقلة، وقد تبدّى لها الموقف مُحرجاً، فاستحالت دموعها فجأة إلى شرار من نار توجّه إلى النحّاس.

هب: افترض.

يتيسّر: يتوفّر.

تبدّى: ظهر.

تلقُّف: الأخذ بسرعة.

جزافًا: من دون فائدة.

ونهض توم في هدوء انصياعاً للأمر، ورفع صندوقه الثقيل، ووضعه على كتفه، وحملت زوجتُه طفلها الصغير بين يديها لتتبعه إلى العربة، ولحق بها الطفلان الآخران وهما **يُعولان** وينتحبان.

وأخذت السيدة شيلبي تتحدث بصوت خافت إلى النخّاس، وفيما هما يتحدثان ويتجاذبان أطراف الحديث، تقدمت الأسرة كلها إلى العربة الواقفة بمحاذاة الباب حيث احتشدت جمهرة من نساء المنطقة ورجالها وأولادها لتوديع الراحل العجوز الوداع الأخير.

والتفتت إحدى النساء المنتحبات إلى العمة كلو وقالت لها:

ـ يُخيَّل إلينا أنك تتحملين وقع المصيبة أكثر مما نتحمله نحن يا كلو.

فأجابتها الزوجة التعسة، وهي ترمق النخّاس الذي كان يتقدم نحو العربة **بنظر شزر**:

ـ لقد جفَّت دموعي يا أختاه، وإني لا أحس بالقدرة على البكاء بعد اليوم!

وصرخ هيلي في وجه توم: إصعد! فصعدت السلعة الإنسانية إلى العربة. أما النخاس فقد سحب من تحت المقعد في العربة قيدين حديديين ثقيلين، و**صفد** بهما رجلي العجوز من دون أن يُبدي هذا تمنّعاً أو اشمئزازاً.

وصاح الجمع المحتشد صيحة استنكار، في حين قالت السيدة شيلبي وهي واقفة على شرفتها:

يعولان: يرفعان صوتهما بالبكاء والصياح.

بنظر شزر: بمؤخر العين. **صفد**: أوثق، قيّد.

ـ أؤكد لك، يا مستر هيلي، أن لا حاجة تضطرك لاتخاذ كل هذا الحذر.

وهنا أدرك الصبيّان الصغيران حقيقة المصير الذي سيق إليه أبوهما، فتعلقا بثوب والدتهما، و**طفقا** يُعولان وينشجان على شكل يفتت الأكباد.

وسمع الجمع العم توم يقول:

ـ آسف لعدم تمكني من توديع السيد جورج...

وكان جورج هذا **نجل** السيد شيلبي، غائباً عن الإقطاعة فلم يدر بالمصير الذي انتهى إليه العم توم، ثم استطرد يصرخ قائلاً بصدق وإخلاص:

ـ أقْرِئوا السيد جورج سلامي وحبي!

ـ وهنا ألهب السيد هيلي بسوطه ظهر الفرس، فانطلقت بهما العربة مسرعةً، وكان توم يتلفت بعينه وقلبه إلى بيته وامرأته وأولاده، حتى خفي عنه الكوخ والمودعون المحتشدون قربه.

وتابعت العربة سيرها في سرعة خاطفة، ووقفت أمام دكان أحد الحدادين. وأخرج هيلي من تحت المقعد قيدين، وخاطب الحداد بقوله:

ـ إن هذين القيدين صغيران بالنسبة إلى يدي هذا العبد، فهل لك أن توسعهما ليصبحا صالحين له؟

وعرف الحداد توم فصاح:

ـ ولكنه توم. وهل باعه سيده؟

طفقا: بدأا. **نجل**: ولد.

- أجل، باعه!

- ولكنك غير مضطر يا هذا لتقييده بالأصفاد والأغلال فهو أشد الناس صدقاً، وأكرمهم نفساً وتهذيباً!

ولكن هيلي طلب من الحداد بغلظة واشمئزاز أن يسرع بما أمره به، فانصرف هذا إلى إعداد القيد. وفيما كان توم خارج الدكان مطرق الرأس يفكر في ما جرى له، والحزن يحزّ في نفسه، إذا به يسمع وقع حوافر حصان وراءه. وقبل أن يعلم مصدر الصوت ويفيق من غمرة استغرابه، قفز الفارس وهو جورج ابن السيد شيلبي كالسهم إلى العربة، وطوّق العم توم بذراعيه ثم بكى بكاءً مراً وقال لتوم:

- إني أصرّح على رؤوس الأشهاد أنّ ما عملوه هو وضيع وخسيس. فأنا لا آبه لما قد يقولونه فيّ. إنه من المخجل حقاً أن يتم هذا العمل. وثِقْ لو أنني رجل له كل صفات الرجال لما سمحت لأبي أن يفعل بك مثل هذا!

وردَّ توم بحزن والدموع تنهمر من عينيه:

كم أنا سعيد أن أراك يا مولاي جورج! فكلامك هذا يُسبغ عليّ من النعم والمسرّات أكثر مما كنت أحلم به.

قال ذلك ثم حرّك قدميه، فوقعت عين جورج على الأصفاد فصرخ رافعاً يديه:

- يا لَلعار! يجب أن أرمي هذا الوغدَ أرضاً. أجل يجب أن أؤدبه!

مطرق الرأس: محني الرأس.

على رؤوس الأشهاد: على مرأى من الجميع.

- حذارِ من أن تفعل ما يغضب السيد! وأرجو ألا يرتفع صوتك بالكلام. فليس من مصلحتي أن أغضبه، فهو رجل شرير وقاسي القلب!

- لن أقدم على ذلك إكراماً لك. ولكن بربّك فكر معي، كم هو أمر معيب وحقير، أنهم فعلوا بك كل هذا من دون أن يستدعوني أو يبعثوا إلي بكلمة استشارة. ولولا رفيقي «توم لنكون» لما علمت بالفاجعة. وإني لن أسامحهم، وسأعاتبهم جميعاً كباراً وصغاراً عندما أقوى على ذلك!

ولكنك تنطق بالخطإ، يا سيدي الحبيب، وليس في انتقامك ما يُرضيني ويروق لي.

وهنا أدار جورج ظهره إلى الدكان وهمس في أذن العبد:

- لقد جئتك بدولاري الفضي!

فغلب التأثر على توم، وقال بصوت متهدّج:

- آه. ولكني لا أستطيع أن آخذه، أيها السيد. لا لا اعذرني!

- بل عليك أن تقبله مني، واعلم أني قد أخبرت العمة كلو بذلك فنبهتني إلى أن أثقبه وأربطه بشريط ليكون في مقدورك أن تعلّقه حول عنقك وتخفيه عن الأنظار. وإلّا سلبك إياه هذا الوغد الذميم. وإني أصارحك يا توم بأني أودُّ أن أسحق بقدمي هذا النخاس، فما يشفي غليلي منه إلا أن أضربه!

- لا، لا تفعل يا سيدي فهذا لن يعود عليّ بالفائدة المرجوّة!

يروق لي: يعجبني.

الوغد: الدنيء.

متهدّج: مرتجف.

الذميم: الكريه.

- حسناً، إني لن أفعل ما يزعجك إكراماً لك يا توم!

قال جورج ذلك، وانهمك بتعليق الدولار في رقبة توم، ثم استطرد يقول:

- والآن زرِّر سترتك فوقه، وحافظ عليه، وتذكر كلما رأيته أنني سآتي ذات يوم لأنقذك من أسْرك. ولقد حدّثت العمة كلو بهذا الموضوع ووعدتها خيراً، وسألتها ألا تجزع، وأن تثق بأني سأتدبر الأمر بنفسي من دون مساعدة والدي. ولو أدّى ذلك إلى تنغيص عيشه إن لم يوافقني على افتدائك!

- آه أيها السيد جورج. ما كان عليك أن تقسو على والدك إلى هذا الحد!

- إني لم أعنِ شيئاً!

فقال توم:

- والآن يا سيدي الصغير كن مطيعاً لوالديك، ولازم أمك واطلب رضاها، فالله قادر أن يمنحنا الحسنات والطيبات مراراً، ولكنه لا يمنحنا أمًّا إلّا مرة واحدة. فإنك، مهما عشت، لن تفوز بمعاشرة امرأة مثل أمك، حتى ولو عشت أكثر من مئة عام.

- أعدك بذلك يا عم توم!

وهنا أقبل السيد هيلي وفي يده القيدان فابتدره جورج بقوله:

- أعتقد أنه قد حان لك أن تخجل من ابتياع الرجال والنساء وتصفيدهم بالأغلال وكأنهم بهائم متوحشة!

تجزع: تخاف.

- ولكن، يا صغيري، ما دامت عائلتك ترغب في بيع الرجال والنساء، فلست أجد غضاضة في شرائهم. فإن ابتياع الرجال والنساء والأولاد ليس أدعى إلى الخجل من بيعهم يا هذا!

- إني لن أقترف أيًّا من هذه الآثام حين أصبح رجلاً. وإني لأستحيي من انتسابي إلى ولاية كانتاكي، وقد كنت من قبل شديد الاعتزاز بهذا الانتساب.

قال جورج ذلك وامتطى جواده، ثم التفت إلى توم مودعاً:

- حسناً! أستودعك الله يا توم...

- مع السلامة أيها السيد الصغير. ليحمك الله القدير ولِيباركك. آه! ليس في كانتاكي كثيرون من أمثالك!

قال ذلك من أعماق قلبه، وأتبعَ نظرَه الوجهَ النبيلَ الذي مضى في سبيله. وظلّت عينا توم مسمَّرتين في ذلك الاتجاه حتى تلاشى وقع حوافر الفرس. وبهذا فقد توم آخر مشهد من مشاهد بيته القديم، وفاضت عيناه بالدموع، وسرت في أوصاله رعدة مؤلمة، بَيْدَ أن أملاً دافئاً كان يدغدغ فؤاده على ما يبدو. والأمل هو ذلك الدولار الثمين الفضي الذي وضعه جورج حول عنقه، فرفع توم أنامله المعروقة وشدَّ على التذكار بأقصى ما يستطيع، وكأنه يريد أن يدخله قلبه وأحشاءه.

غضاضة: عيب، مقصة.
رعدة: رجفة.
يدغدغ: يلاعب.
الآثام: الذنوب.
بَيْدَ انّ: لكنّ.
المعروقة: البارزة العروق.

الفصل السادس

على متن السفينة

راح العربة تسير بالسيد هيلي وتوم، وكل منهما مستغرق في أفكاره المستحوذة عليه. فهيلي كان يفكر في توم والسعر الذي سيبيعه به إذا ما ظل بديناً هكذا، حتى ذلك اليوم الذي سينقله فيه إلى سوق النخاسة. فهو عبد ضخم الجثة وطويل، وعريض المنكبين، وقليلون هم الذين يُقدمون على شراء أمثاله. وأما توم فكان يتذكّر عبارة من كتاب العهد القديم ما فتئت تراود ذهنه، وتطوف في خياله، فتهتز لها جوانب نفسه، وهي: «ليس على الأرض هُهنا مدينة خالدة! ولكننا نطلب واحدة لا بد آتية. من أجل هذا، لا يملّ الله من دعوتنا إياه إلٰهنا، ذلك لأنه قد أعدَّ لنا هذه المدينة ووعدنا بها».

وتناول السيد هيلي صحيفة من جيبه، وراح يبحث عن الإعلانات في شوق بالغ. ولم يكن يحسن القراءة، وهو يرفع صوته قليلاً عندما يقرأ، وهكذا تلا الفقرة التالية بصوت مرتفع: «تركة للبيع، زنوج! ونزولاً عند أمر القضاء سيباع يوم الثلاثاء الواقع فيه 20 شباط أمام

المستحوذة: المسيطرة.
المنكب: الكتف.
تلا: قرأ.

قصر العدل بمدينة واشنطن كاتناكي، الزنوج الآتية أسماؤهم: هاجر 60 سنة، جون 30 سنة، بين 21 سنة، ألبرت 14 سنة. وإنما سيباع هؤلاء العبيد لصالح دائني إقطاعة «جيس بلانشفورد وورثتهما».

ثم التفت إلى توم وقال:

ـ لقد قررت أن أشتري لك رفاقاً يا توم، وأرجو أن يكونوا طيبين مثلك حتى تنعم برفقتهم. لذلك يتعين علينا أن نقصد واشنطن مباشرة، حتى إذا بلغناها أودعتك السجن وانصرفت لإتمام الصفقة!

وتلقى توم هذا النبأ في صبر، وراح يتساءل في ما بينه وبين نفسه: كم واحدٍ من هؤلاء البائسين له زوج وأولاد! وما يشعرون به من ألم عندما يفارقون ذويهم؟! وانقضى النهار وهبط الليل على هيلي وتوم في العاصمة واشنطن، فأما أحدهما فأوى إلى الفندق، وأما الثاني فزُجّ في غياهب السجون.

وفي صباح اليوم التالي، حوالى الساعة الحادية عشرة، احتشد جمع غفير أمام قصر العدل ينتظرون افتتاح المزايدة. كان الرجال والنساء المعَدّون للبيع ينتحون زاوية خاصة بهم، ويتحدثون بصوت خفي، وكانت الأمَةُ التي أعلن عنها باسم هاجر في الستين من عمرها، ولكنها بدت أكبر من سنها بسبب المرض والتعب الشديدين. وكانت إلى جانب هذا نصف عمياء وشبه مقعدة من جراء مرض الروماتيزم. وكان يقف قربها ألبرت ابنها الذي لم يترك لها الزمانُ غيرَه، وهو فتى

غياهب: ظلمات.
ينتحون زاوية: يتجهون نحو زاوية، ينزوون.

www.liilas.com

في الرابعة عشرة تبدو على وجهه **مخايل** الذكاء. كان هو البقية الباقية من أسرة كبيرة انتُزعت من قلب المرأة عضواً عضواً أثر عضو، لتباع في أسواق الرقيق في الجنوب، فلا عجب إذا ما تعلقت العجوز به بكلتا يديها الراجفتين. وعلقت نظرها بخوف قاتل في كل من يتقدم ويفحصه بغية شرائه. وقد لاحظ ذلك منها أكبر الرجال سناً فقال لها مطمئناً:

- لا تخافي أيتها العمة هاجر. فلقد حدثتُ السيد توماس في أمرك، ووعدني بأن يسعى لبيعكما معاً إلى سيد واحد.

فقالت وهي ترفع يديها المرتجفتين:

- بربك يا هذا! قل للمشترين إنّي لا أزال قادرة على الطهو والغَسل والجلي... قل لهم إنّي لست امرأة مهترئة عاجزة، فباستطاعتي أن أخدم العائلة جيداً. قل لهم ذلك.

وهنا وصل هيلي إلى مكان المزاد، وشق لنفسه طريقاً وسط الجمع المحتشد، واقترب من أحد العبيد ففتح **شدقيه** وفحص أسنانه وأطال فحصها، ثم استعرض مشيته وطلب منه أن يقوم بحركات متعدّدة لاختبار قوة عضلاته ورشاقته، ثم انتقل إلى عبد ثان فأخضعه للفحوص نفسها حتى إذا وصل إلى الغلام **جسّ** ذراعيه، وتطلع إلى أصابعه، وأمره أن يقفز ليرى مدى ما يتمتع به من خفّة ورشاقة.

وبنبرة تنفح بمزيج من الجزع والحماسة قالت المرأة العجوز:

- لن يُباع هذا الغلام إلا معي. إننا نؤلف صفقة واحدة، فأنا لا

مخايل: علامات، دلالات. **شدقيه:** جانبي الفم تحت الخد.
جسّ: مسّ.

أزال قوية، أيها السيد، وأستطيع أن أنهض بكثير من الأعمال.

- في الزراعة، أليس كذلك؟

قالها هيلي في سخرية، ثم مشى والارتياح **باد** على وجهه، ليقف بعيداً ويداه في جيبه، وسيكاره معلق بين شفتيه، وقبعته مائلة إلى جانب، وكأنه مستعد **للمساومة**.

وفيما أخذ هيلي يتحدث إلى أحد التجار معلناً رغبته في شراء الفتى من دون أمه العجوز **الشمطاء**، سَرَتْ بين النظّارة **دمدمة** مجنونة، فتقدم **الدلّال** يشقّ سبيله في قلب الحشد ليصل إلى الفتى، فأمسكت العجوز أنفاسها، وتعلّقت بابنها أكثر من ذي قبل.

- إبقَ قريباً مني يا ألبرت، إنهم سيبيعوننا معاً!

فقال الصبي:

- أواه يا أماه! ولكني أخشى **أن يُحجموا** عن ذلك!

- يجب أن يفعلوا ذلك، وإلا فلن أقوى على العيش إذا ما فُصِلْتَ عني!

وأُعلن افتتاح السوق. وبدأ المزاد. وبيعت السلع البشرية المعلن عنها بأسعار جيدة. و**رسا** المزاد على هيلي مرتين اثنتين:

- والآن، تعال أيها الفتى الصغير!

قال الدلّال ذلك ووكز ألبرت بمطرقته. «إصعد إلى **المنصة** وأرِنا

باد: ظاهر. **المساومة:** مناقشة السعر.
الشمطاء: التي اختلط سواد شعرها ببياض. **دمدمة:** أصوات مختلطة غاضبة.
الدلّال: الوسيط بين البائع والمشتري. **أن يُحجموا:** أن يمتنعوا.
رسا: استقرّ. **المنصة:** مكان مرتفع.

عدوّك ووثبك، ورشاقتك وقوّة عضلاتك!»

فصاحت العجوز وهي تتمسك بتلابيب ولدها:

- ضَعْنا نحن الاثنين معاً على المنصة. ضعنا معاً، من فضلك، أيها السيد!

فانتهرها الرجل وأبعد يديها المتوسلتين قائلاً:

- سوف يأتي دورك في النهاية. اقفز الآن أيها الأسود الصغير!

وانبرى الفتى إلى المنصة، في حين سمع القوم من أمه المسكينة أنّة عميقة. ووقف الفتى بهدوء وأخذ يُجيل نظره إلى الأمام وإلى الوراء. ولكن الدلال دفعه بشدة إلى داخل المنصة، والدمع يسيل من عينيه الواسعتين اللامعتين.

وقد أثارت طلعته البهية وقوامه الرشيق وعيناه الواسعتان منافسة حادة بين النخاسين. وتهافتت العُروض على الدلّال من كل جانب. أما الفتى فكان حزين القلب ينقل طَرْفه من جهة إلى أخرى متتبعاً مزايدة النخّاسين وأصواتهم المرتفعة من هنا وهناك. وأخيراً أعلنت المطرقة اختتام المزاد، وفاز هيلي بالصفقة، فاقتيد الفتى من المنصة إلى سيده الجديد، ولكنه وقف لحظة وتلفّت إلى الوراء، في حين كانت أمه العجوز، وقد سرت فيها رعدة مريرة، تمد يديها المرتعشتين نحوه:

- اشترني أيضاً، أيها السيد، أستحلفك بالله اشتريني، وإلا قضيت نحبي من الغم والحزن.

تلابيب: أعلى الثوب عند العنق. تهافتت: تتابعت، تساقطت.
قضيت نحبي: تُوُفّيتُ، متُّ.

ولكن هيلي لم يابه لتوسُّلاتها، فاشتراها أحد النخاسين بثمن بخس، بل بدراهم معدودة، وتفرق شمل النظّارة وانتهى المزاد.

وتجمع ضحايا المزاد، الذين عاشوا طوال سنوات في منزل واحد، حول العجوز المُعْوِلة المنتحبة، المرددة أبداً بصوت حزين:

- أما كان في إمكانهم أن يتباعوني مع ولدي. فما كنت أعتقد أن قسوة الدهر تستطيع أن تصل إلى هذا الحد. معي!

فقال أكبر العبيد يؤاسيها:

- سلمي أمرك لله أيتها العمة هاجر!

فتنهدت وقالت:

- وما الفائدة من الاتكال على الله بعد اليوم؟!

فصاح الفتى:

- أمي، أمي، لا تقولي هذا، إنهم يقولون: إن سيدك الجديد رجل طيب.

- لست أبالي، لست أبالي. آه يا ولدي. إنك ولدي الوحيد الذي تبقّى لي في هذه الدنيا. إلهي كيف أقوى على احتمال ألم الفراق؟!

وصاح هيلي في غلظة:

- تعالوا! أبعدوها من هنا، فليس من الخير لها أن تستمر على هذه الشاكلة.

وفُصلت المخلوقة البائسة عن ابنها، واقتيدت إلى عربة مولاها الجديد. وانصرف هيلي لتصفيد أيدي السلع البشرية التي امتلكها

لم يابه: لم يكترث. يؤاسيها: يعزّيها، يسلّيها عن حزنها.
تصفيد: تقييد.

اليوم، بعد أن ربطها بسلسلة حديد طويلة اقتاد بها بضائعه الجديدة إلى السجن.

وبعد أيام، ركب هيلي وممتلكاته متن مركب من مراكب أوهايو. لقد كان العبيد الثلاثة يؤلّفون نواة «ثروته البشرية» المقدّر لها أن تتعاظم كلما انتهت السفينة إلى مرفإ جديد.

كانت السفينة الجريئة الجميلة تشق عباب الماء في زهو وبِشْر، تحت سماء صافية **الأديم**، وفي ظل العلم الأميركي ذي الخطوط والنجوم. وكان الحرس مختلطين بالرجال والنساء الحسان الثياب والهندام الذين يمشون على ظهر السفينة، ويستمتعون بطقس ذلك النهار الساحر، فكل شيء من كائنات ومناظر طبيعية كان **يمور** بالسعادة إلا المخلوقات البشرية التي يمتلكها هيلي، والتي حشدت مع الحمولة في الطبقة السفلى من السفينة، والتي لم تكن لتحلم أن يتاح لها التحدث بحرية عن سيدها، حين سُمح لها بأن تختلط لتتحدث. ولكن هيلي انتبه أخيراً إلى **هفوته**، فهرع إلى مقتنياته مسرعاً، وأخذ يوبخهم على هذا الوضع الذي اتخذوه وصاح بهم:

- هيه! آمل أن تكونوا فرحين مستبشرين. وثقوا أنكم إذا ما خلصتْ نيّاتكم نحوي وجدتم عندي الخير الكثير.

وأجاب العبيد دفعة واحدة:

- نعم يا سيدي!

البشر: انشراح الوجه.
يمور: يتحرك ويموج.
الأديم: ما ظهر من الشيء.
الهفوة: الخطأ.

ولكن الحق يقال، إن أولئك العبيد لم يأنسوا إلى كلامه، فقد كانوا يذكرون زوجاتهم وأمهاتهم وأخواتهم وأولادهم، وكانوا قلقين على مصيرهم. وتحدثت السلعة التي وُصفت بأنها «جون وعمرها 30 سنة» فقالت:

- إن لي زوجة تعسة لا تعلم شيئاً عما **آلت** إليه حالي.

فسأله توم:

- وأين تعيش زوجتك؟

فقال جون:

- في فندق غير بعيد من هنا، وكم أتمنى لو أستطيع أن أراها مرة أخرى قبل أن أموت!

أمّا جون فبكى، وكان بكاؤه هادئاً وطبيعياً جدًّا، فكانت دموعه تسيل على خديه ثم تنحدر على عنقه من دون أن يتكلم، وكأنه إنسان أبيض، فتنهد توم من قلب جريح وحاول أن **يسرّي** عن الرجل، وأن يخفف عنه بعض الشيء.

وفي ذات يوم، وصلت السفينة إلى مدينة صغيرة في ولاية كانتاكي، فنزل هيلي إلى اليابسة لغرض تجاري طبعاً. وفي تلك الأثناء، تمكن توم الذي لم تكن قيوده تشلّه عن الحركة بصورة كلّيّة، من أن يزحف إلى حافة السفينة. وراح يسرّح طرفه في مناظر الشاطئ الجميل، فاسترعى بصرَه منظر مهمّ. شاهد هيلي النخاس يعود إلى السفينة ومعه زنجية تحمل رضيعاً، وتمتاز هذه الزنجية بحسن المنظر

آلت: صارت، وصلت.
يسرّي: يبعد الهم.

وجمال الصورة. وكان يمشي وراءها زنجي وبيده حقيبة صغيرة. وكانت أمارات السرور والبشر تطفح على وجه الزنجية وهي تحدث الزنجي أثناء سيرها إلى السفينة. وقرع الجرس وأنّت الآلة البخارية وشقّ حيزوم السفينة عبابَ الماء.

ومشت المرأة عبر الصناديق والبالات المتراكمة في الطبقة السفلى من المركب، حتى إذا جلست تشاغلت بمداعبة طفلها.

وتجوّل هيلي جولة أو جولتين حول السفينة، ثم اقترب من المرأة الجميلة وشرع يحدثها بشكل همس. ولاحظ القوم أن وجه المرأة قد تجهّم وأنها فقدت بِشْرَها، فكانت تجيب النحّاس بكلام عالٍ دالّ على غضب وحنق. فقد سمعوها تقول له:

- إني لا أصدق ذلك، لا أصدق ذلك، فأنت تريد أن تخدعني!

فقال هيلي وهو يسحب ورقة ما من جيبه:

- وإذا كان كلامي لا يقنعكِ فإليك هذه الوثيقة التي تثبت بيعك لي، وعليها توقيع سيدك. واعلمي أنك كلفتني مالاً ضخماً.

فقالت المرأة بغضب متزايد:

- لا أستطيع أن أصدق أن سيدي يمكن أن يتخلّى عني على هذا النحو. لا. لا أصدق، بل لا يمكن أن يكون ادعاؤك صحيحاً.

- في استطاعتك أن تسألي أيًّا من هؤلاء الرجال الذين يُحسنون القراءة.

حيزوم: صدر.

البالة: حزمة ضخمة من البضاعة محكَمَة اللّف والربط (واللفظة إيطالية).

تجهّم: عبس.

قال ذلك ونادى أحد المسافرين قائلاً:

- أرجو يا سيدي أن تتلطف وتقرأ هذه الورقة على مسامع هذه المرأة فإنها لا تصدقني.

فقال الرجل:

- ولكنها وثيقةُ بيعٍ موقعة من «جون فوسديك»، وهي تنص على أن الأَمَة «لوسي» وطفلها صارا ملك يمينك. إنه كلام واضح لا لَبْسَ فيه.

وأدّى هذا الموقف إلى تجمهر المسافرين حول المرأة الغَضْبَى، فاضطر هيلي أن يشرح لهم سبب خلافه معها. ولكن المرأة قالت لهم بصراحة:

- لقد كَذَبَني. فقد ادعى أنه ينقلني إلى مدينة لويسفيل لأعمل طاهية في الفندق نفسه الذي يعمل فيه زوجي، ويمثل هذا ادعى سيدي جون فوسديك، ولا يمكنني أن أتصوّر سيدي كاذباً.

فقال رجل تبدو على محيّاه أمارات طيب القلب وكرم النفس، بعد أن ألقى نظرة على الورقة:

- ولكنه قد باعك أيتها المرأة المسكينة!

- إذاً فهذا صحيح ولا فائدة من العصيان يا سيّد!

قالت المرأة هذا، وركنت إلى الهدوء كمن اقتنع بصحة أمر كان يعارضه، ثم شدت طفلها إلى صدرها لتثبته، وصارت تُجيل بصرها في النهر الكبير!

وواصلت السفينة سيرها، وهبت فوق رأسها نسمة من نسمات

اللَّبْس: الشكّ.

محيّاه: وجهه.

الصيف الناعمة التي لا تتساءل عما إذا كان الجبين الذي تمر عليه أسود أم أبيض. ونظرت إلى أشعة الشمس تتلألأ على سطح الماء في تموّجات عسجدية، وسمعت أصواتاً متبعثرة تتحدث حولها من كل جانب. ولكن فؤادها كان مثقلاً بالهموم، فأحسّت وكأن جبلاً قد سقط عليها. وتململ طفلها بين يديها ولطم خديها براحتيه الصغيرتين، فشدته إلى صدرها شدًّا محكماً، ونفخت من دون قصد على وجهه الصغير الهادئ آهات متتالية، ثم سقطت الدموع من عينيها السوداوين على وجه الطفل.

ومر بها رجل فرأى نشاط الغلام وصحته الموفورة، فوقف إلى جانبها فجأة وقال:

- إنه لغلام جميل! كم عمره؟

فأجابت المرأة:

- عشرة أشهر ونصف يا سيدي!

ولاطف الرجل الغلام، وصفر له ثم قدّم له قطعة من حلوى ثم واصل سيره، حتى إذا بلغ جانب السفينة الآخر، وقف قرب «هيلي» الذي كان جالساً يدخن فوق بعض الصناديق المكوّمة، وسأله ما الذي سيفعله بتلك المرأة السوداء؟!

فقال هيلي:

- إني سأستخدمها في جَنْيِ القطن وحَلْجِه فأناملها القوية تساعدها على ذلك.

عسجدية: ذهبية.
الجني: القطاف.
حلج القطن: تخليصه من بذره.

- إذا كنت بحاجة إلى المرأة فلا أعتقد أنك بحاجة إلى الطفل في الأعمال الزراعية.

فأجاب هيلي وهو يشعل سيجاراً جديداً:

- سوف أبيعه حالماً أجد له شارياً.

- إنك ترضى ببيعه بثمن زهيد طبعاً!

قال الرجل ذلك وتسلق الصناديق المكوّمة وجلس في راحة واطمئنان.

فقال هيلي:

- هذا يتوقّف على الظروف. ولكن ألا ترى معي أنه طفل رائع؟! انظر إلى شكله وإلى طوله وبدانته، وإلى لحمه المتراصّ فوق عظامه.

قال الرجل:

- أرى كل هذا، ولكن لا أخالك تطلب ثمناً له أكثر من عشرة دولارات، خاصة وأنه من العسير عليك أن تعنى بتربيته وترعاه بنفسك.

فهزّ هيلي رأسه وقال:

- لا.

وأردف قائلاً:

- يمكنني أن أربي الطفل بنفسي أو أن أعهد به إلى مربّية ما دام صحيح البنية، وعندئذ أستطيع أن أبيعه بمئة دولار بعد ستة أشهر، وقد أبيعه بعد سنة بمئتين. لهذا فلا أوافق على بيعه الآن بأقل من خمسين دولاراً.

أعهد به إلى مربّية: أضعه في عُهدتها، في كفالتها.

قال هذا وحرّك رأسه بما يدل على الحزم والإصرار.

- ولكن طلبك هذا يثير الضحك!

فقال هيلي:

- لن أتراجع عن قراري!

فقال الرجل:

- إني على استعداد لأن أدفع ثلاثين دولاراً ثمناً له. ولو سألتني ستاً واحداً فوق ذلك لما فعلت.

فتنحنح هيلي وبصق على الأرض ثم قال:

- يمكننا أن نتفاهم يا هذا. ولمَ لا نقسم الفرق؟! فإني أقبل منك أربعين دولاراً فقط. وَثِقْ أنه أقصى ما يمكنني أن أتنازل عنه.

فقال الرجل بعد تفكير:

- حسناً لقد اتفقنا.

فقال هيلي:

- اتفقنا، في أي بلد سنهبط.

- في لويسڤيل!

فقال هيلي:

- وأيّ لويسڤيل تقصد، ولسوف نصلها قبل **الغسق**. وأعتقد أن الطفل سيكون نائماً فأنا من الذين يكرهون الغضب والعويل، وأفضل أن أقوم بكل صفقاتي بسلام وهدوء.

ووصلت السفينة إلى ميناء لويسڤيل مساء، وكان الجو لطيفاً.

الغسق: ظلمة الليل.

فاستفاقت المرأة من ذهولها، والنشوة تغمر نفسها، يَقيناً منها أنها بعد قليل ستلاقي رفيق حياتها. فوضعت طفلها الغارق في النوم في مكان ضيّق بين صناديق الحمولة، ثم أسرعت إلى جانب السفينة المطلّ على الرصيف حيث المستقبلون متجمهرون أملاً في أن تجد زوجها بين نزل الفنادق العديدين المتزاحمين على الرصيف.

وفيما كانت الأم منصرفة إلى البحث عن زوجها، حمل هيلي الطفل النائم وقدمه إلى مشتريه وهو يقول:

- حذارِ أن توقظه، فتهرعَ أمه لانتزاعه من بين يديك عندما تسمع صراخه.

فتناول الرجلُ الرضيعَ **وولّى** به عائداً إلى رصيف الميناء. وعادت المرأة إلى حيث وضعت طفلها بعد أن يئست من العثور على زوجها، فوجدت هيلي النخاس، ولكنها لم تجد طفلها فصرخت:

- ولدي! ولدي! أين هو؟ أين أرسَلْتَه؟

- اعلمي أن ولدك لم يعد لك. ومن الخير أن تعلمي ذلك في بداية الأمر من أن تعلميه آخر الأمر. ولقد كنت متأكداً من أنك لن تستطيعي أن تصحبيه إلى الجنوب، وساعدتني الظروف فبعتُه لأسرة من الأسر الكريمة التي تتمكّن من تربيته أفضل مما لو بقي معك!

وارتعدت **فرائص** المرأة لدى سماعها هذا الكلام، فحدجت النخّاس بعينين **تتميزان غيظاً** وحقداً. ولكن مثل هذه النظرات لم تكن

ولّى: ذهب مسرعاً.
فرائص: لحم بين الكتف والصدر.
تتميّزان غيظاً: تتقطعان غيظاً، تنفجران من شدّة الغيظ.

لتقلق هيلي، فقد اعتاد رؤية مثل هذه المواقف مئات المرات قبل اليوم. ولهذا لم تهزّه غضبة المرأة ولا ما أصابها من الألم، إذ إنه لم يَرَ في ضيق أنفاسها وحدّة نظراتها وتململ حركاتها غير ظاهرة من ظواهر التجارة السوداء. وكل ما يخشاه هيلي هو أن تنفجر المرأة بالبكاء والعويل، فتسبب له إزعاجاً هو بغنى عنه على ظهر السفينة!

ولكن المرأة التعسة لم تُعْوِلْ ولم تنتحب. لقد أصابت الطعنة شغاف قلبها فلم يبقَ فيه مكانٌ لصرخة أو ألم.

وجلست مكانها شاردة **اللُّبّ**... وتطلعت بعينيها إلى الأمام؛ ولكن من دون أن ترى شيئاً معيّناً. واختلط ضجيج السفينة وهدير آلاتها في أذنيها المشوّشتين، وأصابها **البكم** فهي ساكتة سكوت الأموات.

وأحب النخاس أن **يحاكي** بعض ساستنا من مقلدي أصحاب القلب الإنساني الرقيق فراح يقدم لها **أفانين** العزاء.

- أنا أعلم أن المصيبة تكون شديدة الوطأة بادئ الأمر، ولكن امرأة ذكية مثلك لا تدع للغمّ سلطاناً على نفسها. لقد كان ذلك ضرورياً. ليس إلى اجتنابه سبيل.

فقالت المرأة بصوت مختنق:

- حبذا لو تسكت يا هذا!

ولكنّ النخّاس أصرّ على الكلام:

اللبّ: الذهن.
يحاكي: يُشابه.
البكم: الخرس.
أفانين: أنواع، أساليب.

- إنك امرأة ذكية، يا لوسي. وإني **مزمع** على أن أعاملك أحسن معاملة. ولسوف تجدين في وقت قريب زوجاً جميلاً يُرضي أهواءك.

- كم أودّ، يا سيدي، لو تصمت أو تعفيني من الإجابة عن كلامك.

و**اشاحت بوجهها** عن النخّاس فلم يجد بدًّا من قطع الحديث وتأجيله إلى فرصة أخرى.

وكان توم يتتبع المشهد من أوله إلى آخره. و**تفطّر** قلبه **أسًى** على هذه المرأة المتكدرة، فاقترب منها وحاول أن يقول شيئاً. ولكنها كانت مُغْرِقَةً في الأنين ترسله فتتقطع له **نياط** القلوب. وبلهجة صادقة وعيون مليئة بالدموع، أخذ توم يحدّث المرأة عن الحياة وعن الخيرات السماوية، إن هي صبرت. وبإيمان شديد وطيد أخذ يحدثها عن يسوع الرحيم الرؤوف، وعن الجنة في العالم الآخر التي وعد بها يسوع المؤمنين. ولكن غمّ المرأة الشديد حال دون سماعها أقوال توم، وكان قلبها متعطلاً عن الشعور والإحساس.

وهبط الليل، هبط رائعاً مشرقاً بعيونه الملائكية التي لا تُعَدّ، والتي تومض بالجمال، على صفاء. ولم تنبعث من تلك السماء **النائية** كلمة **رؤوم**، أو تمتد منها يد مسعفة. واختنقت صيحات التجارة واللهو واحدة إثر الأخرى، ونامت السفينة كلها نوماً هادئاً عميقاً. وتمدد توم على أحد الصناديق، وهناك حيث كان مستلقياً سمع أنّات مخلوق

مزمع: مقرّر، مصمّم.
تفطّر: تشقّق.
نياط: عروق.
رؤوم: عطوف، حنون.
اشاحت بوجهها: أدارت وجهها.
الأسى: الحزن.
نائية: البعيدة.

بشري مُضْنى الفؤاد.

- آه، ماذا أصنع؟ يا إلهي ساعدني يا إلهي!

وظلت هذه الأنّات ترن في أذنه دهراً طويلاً، وأخيراً غرقت الهمهمة في بحر من الصمت الكبير.

واستفاق توم قبيل منتصف الليل مذعوراً إذ أحس بطيف أسود يمرّ به، ثم ينطلق إلى جانب السفينة الآخر، ثم يلقي بنفسه في خضم الماء!

ورفع توم رأسه ليتحقّق من صحة ما جال في خاطره من وساوس، فوجد مكان المرأة خالياً، فأدرك أن المرأة قد رمت بنفسها في النهر. ولقد حاول العجوز أن يعمل شيئاً؛ ولكن عبثاً فقد كفّ قلب المرأة عن الخفقان، بعد أن غمرت أمواج النهر جثتها، وابتلعت كل ما كان يجول في خاطرها وقلبها من آلام ومتاعب.

مُضْنى الفؤاد: متعب القلب.

الهمهمة: الكلام الخفي.

الفصل السابع

إيڤانْجيلين

كان بين ركاب السفينة التي تسافر إلى نيو أورليانز ثلاثة ركاب توطّدت روابط المحبة والألفة بينهم وبين توم، حتى إنه يمكننا القول إن مصير توم قد ارتبط بهم أشد ارتباط، وتعلق قلبه بهم كل التعلق. أما الأول واسمه «سانت كلير» فهو مزارع طيب النفس؛ ولكنه يمتاز بسخرية لاذعة وتهكم جارح. ولعله اكتسب هذه الصفة من حياته الزوجية المريرة، فقد ابتلاه الله بزوجة غنية غبور تسمى ماري، فلم ينعم معها بالسعادة التي يَنْشدها، فراح يُكثر السَّفر فراراً من منزله المظلم وعيشه المنكر. أما الراكب الثاني «أوفيليا»، ابنة عم السيد كلير، فعانس في الخامسة والأربعين من العمر، متزمِّتة، متجهِّمة الوجه أبداً، تبدو عليها أمارات الصرامة والقسوة. وقد جاء بها السيد كلير لتدير قصره وتشرف على تربية ابنته.

وأما الثالث فـ «إيڤانجيلين» ابنة السيد كلير، وعمرها يراوح ما بين الخامسة والسادسة، وهي آية في الجمال، رشيقة خفيفة لا تستقرّ

توطّدت: ترسّخت، توثّقت.

متزمتة: متشددة في رأيها.

يَنْشدها: يبحث عنها، يطلبها.

الصرامة: الشدّة، الحزم.

في مكان إلا بمقدار ما تستقر أشعة الشمس أو نسمات الربيع. وكانت تعلو وجهها ملامح من البراءة الحالمة أشبه ما تكون بتلك التي يخلعها خيال المرء على الكائنات الأسطورية. وكان شعرها الذهبي الطويل كسحابة يحيط بوجهها الجميل، وكانت عيناها البنفسجيتان تُشعّان ببريق جذاب وتظللهما أهداب شقراء ما يجعلها تختلف عن كل الأطفال. وكان جمالها الخلاب يجذب أنظار من يشاهدها وهي تلهو وتتنقل هنا وهناك على متن الباخرة.

وكان توم يراقب هذه المخلوقة الصغيرة المرتدية مِئْزَلًا («روباً») أبيض بسرور متعاظم يوماً بعد يوم. لقد بدت في عينيه مخلوقًا سماويًا. فهو لا يكاد يلمح رأسها الذهبي وعينيها الزرقاوين تطلان عليه من وراء إحدى بالات القطن الداكنة حتى يخيل إليه وكأن عينيه قد وقعتا على أحد الملائكة الأطهار الذين يتحدث عنهم الكتاب المقدس.

وكانت إيفانجيلين حزينة ثقيلة النفس كلما مرت بالقرب من ممتلكات هيلي البشرية المصفّدة بالقيود، فكانت تسير بينهم واللوعة بادية على محيّاها. وأحياناً ترفع بيديها الرقيقتين سلاسلهم الغليظة ثم تتنهد بعمق وتنسحب من بينهم بخفة. وكم من مرة كانت تزورهم ويداها وجيوبها مليئة بالحلوى والجوز والبرتقال لتوزعها عليهم ثم تعود فرحة بعملها هذا.

وذات يوم سألها توم:

- ما اسم مولاتي الصغيرة؟

سحابة: غيمة.

أهداب: جفون.

فأجابت:

- إيفانجيلين سانت كلير؛ ولكن الجميع يسمونني إيفا.

ثم التفتت إليه وسألته:

- ولكن ما اسمك أنت؟

- اسمي توم. وقد كان الصغار يدعونني العم توم، هناك بعيداً حيث عشنا في كانتاكي.

- اسمح لي إذاً أن أدعوك العم توم، فإنني أحببتك. والآن أيها العم توم، إلى أين أنت ذاهب؟

فقال توم:

- لست أعلم يا مولاتي الصغيرة!

فاستغربت إيفا وقالت بدهشة:

- لست تدري؟!

- لا. كل ما أعرفه أنني سأباع لواحد من الناس. أمّا من يكون هذا الرجل فذلك ما أجهله.

فسارعت إيفا إلى القول:

- باستطاعة بابا أن يشتريك، وإذا تم لنا ذلك فعندئذ يمكنك أن تتمتع بالحياة. سوف أسأله أن يفعل ذلك، هذا اليوم.

- شكراً، يا سيدتي الصغيرة!

كان اليوم التالي قائظاً تنقبض منه الأنفاس. وكانت السفينة قد اقتربت من مرفإ نيو أورليانز ما جعل جوّها مليئاً بالحركة. وقد بدأ

قائظاً: شديد الحرّ.

البحارة بالاستعداد للنزول، وأخذ المسؤولون عن نظافة السفينة يتولّون تنظيفها وصقلها استعداداً لدخولها الثغر دخول الفاتحين، كما أخذ المسافرون يجمعون أمتعتهم ويرتبونها بانتظار النزول إلى اليابسة.

وكان توم في تلك الأثناء يجعل بصره بين الفينة والفينة نحو الجانب الآخر من السفينة بشوق بالغ. فرأى على مقربة منه الطفلة البريئة إيفانجيلين شاحبة الوجه شاردة اللُّب، وإلى جانبها شاب أنيق لا بد من أن يدرك الناظر إليه للوهلة الأولى أنه والدها سانت كلير. كان يسند أحد مرفقيه إلى بالة من القطن مستمعاً في لا مبالاة واضحة إلى هيلي المتدفق في امتداح السلعة التي تجري عليها المساومة. حتى إذا أتمَّ هيلي كلامه قال سانت كلير بلهجة ساخرة:

- تعني أن الفضائل الأخلاقية والمسيحية قد اجتمعت كلها هنا ضمن دفتين من الجلد الأسود الناضر! حسناً أيها الأخ الطيب! كم تطلب في صاحبنا هذا؟

فقال هيلي:

- أحسب أن ألفاً وثلاث مئة دولار تكون كافية.

فقال سانت كلير:

- ولا شك أنك لم تطلب هذا الثمن إلا إكراماً لخاطري!

الثغر: الموضع الواقع على الحدود.

اللب: العقل، والمراد هنا أنها شاردة الفكر.

الناضر: الناضر من كلّ لون ما كان منه شديداً، يقال أسود ناضر وأحمر ناضر.

- لا شك أنك تعتقد أني أغالي في الطلب، ولكن حبذا لو تنظر إلى يديه ورجليه الكبيرة وإلى اتساع صدره، فهو قوي كالحصان، ومثل هذا الزنجي يستحق ثمناً باهظاً حتى لو كان غبياً، فكيف به وهو يتحلى بمواهب عقلية وأخلاقية عالية؟! إن هذا الزنجي كان يشرف على مزرعة سيده بأكملها، وكان ناجحاً في عمله كل النجاح!

فقال الشاب ساخراً كعادته:

- إن ادعاءك هذا غيرُ مُرْضٍ، فالعبد كما تدعي يعرف كل شيء ويقوم بأعظم الخدمات، فهو ذكي وأخشى العبيد الأذكياء، فقد يطلقون سيقانهم للريح ويسرقون الخيول ويتحالفون مع الشعب عندما تسنح لهم الفرص. لهذا كله أرى من الضروري أن تخفض سعره بضع مئات الدولارات نظراً لما يمتاز به من ذكاء خارق!

- قد نكون على صواب في حذرك لولا أني واثق من خلقه الرفيع. وبإمكاني أن أطلعك على شهادة سيده القديم، وشهادات سواه مما يثبت لك أن هذا العبد هو من أشدّ المؤمنين ورعاً وتُقًى، ولعلك لا تستغرب عندما أطلقوا عليه هناك في موطنه السابق لقب المبشّر!

- وعلى هذا سوف أجعل منه قسيس الأسرة. تلك فكرة رائعة! فالدين بضاعة نادرة في منزلنا!

فقال هيلي.

- أنت تمزح من دون شك.

أغالي: أبالغ.

الورع: التقوى وخوف الله.

www.liilas.com/vb3

- ومن أين عرفت ذلك؟ ألم تقل إنه كان يُعرف بالمبشّر؟!

وهنا همست إيڤا في أذن والدها، بعد أن **ارتقت** متن إحدى الرزم وطوَّقت عنقه:

- بابا اشتره بأي ثمن. إن معك مالاً كثيراً، وإني أريده على كل حال.

- ولكن ما حاجتك إليه يا إيڤا؟ أتريدين أن تعملي منه حصاناً خشبياً هَزّازاً، أم لعبة، أم ماذا يا بُنيَّتي؟

فقالت إيڤا بإصرار:

- أريد أن أجعله سعيداً.

- هذا سببٌ **وجيهٌ**، طبعاً.

وهنا قدّم النخّاس شهادة موقّعة من السيد شيلبي تدل بوضوح على التقوى والصفات الحسنة التي يتحلى بها توم. فتناولها سانت كلير بأطراف أصابعه وألقى عليها نظرة باردة وقال:

- حسناً. ولكن لست واثقاً، على أية حال، من مسألة الدين هذه. إن بين الأتقياء البيض من هم على شاكلة أولئك الورعين الذين نصادفهم قبيل المعارك الانتخابية، حتى إننا أصبحنا لا نعلم من الذي سيتمكن من خداعنا في المرة القادمة. ثم إنني أجهل تماماً ما ارتقت إليه منزلة الدين، وما وصلت إليه أسعاره في هذه الآونة. فأنا لم أراجع الصحف في الفترة الأخيرة. كم مئةً من الدولارات ستتقاضى مقابل هذا الدين؟

ارتقت: صعدت.

وجيه: صحيح، مقبول.

فقال النخّاس:

- إنك تحب المزاح يا سيد كلير. ولكن ثِقْ أن ما أقوله لك عن وَرَع هذا العبد صحيح مئة بالمئة.

وأخيراً، قال الشاب، وهو يسحب من جيبه مجموعة من الأوراق المالية ويقدمها للنخّاس:

- على كل حال، **دونك** المال فعدّه.

وتهللت **أسارير** هيلي، وعدَّ المال ثم دسَّه في جيبه، وراح يملأ وثيقة من وثائق البيع ليقدمها، بعد لحظات، إلى سانت كلير.

ونظر الشاب إلى الوثيقة التي قدمها له هيلي ثم تساءل:

- ليت شعري، ما المبلغ الذي أُباع به لو جُزِّئت هذه النجزئة وقُوّمت هذا التقويم؟! كذا من الدولارات لشكل رأسي، وكذا لارتفاع جبيني، ثم كذا لثقافتي وذكائي وتديُّني، أسأل الله العافية، فليس من شك في أنني لن أُعطى لقاء هذه المادة الأخيرة غير مبلغ هزيل.

قال ذلك وأمسك يد ابنته ومضيا إلى حيث كان يجلس توم مُطرق الرأس **كَليمَ** الفؤاد. حتى إذا انتهيا إليه وضع سانت كلير إصبعه تحت ذقن العبد وقال له مداعباً:

- ارفع رأسك يا توم. وقل لي هل يعجبك مولاك الجديد؟

ورفع توم رأسه، وألقى نظرة وادعة على الشاب الأنيق، وأحسّ بالدمع يترقرق في عينيه وقال:

دونك: خذ.

كليم: جريح.

الأسارير: خطوط الوجه.

- ليباركك الله أيها السيد!

- حسناً. إني لأرجو أن يفعل. قل لي، يا توم، هل تستطيع أن تركب الخيل؟

فأجاب العبد:

- لقد تعودت ذلك منذ زمن بعيد. وكان السيد شيلبي يملك عشرات من الخيول.

- اتفقنا إذاً، فلسوف أكلفك بقيادة العربة، شريطة ألا تعاقر الخمر غير مرة في الأسبوع، وذلك عند الضرورة الملحّة القاهرة.

ونظر توم إلى سيده الجديد باستغراب، وكأنه أحسّ بالإهانة تنبعث من كلام ذلك السيد الجديد ثم قال:

- أنا لا أشرب الخمر أيها السيد.

فقال سانت كلير:

- لقد سمعت هذه القصة من قبل، يا توم. ولكن الأيام سوف تظهر لنا حقيقة هذا الأمر!

وعندما تبدّى له أن كلامه قد آذى توم، وأن سحابة الغم قد غطّتْ وجه توم تلطف في كلامه وأردف قائلاً:

- لا تبتئس يا بني، لست أشك في أنك سوف تسلك النهج القويم!

- من دون ريب يا سيدي!

النهج القويم: الطريق الصحيح، المستقيم. ريب: شك.

فقالت إيفا:

- لسوف تستمتع بحياة حرة أيها العم توم، فأبي يحب جميع الناس؛ ولكنه معتادٌ السخريةَ منهم دائماً.

- بابا يشكرك أجزل الشكر على هذا المديح!

قال سانت كلير ذلك ثم استدار على عقبه ومضى في سبيله...

العقب: مؤخرة القدم.

الفصل الثامن

توم في وطنه الجديد

بوصول العربة التي **اقلّت** السيد كلير ومرافقه إلى حديقة القصر، ظهرت على وجه إيفا الصغيرة أمارات البهجة، وبدت كأنها طائر سجين ينطلق من قفصه في الفضاء الرحب، وقالت للآنسة أوفيليا بسرور بالغ:

- آه... أليس منزلنا رائع الجمال؟ ألا ترينه هكذا يا عَمّتاه؟!

فأجابتها الآنسة أوفيليا وهي تترجل من العربة:

- إنه جميل حقاً، وإن يكن يبدو قديماً ووثنيّ الطابع في نظري!

وترجل توم، وأجال النظر في المكان، وقد طَفَتْ على وجهه علامات ابتهاج هادئ ساكن.

وتبسم سانت كلير لدى سماعه ما قالت أوفيليا، والتفت إلى توم، وكان واقفاً **يقلّب الطَّرف** في موطنه الجديد، وقد أخذ وجهه الأسود يُشعّ ببريق الإعجاب وقال:

- يبدو، يا توم، أن هذا المكان يناسبك.

اقلّت: نقلت.
يقلّب الطرف: يُجيل النظر.

فأجاب توم:

- نعم يا سيدي، حقاً، يبدو لي أنه المكان المناسب والأفضل.

جرى ذلك كله في لحظة، فيما كانت الحقائب تنزل من العربة إلى الأرض ويدفع أجر السائق، وفيما حشد كبير من مختلف الأعمار والأحجام رجالاً ونساءً وأطفالاً يحتفلون بدخول السيّد إلى قصره **المنيف**. وكان أبرز هؤلاء شاب خلاسي حسن **البزة** أنيق المظهر ما يدل على أن له في القصر مكانة مرموقة. فلم يكد يرى **لحتشادهم** على هذا النحو حتى راح يردهم بيديه إلى الجانب الآخر من الشرفة صائحاً:

- إلى الوراء جميعاً! أتريدون أن تتدخلوا في شؤون السيد البيتية منذ الساعة الأولى لعودته؟

وانصاع الخدم لأمر السيد أدولف، وهو اسم الشاب الخلاسي الأنيق. وتقدم سانت كلير فلم يجد في استقباله غير أدولف نفسه فقال:

- آه أدولف، أهذا أنت؟ كيف حالك يا بني؟

وللحال، وقبل كل شيء، تصدى أدولف لإلقاء قطعة ترحيبية لسيده كان قد قضى **زهاء** أسبوعين كاملين في إعدادها، فشكره السيد سانت كلير على طريقته الساخرة، ومشى مع الآنسة أوفيليا إلى إحدى غرف القصر الواسعة المطلة على الحديقة. وكانت إيفا، في الوقت

المنيف: العالي.
لحتشادهم: ازدحامهم.
البزة: الثياب.
زهاء: قرابة.

نفسه، قد أسرعت فدخلت غرفة أخرى مطلة على الشرفة نفسها التي دخلها أبوها. فنهضت لاستقبالها نصف نهضة، سيدة **فارعة الطول**، سوداء العينين، شاحبة الوجه، كانت مسترخية على فراش وثير.

وهجمت إيڤا على أمها وطوقتها بذراعيها مرة، ومرة صائحة صيحة الغبطة والسرور:

ـ ماما! ماما!

فتبعتها أمها باسترخاء ثم قالت:

ـ يكفي هكذا يا ابنتي، فحذارِ أن تفعلي هذا مرة ثانية، فإنك تُثيرين الصُداع في رأسي!

ودخل السيد سانت كلير الغرفة التي تمكث فيها زوجته فعانقها عناقاً زوجياً فاتراً، ثم قدم لها ابنة عمه الآنسة أوفيليا. فرفعت ماري عينيها الواسعتين إلى ابنة عمه في شيء من الفضول، ورحبت بها في كياسة متحفظة ولطف مَرِن. وكان قد تجمهر أمام الغرفة في تلك الأثناء جماعة من الرقيق خدام القصر، وعلى رأسهم امرأة خلاسية في خريف العمر مسنّة الهيئة، متهللة **الأسارير**.

وما إن شاهدت إيڤا تلك الأَمَةَ الباشّة الوجه حتى هرولت إليها وقالت:

أوه، هذه مامّي؟!

وألقت نفسها بين ذراعيها، وطفقت تطبع على وجهها قبلات ما تكاد تنتهي.

فارعة الطول: زائدة الطول، مديدة القامة. **الأسارير**: ملامح الوجه.

ولم تدع هذه المرأة الخلاسية قبلات إيڤا تثير الصداع في رأسها، بل، على **نقيض** ذلك، احتضنت الطفلة بسرور بالغ وضحكت وصرخت ملء صوتها، وهي تستقبل إيڤا حتى **ارتاب** بصحة عقلها الكثيرون ممن شاهدوها. وعندما انتهت إيڤا من معانقة مرّبيتها أخذت تصافح الخدم واحداً إثر واحد، بل كانت تقبّلهم بشوق بالغ أثار **حنق** الآنسة أوفيليا واشمئزازها، فصرخت إثر ذلك بأن طريقة مصافحة إيڤا للخدم تثير **التقزُّز** في النفس.

ـ حسناً، قالت الآنسة أوفيليا: أنتم، يا أبناء الجنوب، تستطيعون ان تأتوا أعمالاً أعترف أني لا أقوى على الإتيان بها.

فسألها سانت كلير باستغراب:

ـ ماذا تعنين بذلك؟

ـ يمكنني أن أكون لطيفة مع جميع الناس. فأنا إنسانة اجتماعية لا أوذي أحداً ولا أسيء إلى مخلوق؛ ولكن طريقة هذا العناق...

ـ تعنين أن الزنوج لا **يرقون** إلى هذه المرتبة. أليس كذلك؟

ـ حقاً، هذا ما أعنيه بالضبط، فكيف تقوى على تحمل كل هذا؟

وضحك سانت كلير فيما كان يغادر الغرفة. ولما رأى الأقرباء المبتهجين بعودته صاح:

هالو! ما عساكم تفعلون هنا جميعكم. يا مامي ويا جيمي وبول وساكي؟!

نقيض: عكس. **ارتاب**: شكّ.
حنق: غضب **التقزُّز**: النفور والاشمئزاز.
يرقون: يرتفعون.

ترى هل تكونون سعداء بعودة السيد؟

وصافحهم واحداً واحداً، ووزّع عليهم بعض القطع النقدية الصغيرة. وبينما كان سانت كلير يستدير عائداً إلى غرفة زوجته، وقعت عيناه على توم الذي كان واقفاً وهو يتململ بانزعاج، حين كان أدولف يتفحصه من خلال نظارة من نظارات الأوبرا في كثير من **الازدراء** والاستخفاف.

وصاح به سانت كلير:

- ما هذا يا أدولف؟ أتعامل مرؤوسيك بهذه الطريقة المستهجنة؟ وبعد، ما هذا الثوب الأنيق الذي ترتديه؟ أفلا يكون هذا ثوبي؟

- حقاً يا مولاي! ولكن هذه البذلة ملطخة ببقع الحبر، وأشكّ في أن رجلاً بمنزلة مولاي يُقدم على ارتدائها. فقلت في نفسي، إنها لا تصلح إلا لزنجي مسكين مثلي فلبستها، ولعلي مخطئ مع ذلك!

- إذاً، هكذا هي المسألة. وعلى أية حال، أنا ذاهب لأقدم توم إلى سيدته، ثم عليك بعد ذلك أن تأخذه إلى المطبخ. ولا أريد أن أوصيك بضرورة معاملته على أحسن وجه فهو عبد يساوي رجلين على شاكلتك مغرورين.

ودخل توم الغرفة مع سيده **فهاله** أن يرى فيها تلك البُسُط المخملية الثمينة والمرايا والصور والتماثيل والستائر الغالية فكاد يسقط على رجليه من شدة الإعجاب والدهشة.

وقال سانت كلير لزوجته:

الازدراء: الاحتقار.

هاله: أخافه، والمراد هنا أدهشه.

- انظري يا ماري. لقد اشتريت لك آخر الأمر سائق عربة يعجبك. إنه مثال للرصانة والوقار، وفي استطاعته أن يقود عربتك وكأنه في جنازة، إذا شئت. افتحي عينيك الآن وانظري إليه. لا تقولي بعد اليوم إني لا أفكر فيك أثناء غيابي عنك كما تدَّعين دائماً!

وفتحت ماري عينيها وركزتهما على توم، من غير أن تنهض من مضجعها ثم قالت:

- يُخيَّل إلي وكأني واثقة من أنه يعاقر الخمر!

- لا. لا. إنه بضاعة مكفولةُ التقى والورع!

فقالت السيدة:

- أرجو أن يكون كما ذكرت!

وبعد أن غادر توم الغرفة، دنا سانت كلير من زوجته وقال بلهجة رقيقة:

- والآن، يا ماري، كوني رقيقة، وترفّقي بي وزوّديني بكلمة تدل على شوقك إلي... **فاكفهرّ** وجه السيدة وقالت:

- لقد تأخرت أسبوعين عن موعد عودتك المقرر.

- صحيح، ولكن كتبت لك وشرحت الأسباب القاهرة!

- وهل تعني أنك كتبت لي تلك الرسالة الموجزة الجافة؟

- كنت أريد ألا يفوتني البريد، وكان علي أن أختار إحدى طريقتين: أن أكتب تلك الكلمات أو أن لا أكتب شيئاً.

اكفهرّ: تجّهم.

فقالت السيدة:

- لا بأس فقد اعتدتُ هذا، ففي كل مرة تكون رسائلك مختصرة ورحلاتك طويلة.

وهنا سحب سانت كلير من جيبه علبة مخملية أنيقة وفتحها قائلاً:

- دونك هذه الهدية التي حملتها لك من نيويورك!

وكانت الهدية صورة لسانت كلير وابنته، ويدُ كل منهما في يد الآخر. والصورة مستخرجة على صفيحة معدنية مطلية بالفضة.

وأمعنت ماري النظر في الصورة، ثم قالت في لهجة الاستنكار:

- وما الذي حملكما على أن تجلسا هذه الجلسة الخرقاء؟

- قد يكون الوضع غريباً، فالأمر يعود لرأينا الشخصي. ولكن بربّك، ما رأيك في الصورة من الوجهة الفنية وفي إحكام صنعها ومدى الشبه بينها وبين الأصل؟

فأغلقت السيدة العلبة وقالت غاضبة:

- ما دمت لا تحترم رأيي في مسألة واحدة، فإنك حقاً لا تحترمه في جميع القضايا الأخرى.

فقال سانت كلير في نفسه: «محق الله النساء!» ثم التفت إلى زوجته وقال بلطف:

الخرقاء: الحمقاء.

- ولكني، يا ماري، أحب أن أعرف رأيك في مدى التشابه ودقة الصنع.

فقالت السيدة:

- إنه لغباء منك يا سانت كلير أن تُلِحّ علي في أن أتحدث عن الأشياء وأمعن النظر فيها. أنت تعلم أنني قضيت النهار كله فريسة الصداع، ومع ذلك فإن جلبة لا تُطاق عمّت أرجاء البيت منذ عودتك، حتى إنني صرت أعتقد بأنني نصف ميتة.

وهنا أفاقت الآنسة أوفيليا من غمرة ذهولها، فجأة، وكانت تفكر في الرياش الفخمة التي تزين القصر وتحسب نفقاتها، ثم قالت:

- وهل تشكين الصداع دائماً يا سيدتي؟

- إني شهيدةٌ حيةٌ من شهداء الصداع!

فقالت الآنسة أوفيليا:

- إن مُعْلى كبّاد السرو ناجح في علاج الصداع. هذا ما كانت تقوله أوغست زوجة ديكون أبراهام بيري، وكانت ممرضة ذات خبرة طويلة!

- سأخصص الكبّاد الناضج في حديقتنا لهذا الغرض...

قال سانت كلير هذا، ودق الجرس ووجه كلامه إلى أوفيليا:

- وعلى أيّ حال، لك أن تأوي إلى غرفتك لترتاحي من عناء السفر. أدولف، قل لمامي أن تأتي إلى هنا.

ودخلت الغرفة للحال المرأة الخلاسية التي غمرت إيفا بقبلها.

عمّت: شملت.

وكانت كعادتها نظيفة الثياب، وهي تضع على رأسها منديلاً ملوّناً أهدتها إياه إيفا بعد وصولها فخاطبها سانت كلير قائلاً:

ـ مامي! أحيطي هذه السيدة بعنايتك. إنها متعبة، ومن حقها أن تجد الراحة. خذيها إلى غرفتها، وابذلي جهدك لتحظى بالهدوء والراحة اللازمين لها.

وغادرت أوفيليا الغرفة إثر مامي لتأوي إلى الغرفة التي أُفردت لها.

الفصل التاسع

نظريات السيدة ماري

بينما كان السيد سانت كلير وزوجته يتناولان طعام الإفطار، صباح اليوم التالي، قال لها:

ـ والآن، يا ماري، اعلمي أن حياتك السعيدة الذهبية قد أخذت بالأفول. فها إن ابنة عمنا، وهي امرأة حكيمة وعملية، ستعنى بشؤون المنزل، وستحمل عنك مهامَّ إدارته كلها ليفسح لك مجال الاهتمام بنفسك. فتسيرين مشياً على الأقدام ما طاب لك، وتستجمّين متى يحلو لك، حتى يعود إليك شبابك. أما مهمة التسلم والتسليم فأرى من الأفضل أن نقيمها حالاً.

فقالت ماري وهي تسند رأسها إلى يدها:

ـ أنا واثقة من أنها ستكتشف شيئاً واحداً إذا فعلت، وهو أن السيدات في هذا البيت هنّ العبيد في واقع الأمر.

فقال سانت كلير:

ـ آه طبعاً، سوف تكتشف ذلك وعشرات من الحقائق الأخرى غيره.

الأفول: الغروب.

- وسترى أن عِلّة هذا البيت هم أولئك العبيد المَكَرة. فالحقّ أن صحّتي لم تتدهور إلا بسببهم.

فقال سانت كلير:

- يبدو أن جوّ التشاؤم قد سيطر عليك منذ الصباح. والحق أنك تعرفين أن الأمر غير ما تقولين. فدونك الزنجية مامي هذه المخلوقة التي لا شبه لها في طيب قلبها. وإني لأتساءل ماذا كان باستطاعتك أن تفعلي لو حُرِمتِ مساعدتَها والتفاتها إليك؟

فقالت ماري:

- إن مامي هي أحسن من عرفتُ من الخدم. ومع ذلك فهي أنانية، أنانية على شكل سخيف. تلك هي علة العرق كله.

فعلّق سانت كلير برصانة على كلام زوجته وقال:

- حتماً إن الأنانية خطيئة مميتة!

وأردفت ماري:

- والآن ها هي مامي. أنا أعتقد أن من الأنانية أن تنام ملء أجفانها. إنها تعلم أنني بحاجة إلى من يُعنى بي بين ساعة وأخرى. ومع ذلك فهي لا تفيق من سُباتها بسهولة وخفّة. الواقع أني أُحسّ، هذا الصباح، بتقهقر في حالتي الصحية بسبب ما بذلتُ لإيقاظها في الليلة الماضية.

وهنا تدخلت إيفا فسألت:

المَكَرة: الخادعون.

العرق: تقصد به العرق الأسود، أي الزنوج.

يُعنى: يهتمّ.

- ألم تسهر معك ليالي بطولها في الآونة الأخيرة يا ماما؟

فغضبت الأم وانتابتها عصبية قوية ثم قالت:

- وكيف عرفتِ ذلك؟ أكانت تشكو وتتذمر من سلوكي معها؟

- أبداً. إنها لم تشكُ ولم تتذمر. بل كل ما هنالك أنها أخبرتني أنكِ قاسيتِ كثيراً من الأوجاع طوال ليالٍ متعاقبة!

فقال سانت كلير:

- ولماذا لم تكلفي ساكي أو روزا القيامَ مقامَها ليلةً أو ليلتين حتى تستطيع أن تخلد إلى السكينة فيهما؟

- غريب أمركَ يا سانت كلير. كيف تقترح علي مثل هذا الاقتراح وأنت تعلم أنني في حالتي الراهنة أضعف من أن أحتمل رؤية يد غريبة حولي؟! فلو اهتمّت بي مامي اهتماماً حقيقياً لما كانت تستغرق في نومها ذلك الاستغراق كله! يا لتعس حظي! هنالك أناس أنعم الله عليهم بخادمات متفانيات، ولكني لم أسعد يوماً بمثل هذا الحظ...

وكانت الآنسة أوفيليا تُصيخ إلى هذه المناقشة الحادة بكثير من الانتباه ضاغطة على شفتيها، وكأنها عازمة على أن ترسّخ مركزها قبل أن تُدلي برأي ما.

واستطردت ماري:

انتابتها: أصابتها.

قاسيتِ: عانيت، تحمّلت.

متعاقبة: متلاحقة.

تخلد إلى السكينة: تستسلم إلى الهدوء والراحة.

متفانيات: مضحّيات براحتهنّ.

تصيخ: تصغي.

- لا، والآن، إن مامي تمتاز بطيب القلب، فهي ناعمة **نَمِنَةُ** الخلق، ولكنها أنانية في أعماقها. إنها قلقة أبداً على زوجها الذي ابتعدت عنه منذ أن تزوجت. وقد كانا من عبيد والدي ثم اصطحبتُها إلى هنا. ولقد نصحتها بأن تتزوج من رجل آخر **فابت** واستكبرت. إنها لعنيدة في بعض الأمور إلى حدّ لا يُحتمل.

وسألتها هنا الآنسة أوفيليا:

- وهل لها أولاد؟

- نعم لها ولدان.

- أحسب أنها **تحنّ** إليهما.

- لم يكن بوسعي على كل الحال أن آتي بهما إلى هنا، فهما مخلوقان صغيران قذران. وهما فوق ذلك كله يتطلبان كثيراً من وقت أمهما. وأعتقد أن مامي امرأة غريبة الأطوار، فهي ترفض أن تتزوج رجلاً آخر. بل لا شك في أنها رغم علمها بشدة حاجتي إليها وتقهقر صحتي العامة، لا **تتورّع** عن أن تتركني الآن أو غداً لو قُدِّر لها أن تلتحق بزوجها...

كانت إيفا الجميلة تُصغي إلى أمها وعلى وجهها انطباع من الجد العميق الذي يندر أن تقع على مثله عند الأطفال. فما إن وصلت أمها في حديثها إلى ذلك الموضوع، حتى أسرعت الفتاة إلى كرسي والدتها وطوَّقت عنقها بذراعيها.

نمنة: سهلة، لينة.
تحنّ: تشتاق.
لبت: رفضت.
تتورّع: تمتنع.

فسألتها الأم:

- حسناً يا إيفا، ماذا **تبغين؟**

- ماما، ألا أستطيع أن أعنى بك ليلة واحدة. واحدة لا غير؟ إني واثقة من أني لن أثير عصبيتك، ولن أسمح للنوم بأن يتغلب على جفوني. فأنا أسهر الليل بطوله. نعم، بوسعي ذلك، فأنا أقضي أكثر أوقاتي مفكرة ساهرة!

فقالت ماري:

- ما هذا الهراء، يا إيفا؟ إنك طفلة عجيبة حقاً!

- أرجو أن تسمحي لي أن أقدم لك هذه الخدمة يا أماه. فقد علمت أن مامي مريضة، وأخبرتني أنها تعاني ألماً في رأسها منذ سبعة أيام.

- آه! تلك إحدى نقائص مامي. فهي مثل باقي الخدم لا تختلف عنهم بشيء. إنها تثير الضجة حول كل صداع يصيبها أو حتى حول أي ألم بسيط ينتابها. من أجل ذلك لن أسمح لك بهذا الصنيع كي لا تعتاد إهمالَ شؤوني... وهذه مسألة مهمّة يجب ألا أتساهل فيها مطلقاً.

قالت ماري ذلك، والتفتت إلى أوفيليا فوجَّهت إليها الكلام:

- سوف تُدركين صدق قولي إذا ما شجَّعتِ الخدم على مطالبهم وأرَختِهم كلما شكَوا ألماً، وبهذا تفتحين على نفسك باباً لا يُغلق! أنا لم أشكُ من الألم طَوال عمري، وليس أحد يعرف ما أقاسي من أوجاع. إني أشعر أن من واجبي احتمال الداء في هدوء، وإني لفاعلة بحمد الله.

تبغين: تريدين.

وأظهرت الآنسة أوفيليا وحشة لدى سماعها هذه الخاتمة المخجلة التي تحدّت رصانة سانت كلير المصطنعة تحدّياً صارخاً، فراح يضحك ضحكاً عالياً مدوياً أزعج زوجته من دون شك.

وفي لهجة الشهيد الرازح تحت وقع الآلام قالت ماري:

- إن سانت كلير يضحك كلما أشرت إلى صحتي المعتلّة ولو إشارة بسيطة. وكل ما أرجوه أن لا يأتي يوم يتذكر فيه ذلك!

ورفعت منديلها إلى عينيها وأنشأت تكفكف دموعها. وساد صمت رهيب. وأخيراً، نهض سانت كلير، وألقى نظره على ساعته، وقال إنه على موعد خارج المنزل، فانطلقت إيفا وراءه، وبقيت ماري والآنسة أوفيليا لوحدهما.

والتفتت ماري إلى أوفيليا وقالت:

- هذا هو زوجي سانت كلير. وهذه طباعه فهو لا يستطيع أن يُدرك، بل إنه لا يريد أن يدرك ما أقاسيه من آلام منذ سنين. فلو أني كنت من الذين يلجّون بالشكوى، ويُغالون في تعظيم المُصاب، إذاً لكنت عذرتُه بعض العذر. إن الرجال يتضايقون طبعاً من الزوجة الكثيرة التشكّي. ولكني كتمتُ الآلام في نفسي، واحتملتها حتى دخل في روع سانت كلير أني قادرة على احتمال كل الآلام.

لم تعرف الآنسة أوفيليا ما عليها أن تقوله جواباً عن كلام ماري. وبينما هي تفكر في ما ينبغي أن تقوله، كفكفت ماري دموعها

تكفكف: تجفف.
يلجّون: يُلحّون، يسترسلون.
يُغالون: يبالغون؛ المغالاة: المبالغة.
روع: قلب، فكر.

المتساقطة على خديها وتلمّست شعرها وملّسته كما يُفترض في الحمامة أن تتبرّج بعد أن يبللها الغيث. وشرعت تتحدث إلى أوفيليا حديث المخازن والعنابر وغيرها مما سيعهد إليها القيام بإدارته. ووجّهت إليها تحذيرات، لو كان رأس الآنسة أوفيليا أقل نظاميّة وعملية مما هو عليه، لما تركت فيه صواباً.

- والآن قالت ماري: أعتقد أني حدثتك عن كل ما يتعلق بمهمتك في إدارة المنزل، حتى إذا ما اعترتني أزمة المرض، في المرة القادمة، كان في مقدورك أن تنفردي في تسيير العمل من دون استشارتي، باستثناء ما له علاقة بإيفا، فهي تحتاج إلى عناية ومراقبة شديدتين!

- فقالت أوفيليا:

- الواقع أنها فتاة ممتازة، ولم أر أفضل منها في حياتي!

فقالت الأم:

- إيفا غريبة الأطوار... إنها ليست مثلي على الإطلاق.

وتنهدت كما لو كان ذلك الأمر محزناً حقاً.

وحدثت أوفيليا نفسها قائلة: «آمل ألا تكون ابنتك مثلك»؛ ولكنها رأت من الحكمة أن تُخفي انفعالها وأن تكتم التحدّي.

- إن إيفا تحبّ الاختلاط كثيراً بالخدم. وهي تهدف إلى وضع نفسها دائماً على قَدَم المساواة معهم. تلك صفة غريبة عند هذه الطفلة. لقد اجتهدت لحملها على ترك هذه العادة ولكن عبثاً. والذي

تتبرّج: تتزيّن.
الغيث: المطر.
العنابر: المستودعات، المخازن.

www.liilas.com

أحسبه أن سانت كلير هو الذي يشجعها على سلوكها هذا. فالحق أن سانت كلير يلاطف كل مخلوق **يُظِلُّه** هذا السقف، عدا امرأته نفسها!

ولم تجد أوفيليا جواباً هذه المرة أيضاً.

فاستطردت ماري قائلة:

- ومهما كان الأمر فلا وسيلة تريحنا من متاعب الخدم سوى التضييق عليهم. وقد اعتدت هذه المعاملة منذ نعومة أظافري عند والدي. ولكن ما عملي وإيفا وحدها تستطيع أن تُفسد البيت؟ فأنا من طبعي أنادي بضرورة معاملة الخدم بالحُسنى وهذه خطتي دائماً. ولكني، مع هذا، أرى أن يعرفوا مركزهم وما خُلقوا من أجله، وإيفا ابنتي لا يخطر مثل هذا في **خَلَدها**. ولقد رأيت بأم عينيك وسمعت بأذنيك كيف سألتني أن أسمح لها بالسهر على راحتي ليلة واحدة كي تترك مجالاً لمامي بأن تستريح وتنام هانئة.

فقالت أوفيليا في غير مداراة:

- ولكني أعتقد أنك لا تنظرين إلى خدمك على أنهم مخلوقات بشرية. فمن حق مامي أن تنال **قسطاً** من الراحة.

- طبعاً إني حريصة على أن ينعموا بما أراه مناسباً، بما من شأنه أن لا يُبعد الإنسان عن واجبه. وأعتقد أن في قدرة مامي أن تنام متى شاءت فلا تجد صعوبة في ذلك البتة. إنها من أكثر الناس تعلقاً بالنوم، ويوسعها أن تنام وهي تخبط، بل تنام وهي واقفة أو جالسة.

يُظِلّه: يُلقي عليه ظِلّه؛ والمراد هنا يسكن تحت هذا السقف، أي في هذا البيت.
خلدها: بالها، نفسها.
قسطاً: نصيباً.

فهي تنام كل حين وفي أي مكان! ولكن المعاملة اللينة التي تجعل الخدم يظنون أنفسهم وكأنهم أزهار نادرة و**صحاف** من الخزف الصيني الثمين هي ما يثير سخريتي، وهي ما تجعلهم **يتقاعسون** في واجباتهم.

وأردفت ماري في صوت خافت حزين أشبه بالأنفاس الأخيرة تلفظها ياسمينة شرقية:

- وهكذا تَرَين يا عزيزتي أوفيليا، أنني لا أتحدث كثيراً عن نفسي، فليس ذلك من عادتي. والواقع أني لا أملك القوة على ذلك؛ ولكن هناك مواضيع أختلف فيها مع سانت كلير، فهو لم يفهمني في يوم من الأيام ولم يقدّرني حق قدري. وأحسب أن هذا هو السبب البعيد الكامن وراء صحتي العليلة. إن سانت كلير ذو نوايا حسنة؛ ولكن الرجال في أعماقهم أنانيون ولا يقيمون للنساء وزناً كبيراً. تلك هي عقيدتي في الرجال وانطباعاتي عنهم.

ولاذت أوفيليا بالسكوت لأنها لم تكن تنوي أن تستدرجها ماري إلى الحديث عن المتاعب العائلية. ولكن ماري **ازدرت صمتها** فراحت تتحدث بما طاب لها، ما دام أمامها من تتحدث إليه، وما دام من واجبها أن تتحدث لتريح نفسها. وبعد أن نشقت عطراً من قارورة أنيقة كانت بقربها، تابعت حديثها فقالت:

- أمّا مشكلة الخدم فحدثني عنها ولا حرج. والبلبلة أنك لا تستطيعين أن تشكي أمر واحد من هؤلاء إلى سانت كلير فهو لا يتورّع

صحاف: صحون.
يتقاعسون: يتأخرون عن القيام بالواجب.
ازدرت صمتها: لم تكترث لصمتها.

آنئذ عن أن يسمعك حوشي الكلام وأغربه. وهو يعتقد بأن الأسياد هم المسؤولون عن تصرفات العبيد وعن جميع أخطائهم، بل يذهب إلى الاعتقاد بأنه ليس من العدل أن نقترف نحن الذنوب ثم نعاقب العبيد عليها!

ـ ألا تعتقدين أن الله قد خلقهم من الطينة التي خلقنا منها؟

ـ لا، لا، لست أعتقد ذلك فهم من عرق سافل منحطّ!

فسألتها أوفيليا باستنكار شديد:

ـ ألا تعتقدين أن لهم أرواحاً خالدة مثلنا؟

فأجابت ماري وهي تتثاءب:

ـ هذا بالطبع أكيد، ولا أحد يشك فيه مطلقاً؛ ولكن ما لا يمكنني أن أتصوّره هو أن نعاملهم على قَدَم المساواة معنا. لقد عنى سانت كلير في حديثه عن إبعاد مامي عن زوجها وكأنه إبعادي عن زوجي، مع أنه لا مجال للمقارنة بيني وبينها في الأوضاع. فصدر مامي لا يمكن أن يحوي الأحاسيس والمشاعر نفسها التي يحويها صدري. ومع ذلك فسانت كلير يتظاهر وكأنه لا يرى هذا الفرق، أو كأن مامي تستطيع أن تحب ولديها القذرين كما أحب أنا إيڤا! وقد حاول سانت كلير يوماً أن يُقنعني بأنّ من واجبي، وأنا المريضة طريحة الفراش، أن أسمح لمامي بالعودة، وأن استخدم أخرى مكانها...

وما إن فرغت ماري من كلامها حتى دخل الغرفة سانت كلير غاضباً حَنِقاً، وأعلن بحدة أنه لم يعد باستطاعته أن يتحمل غلاظة

حوشيّ الكلام: الكلام الغريب، غير المألوف.

أدولف الذي بلغت به القِحَة أن يستعمل عطر سيده ومناديله الرقيقة!

فقالت ماري:

ـ أحمد الله على أنك لمستَ آثار اللّين بنفسك!

وفيما كانت المناقشة دائرة بين الزوجين وأوفيليا حول الطريقة الواجب استخدامها في معاملة العبيد، انطلقت من فِناء الدار ضحكة عالية، فما إن سمعها سانت كلير حتى غادر الغرفة ثم تبعته أوفيليا إلى الفِناء!

كانت إيڤا هي التي أرسلت هذه الضحكة المدوّية وهي جالسة على ركبة توم بعد أن طوّقت عنقه بإكليل من الورد والأزهار. وكان توم جالساً هناك على مقعد صغير، وقد تَوّجت سترته بأزهار الياسمين.

وضحك سانت كلير وقال:

ـ أوه هذا توم! يبدو أنك ظريف المَعْشر إلى حد بعيد، يا توم!

وكان توم يبتسم ابتسامة الطيبة الوقور مبتهجاً بالمشهد ابتهاج سيدته الصغيرة به. حتى إذا رأى سيده، رفع عينيه وعلت وجهَه انطباعةٌ فيها شيء من توسّل وشيء من اعتذار.

وقالت أوفيليا:

ـ كيف تسمح لها بأن تفعل هذا؟

فقال سانت كلير:

ـ ولمَ لا؟

القِحَة: الوقاحة. فناء: ساحة.

المدوّية: العالية.

- لست أدري؛ ولكني أراه أمراً **مُنْكَراً!**

- يا للعجب! إنك ولا شك لا تجدين **غضاضة** في أن يلاطف الطفل كلباً كبيراً، ولو كان أسود اللون، ولكنكِ لا تستطيعين أن تتحملي رؤية هذا الطفل نفسه وهو يلاطف مخلوقاً بشرياً مثله قادراً على التفكير والشعور. فكيف يقوى الإنسان البائس المسكين على العيش إذا ما حرمناه عطف الأطفال، وهم الكائنات المؤنسة الوديعة الوحيدة في هذه البلاد؟ والأطفال، هم أزهار الجنة التي أنزلها الله خصوصاً لمؤاساة قلوب الفقراء المساكين، وليتعزّوا بها عمّا **ينتابهم** من ظلم اجتماعي لا يمكنهم احتماله.

قال سانت كلير هذا والانفعال بادٍ على وجهه، ثم تابع النظر إلى ابنته الجميلة إيفا وهي **تثب** حول توم بخفة ورشاقة، فابتسم لها **وقرّت بها عيناه** وطابت نفسه.

منكَراً: مستغرَباً.
ينتابهم: يصيبهم.
قرّت بها عيناه: ارتاحت لها عيناه.
الغضاضة: الانتقاص.
تثب: تقفز.

الفصل العاشر

الرجل الحر يدافع!

تابع جورج هاريس وزوجته إليزا رحلتهما الطويلة **المُجهدة** إلى كندا، بعد أن أقاما فترة طيّبة في مستعمرة طائفة «الكويكرز». وقد زوّدتهما ربّة المنزل المضيفة بكل ما قد يحتاجان إليه من زاد وثياب، حين مغادرتهما المزرعة في تلك الأمسية.

كان قرص الشمس الأحمر على وشك أن يغيب وراء الأفق. وكانت أشعته تنفذ صفراء هادئة إلى غرفة النوم الصغيرة التي تجمع شمل جورج وامرأته وولده. كان الرجل جالساً وقد أمسك يد زوجته المخلصة، وأجلس ابنه الصغير على ركبته بهدوء. وكان كل من الزوجين مستغرقاً في تفكير ثقيل، وآثار الدمع ظاهرة على خدودهما.

قال جورج:

- صحيح يا إليزا. أنا أعلم أن كل ما تقولينه صحيح، وأنت حقاً امرأة صالحة، بل أفضل مني بكثير. وسأبذل غاية جهدي لأسير وفقاً لمبادئك وأقوالك. سوف **أنتهج** في الحياة المناهج التي تُشرّف الرجل الحر. وسأحاول أن أحسّ بالمشاعر نفسها التي يحسها الرجل

المجهدة: المُتعبة.
أنتهج: أسلك، أتبع.

المسيحي المؤمن. والله عزَّ وجلَّ يعلم أني كثيراً ما حاولت أن أصبح إنساناً صالحاً، خاصة عندما كانت الظروف كلها تعاكسني. وأعدك أني قد وطّدت العزم على أن أنسى الماضي وأن أشرع في قراءة الكتاب المقدس لأتعلم كيف أكون إنساناً خيِّراً.

فقالت إليزا:

- وعندما نصل إلى كندا أستطيع أن أساعدك. إني أُتقن فن الخياطة، وأحسن غسل الثياب وكيّها، وهكذا يمكننا أن نتعاون على تأمين لقمة العيش.

- أجل يا إليزا، ما دمنا معاً وما دام معنا ابننا الحبيب. أوه يا إليزا! ليت هؤلاء الناس يدركون أية نعمة وبركة تصيب الإنسان حين يحس أن زوجته وولده ملك له هو! الواقع أني الآن أحس بالثروة والقوة على الرغم من أننا لا نملك شيئاً غير أيدينا الفارغة. إني أحس وكأني في غير حاجة أن أسأل الله شيئاً إضافياً. أجل، على الرغم من أني ناضلت حتى الخامسة والعشرين من عمري، وليس في جيبي فلس واحد، وليس لي سقف يظللني أو رقعةٌ من الأرض أستطيع أن أقول إنها ملكي. مع هذا كله، فإني أكون سعيداً وشاكراً إذا هم تركوني وشأني. سوف أشتغل وأبعث بالمال إليك وإلى ولدي. أما سيدي القديم فقد دُفع له خمسة أضعاف ما أنفقه علي ولست مديناً له بشيء.

- ولكنا لم ننجُ من الخطر بعد، فما زلنا بعيدين جداً عن كندا.

فقال جورج:

- حقاً ما تقولين... ولكني بعد أن تنشقت الهواء الطَّلْق وشعرت

بنعمة الحرية، فإن العزم والقوة يملآن جسدي ونفسي!

وفي تلك اللحظة قُرع الباب الخارجي فانطلقت إليزا وفتحته.

كان ذلك سايمون هالياداي رب البيت الذي آواهما طوال هذه المدّة، ومعه أخ من «الأصدقاء» قدّمه إليهما باسم فينياس فلانشر.

وقال سايمون:

- لقد تمكن صديقنا فينياس من أن يكتشف أمراً خطيراً يخصّكما، فرأيت من الأفضل أن تسمعاه منه. وهنا انبرى فينياس للكلام وقال:

- لقد ثبت لديّ أن من المعيب أن ينام المرء وإحدى أذنيه مفتوحة في بعض الأماكن. ففي الليلة الماضية توقفت عند نزل منعزل فتناولت طعام العشاء، وتمددت على ركام من الأكياس في الزاوية ريثما يهيأ لي فراش، وسرعان ما غلبني النوم فنمت.

- وإحدى أذنيك مفتوحة أليس كذلك؟

- لا يا صديقي. لقد نمت حقاً بأذني الاثنتين مقدار ساعة أو ساعتين من الزمن من دون وعي من شدة **الإعياء**. ولكني أفقتُ من **سُباتي** العميق على أصوات وهرج ومرج فقد وجدت في الفندق رجالاً **يعاقرون الخمر** ويتحدثون، فأحببت أن أعرف حقيقة أمرهم، خاصة وقد لاحظت أنهم يَعنون في حديثهم جماعة «الكويكرز» التي أنتمي إليها. وعلى هذا سمعت أحدهم يقول «لا شك أنهم يُقيمون في

الإعياء: التعب الشديد. **السُبات**: النوم العميق.
يعاقرون الخمر: يداومون على شربها.

مستعمرة الكويكرز». وبعد أن أصغيت جيداً إلى حديثهم تحققت من أنهم كانوا يتحدثون عنكم. وازداد فضولي وحاولت أن أفهم كل ما يدبرونه من خطط.

ولقد قالوا: إن هذا الشاب المتمرد يجب أن يُعاد إلى سيده في كانتاكي ليكون أمثولة تربّي جميع الزنوج **الآبقين**. أما زوجته فقالوا إن اثنين منهما سوف يقودانها إلى نيو أورليانز ليبيعاها لحسابهما. وقد قَدَّرا أن **يغنما** بها مبلغاً يراوح بين ست مئة وثماني مئة دولار. وأما الولد فقد سمعتهم يقولون إنهم سوف يُعيدونه إلى **النخّاس** الذي اشتراه. ولم يبق أخيراً إلا جيم وأمه، وقد اعتزمتِ العصابةُ الشريرة أن تعيدهما إلى سيدهما في كانتاكي أيضاً. والمهم أكثر من هذا أنهم على علم بالخطة التي رسمناها للفرار هذا المساء، وأن الذين سيتبعوننا لا يقل عددهم عن ستة أشخاص، فماذا تراكم فاعلين؟

أثّر هذا الكلام في جمهور المستمعين، فكان مظهرهم مُثيراً لدرجة أنه كان جديراً بأن ينقله رسام على النحاس لإظهار الانطباعات **المُتباينة** التي بدت على وجوههم.

فأما صاحبة المنزل راشيل هالياداي فقد أخرجت يديها من معجن البسكوت الصغير **لتُصيخ** سمعها إلى الأنباء المثيرة، ووقفت مضطربة البال، تعلو وجهَها **امارات** القلق البالغ. وأما سايمون فكان مُطرق الرأس مستغرقاً في تفكير عميق، فيما طوّقت إليزا زوجها بذراعيها

الآبق: الهارب من سيده.
النخاس: بائع العبيد، ومهنته النخاسة.
تُصيخ: تُصغي.
يغنما: يربحا.
المتباينة: الشديدة الاختلاف.
امارات: علامات.

وحدجته بنظرة فاحصة. ووقف جورج مكتوف اليدين وقد بدا في عينيه لمعان غريب وظهرت عليه أمارات القلق، قلق رجل يرى زوجته تباع بالمزاد، وسيسلم ابنه إلى النخّاس تحت ظل القانون وحمايته...

وتساءلت إليزا في **جزع**:

- وماذا عسانا فاعلين يا جورج؟

- لا تجزعي. فأنا أعرف ما ينبغي أن أفعله!

وما إن قال جورج هذا حتى انطلق إلى الغرفة الصغيرة حيث أخذ يفحص مسدسه بغضب شديد. ثم عاد بعد لحظات إلى حيث كان وقال:

- لا أريد منكم أن تشتركوا معي في الدفاع عن عائلتي وعني. وكل ما أرجوه منكم هو أن تتلطفوا وتُعيروني عربتكم وتدلوني على معالم الطريق. وأنا أقود العربة بنفسي إلى الحدود. فجيم قوي وشجاع كالموت واليأس، وأنا مثله، ولا خوف علينا من الأعداء!

فقال فينياس:

- اتفقنا يا صديقي، ولكنك تحتاج إلى من يقود العربة عند قيامك بأعباء القتال ومقاومة اللصوص وحدك. وإلى جانب هذا، هنالك أمر أو أمران يتعلقان بالطريق، وأنت تجهلهما من دون شك.

- ولكني لا أريد أن أشركك في عملية الدفاع عنا، يا أخي!

فأجاب فينياس:

جزع: خوف.

- حسناً. عندما تراني تورّطت في الدفاع عنك، رجائي إليك أن تُحيطني علماً بذلك!

فقال سايمون:

- فينياس رجل حكيم وبارع. ومن الخير لك أن تأخذ بآرائه.

ثم أضاف واضعاً يده في رفق على **كاهل** جورج ومشيراً إلى المسدس.

- أحذرك يا صديقي من أن **تتهوّر** وتستخدم المسدس... فأنت شاب ودم الشباب حار!

- ثق بأني لن أهاجم أبداً. وجُلُّ ما أبتغيه من هذا الوطن هو أن يتركني وشأني. وأنا واثق من أني سأغادره بسلام ولكن...

وصمت لحظة واكفهرَّ جبينه، وعصفت في جسمه ثورة دموية ثم أضاف:

- ولكن ماذا تريدون مني أن أفعل؟ لقد كان لي أخت فبيعت في سوق الرّقّ في نيو أورليانز، وأنا أعرف ما الهدف من المتاجرة بالنساء، فكيف بي وأنا أرى اليوم زوجتي معرّضة لأن تُساق إلى تلك السوق لتباع فيها سلعة رخيصة. كيف أرضى بهذا، وقد منحني الله قبضتين قويتين أستطيع بهما أن أحميَها وأدافع عنها؟! لا. لن يكون ذلك. ليكن الله معي، فإني سأقاتل حتى **الرمق** الأخير، وسأموت قبل أن ينتزعوا مني زوجتي وولدي. فهل من يلومني على ذلك؟

كاهل: أعلى الظهر مما يلي العنق.
تتهوّر: تتصرف بطيش من دون تفكير.
الرمق: بقية الروح في الجسم.

فقال سايمون على الأثر:

- إن المرء لا يستطيع أن يلومك يا جورج، فليس في استطاعة اللحم والدم أن يفعلا غير ذلك!

- ألست أنت نفسك جديراً بأن تقف الموقف نفسه لو كنت في مكاني، يا سيدي؟

فرد سايمون:

- أسأل الله أن لا يجرّبني، فإن الجسد ضعيف يا بُنَيّ!

وهنا انبرى فينياس للكلام فقال:

- أعتقد أن جسمي غير ضعيف، ولي قوة لا يُستهان بها، خاصة في مثل هذه المواقف.

وهنا وقف فينياس ومظاهر الرجولة بادية على وجهه، وكشف عن ذراعين هما أشبه بذراعي طاحونة هوائية ثم عاد إلى الكلام فقال:

- لا يمكنني أن **اتمالك نفسي** أيها الصديق وأقف على الحياد، إذا ما فرض عليك القتال وتصفية الحساب مع أولئك الأشرار!

فابتسمت راشيل هالیداي وقالت:

- إن للصديق فينياس أساليبه الخاصة دائماً؛ ولكننا جميعاً نعتقد أن قلبه يدلّه على الموقف المناسب الصحيح على كل حال!

فتساءل جورج:

- حسناً، أليس من الخير لنا أن نعجّل في الفرار؟

- لا يكون سفرنا مضموناً إذا خرجنا قبل أن يُرخي الليل **سدوله**،

اتمالك نفسي: أضبط نفسي، أسيطر عليها. **سدوله:** أستاره.

ذلك لأننا قد نتعرض للمتاعب تأتينا من جماعة الأشرار المنتشرين في القرى إذا ما رأوا عربتنا، ما قد يعوقنا عن بلوغ هدفنا الذي نرمي إليه. وأعتقد أنه سيكون في استطاعتنا الانطلاق من هنا بعد ساعتين لا أكثر. واسمحوا لي الآن أن أغادركم للاجتماع بصديقي مايكال كروس للاتفاق معه على مراقبة الطريق بدقة لتحذيرنا إذا ما ظهرت له آثار أية عصابة **تتربص بنا** وتكمن في طريقنا. فمايكال يملك حصاناً لا **يُجاريه** حصان في الركض ويمكنه أن يُطلق النار لينبهنا إلى الخطر الذي يهددنا. وسأمرّ أيضاً بجيم والمرأة العجوز لأطلب منهما أن يكونا على استعداد.

قال فينياس ذلك وأغلق الباب خلفه وانصرف.

وهنا قال سايمون:

- لا شك مطلقاً في أن فينياس سوف يبذل جهده ليخدمك في رحلتك، فهو شاب قوي.

فقال جورج:

- إن ما يجرح كبريائي هو تعرضكم للخطر من أجلي!

فأجابه سايمون:

- أرجو منك أن لا **تَفوه** بمثل هذه الألفاظ أيها الصديق. فنحن لا نفعل إلا ما يفرضه علينا الضمير الإنساني!

ثم التفت إلى زوجته وقال:

تتربّص بنا: تنتظرنا. **يجاريه:** يسابقه، ينافسه.
تفوه: تتكلّم.

- انهضي أيتها الأم، وأسرعي في إعداد الطعام لهؤلاء الأصدقاء، فلا يليق بنا أن نبعثهم إلى الآفاق المجهولة جائعين!

وهنا خرجت راشيل وأخذت تُعد العُدّة مع أولادها لطهو اللحم والدجاج وإعداد أقراص الحلوى وتهيئة سائر ألوان الأطعمة، بينما جلس جورج وزوجته في الغرفة الصغيرة، وراحا يتحدثان بلهفة وشوق كأنهما يعلمان أنهما قد يفترقان بعد ساعات فراقاً أبدياً.

قال جورج:

- إليزا! إن الناس الذين يملكون أصدقاء وبيوتاً وأراضيَ وأموالاً وأشياء غير ذلك كثيرة لا يستطيعون أن يُحبّوا كما نحن الذين لا نملك شيئاً غير أنفسنا. أنا لم أنعم، حتى اللحظة التي عرفتك فيها، بحب أحد من الناس غير أمي البائسة المنسحقة الفؤاد وأختي التعسة. ولقد رأيت إميلي المسكينة غداة اشتراها النخاس. أقبلت إلى الزاوية حيث كنت نائماً وقالت: «انهض يا جورج. إن أفضل مُجبّ لك سوف يمضي في سبيله، ولا أعلم ما سيحل بك، أيها الفتى الشقيّ، بعد رحيلي عنك؟» فنهضت للحال وطوقتها بذراعي وانتحبت وبكيت كما بكت هي وانتحبت. وكانت كلماتها تلك آخر ما سمعته أذناي من كلام صادق طوال عشر سنين. ومنذ تلك اللحظة ذبل قلبي وتحطم، ولم يستعد نضارة شبابه وصفاءه إلا بعد أن أحببتك أنت. فلقد صرت إنساناً جديداً منذ ذلك الحين. والآن يا إليزا، إني **مُوَطّن العزم** على أن أسمح آخر نقطة من دمي للحفاظ عليك. ولن يستطيعوا أن ينتزعوك

موطّن العزم: عازم، مصمّم.

مني. وكل من يحاول أن ينتزعك مني يتوجّب عليه أن يمشي فوق جثتي الهامدة قبل أن يحصل عليك.

فقالت إليزا متهدة:

- ارحمنا يا إلهي! ارحمنا! وكل ما نسألك إياه هو أن تخرجنا من هذا البلد إلى بلد غيره سالمين.

فقال جورج باسى:

- أيكون الله معهم وحدهم يا ترى؟ وهل يرى الله كل ما يفعلونه؟ إذا كان يرى فلِمَ يسمح بوقوع كل هذه المظالم المقيتة؟ إنهم يزعمون أن الله معهم، وكذلك الكتاب المقدس معهم ولهم. وطبعاً فإن كل القوى الدينية والسماوية معهم ولمَ لا؟ فهم أغنياء وأصحّاء الأجسام وسعداء. إنهم ينتسبون إلى الكنائس ويتوقعون أن يدخلوا ملكوت السموات. وفضلاً عن هذا يفعلون ما يشاؤون ويتنقلون متى شاؤوا. وباستطاعتهم توجيه المجتمع إلى الوجهة التي يرغبونها. أما المسيحيون الحقيقيون الأتقياء، المسيحيون الذين يساوونهم صَلاحاً أو يفوقونهم فيلاقون شرّ المصائب، ويعفّرون بالتراب! إنهم يشترونهم ويبيعونهم ويتاجرون بدماء قلوبهم وتأوهات صدورهم ودموع مآقيهم. وإن الله ليرى ذلك كله ثم يتركهم في طغيانهم يعمهون.

الهامدة: الفاقدة الحياة.
المقيتة: القبيحة.
المآقي: مفردها المؤق مجرى الدمع في زاوية العين.
طغيانهم: ظلمهم، استبدادهم.
الأسى: الحزن.
يعفّرون: يمرّغون.
يعمهون: يتردون في الضلال.

وسمع سايمون ما يتحدث به جورج فتلا عليه بعض المزامير، ونصحه بأن لا يقنط من رحمته تعالى، فهو يكافئ خائفيه. فأشرقت أسارير جورج بهذه الأقوال وأسلم مقاديره لرب العالمين.

وهنا اقتربت راشيل من إليزا وقادتها إلى غرفة الطعام حيث بسطت مائدة سخية، وما إن اجتمع شمل القوم حول مائدة الطعام حتى سمعوا صوت عربة كبيرة تقف أمام باب الدار.

كان المساء جميلاً والسماء صافية الأديم متلألئة النجوم، وكان فينياس برشاقة وخفة ينهض من مقعده ليُمَيّن لكل راكب من الركاب مكانه في العربة.

وأقبل جورج من عتبة الباب وفي إحدى يديه ولده وفي الأخرى زوجته، واتجه نحو العربة بخطًى ثابتة، وكانت أمارات وجهه تدل على صفاء ذهن وهدوء نفس. وخرجت راشيل وزوجها يودّعان ضيوفهما المسافرين.

وكان جيم ووالدته جالسين في داخل العربة. فلم يكد جورج يرى جيم حتى سأله بصوت خافت حازم:

- أحسب أن مسدسك على غاية ما يرام؟

- طبعاً! طبعاً! أجابه جيم.

- وليس عندك ريب في ما ينبغي أن تفعله إذا ما فوجئنا؟

- أعتقد أنه لا ريب عندي في ذلك على الإطلاق.

يقنط: ييأس.
أسلم مقاديره: سلّم أمره ومصيره.

قال جيم ذلك وكشف عن صدره العريض، وأخذ نفساً عميقاً وتابع قائلاً: هل تحسب أني سأتركهم يأخذون أمي مرة ثانية؟

ومضت العربة في سبيلها تطقطق وتهتزّ. ولم يكن ثمة مجال للحديث بسبب **وعورة** الطريق وضجيج العجلات.

واصلت العربة سيرها فقطعت سهولاً ممتدة وغابات كثيفة. كانت تجري في الأرض السهلة حيناً، وحيناً آخر ترتقي التلال و**الهبوط** ثم تهبط الأودية، وركابها في داخلها يتمايلون ذات اليمين وذات اليسار، وإلى الأمام وإلى الوراء، وعُلُوًّا وهبوطاً ساعةً إثر ساعة. أما الطفل فنام في أحضان أمه نوماً عميقاً، والعجوز نسيتْ مخاوفها بعد حين، وإليزا نفسها أسلمت عينيها **لسِنَةِ الكَرَى** بعد أن عجزت عن إبقائهما مفتوحتين على الرغم من همومها الكثيرة. وأما فينياس فكان أكثر الجماعة نشاطاً وحركة، فكان يغالب نعاسه وتعبه بإنشاده بعض الأغنيات المَرِحة التي لا تتفق أبداً مع الكويكرز الذين يحبون الرصانة و**التزمّت** في كل ما يفعلون!

وظلت العربة مطمئنة حتى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، حين سمع جورج وراءهم وقع حوافر فرس متجه نحوهم بسرعة بالغة. فانتبه فينياس إلى ذلك وصار يخفف سرعة الخيول ثم أصاخ سمعه وقال:

- هذا مايكال من دون شك. إني أعرف صوت حوافر فرسه كما أعرف طريقة جريها.

وعورة: صعوبة.
سنة: نعاس.
التزمّت: التشدّد.
الهبوط: السهول الفسيحة.
الكرى: النوم.

قال فينياس هذا ثم تطلع إلى الوراء بلهفة ووحشة، فهاله كما هال الركاب جميعهم أن يَرَوا فارساً يعدو نحوهم عدواً جنونياً فوق **الكثبان** الرملية البعيدة.

وقال فينياس:

- ذلك هو على ما أظنّ.

ووثب جورج وجيم من العربة قبل أن يعرفا ما عليهما أن يفعلاه. ووقف الركاب كلهم **وكان على رؤوسهم الطير**. وقد وجهوا وجوههم **شطر** الرسول **المرتقب**. وواصل الرجل جريه بعد أن هبط في واد فغاب عن أنظارهم؛ ولكن وقع حوافر فرسه ظلّ مدوِّياً في آذانهم. وما هي إلّا لحظات حتى ظهر الفارس من جديد على قمة رابية قريبة منهم.

- أجل ذلك هو مايكال.

قال فينياس ذلك ورفع يده بالتحية.

- هالو مايكال!

- فينياس! أهذا أنت؟

- نعم، ما وراءك؟ هل هم قادمون؟

- إنهم في أثركم ولا يبعدون كثيراً، و**يُربي** عددهم على عشرة أشخاص. وأظنّ أنهم سكارى، فقد عصف الشراب برؤوسهم وتركهم هائجين ثائرين كالمجانين.

الكثبان: مفردها الكثيب: المرتفع من الرمل.
كان على رؤوسهم الطير: أي ساكتين واجمين.
شطر: نحو، صوب.
المرتقب: المنتظر.
يُربي: يزيد.

ولم يكد مايكال ينتهي من كلامه حتى حملت طيّات الأثير إليهم أصواتاً غاضبة تدل على أن جماعة من الفرسان يقتربون منهم.

فصاح فينياس:

- هيا أسرعا وادخلا العربة، وإذا كان عليكما القتال فانتظرا ريثما تتقدم بكم العربة قليلاً إلى الأمام.

وبلمح البصر وثب جورج وجيم إلى داخل العربة. وأخذ فينياس يُلهب أحصنته ضرباً بالسّوط فمرت بسرعة فائقة. ورغم ذلك أخذت أصوات الملاحقين تصل إلى آذان الركاب أوضحَ فأوضح حتى إنهم أخذوا يفهمون لغطهم وتهديداتهم الوحشية ما أوقع الرعب في قلب إليزا، فشدت ابنها هاري إلى صدرها. أما المرأة العجوز فكانت تنتحب وتصلي. وأما جورج وجيم فقد استعدا للقتال فأشهر كل منهما مسدسه. وما هي إلا لحظة حتى أدركهم المتعقبون، فانحرف فينياس بالعربة فجأة إلى جُرُف صخري مرتفع كثرت صخوره الصماء وكأنها تتحدى السماء، وقد بزغ فجر النهار فبدا المرتَفَع وكأنه قلعة يمكن أن تحمي هؤلاء المساكين من الأشرار. وليس من قبيل الصدفة ان ينحرف فينياس بالعربة إلى تلك الجهة بل فعل ذلك متعمداً، فهو يعرف تلك البقعة، وقد ألفها في أيام القنص والصيد، لهذا قاد عربته إلى هذا الموضع دون سواه.

الأثير: الفضاء.
لغطهم: أصوات مبهمة لا تفهم.
الصمّاء: القاسية، الصلبة.
ألفها: تعوّدها.
السوط: قطعة مستطيلة من جلد.
جُرُف: منحدر صخري.
المرتفع: التلّ، الهضبة.

- والآن ها قد وصلنا!

وبعد أن قال فينياس هذا للركاب، أوقف عربته فجأة ثم وثب إلى الأرض برشاقة وقال:

- هيا! اخرجوا جميعكم بأسرع من لمح البصر، وتعالوا معي لنرتقي تلك الصخور العالية. وأما أنت يا مايكال فشد فرسك إلى العربة وطِر إلى آماريا ثم عُد به وبرجاله.

وفي مثل لمح البصر خرجوا جميعاً من العربة. وصرخ فينياس حاملاً هاري بيديه:

- لينتبه كل منكما إلى إحدى المرأتين. وأروني الآن إلى أي حد تستطيعون أن تركضوا!

ولم يكن الجميع في حاجة إلى من يستحثّهم على السرعة. ففي أسرع من البرق تسلقوا السياج وانطلقوا كالسهام نحو الصخور، في حين نزل مايكال عن الجواد، وشده إلى العربة، وانطلق للقيام بالمهمة التي عهد إليه فينياس بها.

ومشى فينياس أمام القوى قافزاً على الصخور كالشاة والطفلُ بين ذراعيه، وكان وراءه جيم يمشي بثقل لأنه حمل أمه العجوز الخائفة على كتفه. وكان جورج وامرأته إليزا في المؤخرة. أما الفرسان المتعقبون فقد ترجّلوا عن خيولهم عندما وصلوا إلى الجرف استعداداً للّحاق بالجماعة الهاربين.

وبعد جهد ثقيل، بلغ فينياس ورفاقه أعلى التلة الصخرية، ثم قادهم إلى اجتياز مضيق عبر تلك الصخور الضخمة لا يمكن اجتيازه،

نرتقي: نصعد.

www.liilas.com

إلا كل فرد على حدة. ومر بالذكر أن ذلك الممر الصخري ضيق ولا يزيد عرضه عن ذراع، ووراء هذا الممر صخور عالية، بل ركام من الصخور مستقلة عن الجرف. فوثب فينياس وقطع الممر ثم تبعه رفقاؤه.

وهنا قال فينياس:

- وأخيراً، انتهينا إلى مكان آمن. فليتصيدونا الآن إذا استطاعوا. فمن يريد الوصول إلينا عليه أن يسير منفرداً بين هاتين الصخرتين. ولا يصعب علينا بعد ذلك القضاء عليه بنيران مسدساتنا. انظروا أيها الإخوان ألا ترون أن ما أقوله صحيح؟

وكان الفرسان الملاحقون قد وصلوا أثناء ذلك إلى الجرف. وقد بدت ملامح وجوههم على نور الفجر فإذا هم توم لوكر، ورفيق له يدعى ماركس، وهما لصان شريران كان هيلي النحّاس قد سخّرهما للقبض على هاري وأمه، وكان معهما دركيان اثنان وعدد من المرتزقة الذين يتعاطون مهنة القتل.

- ولكنهم قد يصوّبون علينا النار من وراء الصخور!

فقال توم بلهجة ساخرة:

- أنت تخاف على جلدك يا ماركس؟ ليس ثمة أي خطر. فالزنوج أجبن الناس على الإطلاق.

ولكن ماركس لم يغامر وقال:

أنت على خطإ يا توم. ولا أعلم في سبيل ماذا أضحي بجلدي. فجلدي هو خير ما أملك في هذه الحياة. أما الزنوج فأنت تستهين

بسالتهم، فهم يحاربون **كالمردة** في بعض الأحيان!

وفي تلك اللحظة برز جورج وأظهر نفسه للقوم الملاحقين من فوق صخرة تطل عليهم وتحدّث بصوت هادئ صافٍ قال:

- أيها السادة الواقفون هناك! من أنتم؟ وماذا تريدون منا؟

فقال توم لوكر:

- نحن **نتعقب** جماعة من العبيد الآبقين، هم جورج هاريس وإليزا هاريس وولدهما وجيم سلدين وامرأة عجوز. ولقد اصطحبنا اثنين من رجال الدرك للقبض عليهم. وإنّا لفاعلون من دون شك. هل سمعت؟ ألست أنت جورج هاريس الذي يملكه مستر هاريس من أبناء كانتاكي؟

- أجل. أنا هو جورج هاريس، وقد كان هناك رجل يسمى هاريس من أبناء كانتاكي يعتبرني ملكه؛ أما اليوم فأنا إنسان حر وأقف على أرض حرّة. وأعتبر أن زوجتي وولدي هما لي وحدي من دون الناس جميعاً. أما جيم وأمه فهما معنا هنا. واعلموا أن لدينا سلاحاً نستطيع أن ندافع به عن أنفسنا إذا ما هاجمتمونا. وإنا لفاعلون ذلك. تقدموا وكل من **تسوّل له نفسه** أن يصبح على مرمى من مسدساتنا سيقع قتيلاً، ثم يتبعه الثاني والثالث إلى أن نقضي عليكم جميعاً.

فقال أحد الدركيين الملاحقين:

- دعك من هذه **الترّهات** الباطلة، وانزلوا إلينا فنحن نمثّل

المردة: مفردها المارد: المرتفع؛ والمراد هنا العمالقة.
نتعقب: نلاحق.
تسوّل له نفسه: تمنّيه نفسه.
الترّهات: الأقوال والأعمال الخالية من النفع.

العدالة. والقانون في جانبنا وكذلك القوة. ومن الخير لكم أن ترموا أسلحتكم وتستسلموا لنا.

فأجابه جورج بمرارة:

- إني لا أجهل أن القانون يخدمكم، وأنكم تمثلون القوة الحاكمة. ولكنكم مع هذا أشرار تريدون أن تأخذوا زوجتي لتبيعوها في سوق النخاسة سلعة رخيصة في نيو أورليانز، كما تريدون أن تعذبوا ولدي الوحيد.

وتودّون أن تسلموا والدة جيم العجوز إلى ذلك الوحش الذي أشبعها ضرباً بالسوط وسامها سوء العذاب. أنتم تمثلون القانون وتريدون مع هذا أن تسوقوا جيم وتسوقوني إلى حيث نجلد ونهان ويسحقنا أولئك البيض الذين تسمونهم أسياداً. تفعلون كل هذا تحت ظل القوانين والشرائع، وهذا ما يجب أن يَحملكم على الخجل من أنفسكم ومن قوانينكم. اذهبوا عنا فإنكم لن تُوَفّقوا إلى اقتناصنا، فنحن لا ندين بشرائعكم، ولا نملك أرضكم، فنحن هنا نقف بوصفنا مخلوقات حرة على أرض الله وتحت سمائه، كما تقفون أنتم. ويعون من الرب العظيم الذي خلقنا سنقاتل من أجل حريتنا إلى أن ننتصر أو نموت.

وجمد المهاجمون في أماكنهم ولم يُبدوا جواباً. لقد كان في كلام جورج الذي أعلن فيه استقلاله، وفي جرأته وتصميمه ما أذهلهم.

سامها: كلّفها، حمّلها.
لا ندين بشرائعكم: لا نعترف بقوانينكم.
أذهلهم: أدهشهم.

وكان ماركس هو وحده الذي لم يحركه كلام جورج. وفي غمرة من الصمت الذي وان على رفاقه بُعَيد إعلان هذا التصريح، استل ماركس مسدسه وأطلق النار على جورج...

ولكن جورج تراجع إلى الوراء فأخطأته الطلقة. وظنت إليزا أن زوجها قد أصيب فصرخت صوتاً مدوّياً. والحقيقة أن الرصاصة مست شعر جورج وكادت تلمس خد زوجته قبل أن تصيب جذع شجرة قريبة منهما.

وهَمَّ الملاحقون باقتحام الصخور المرتفعة قاصدين القضاء على العبيد ومن يرافقهم، فاستعد جورج للقتال وقرّر أن يطلق النار على أوّل من يحاول اجتياز الممر الضيق الذي لا مفرّ من اجتيازه. ولما اقتحم نوم لوكر الصخور ودخل المضيق الصخري، أطلق عليه جورج النار فأصابه في جبينه فخرّ على الأرض يصطبغ بدمائه. أما رفقاؤه فما إن رأوا توم قد سقط على الأرض حتى لاذوا بالفرار.

وبعد مضي دقائق قليلة على هذا، عاد مايكال بالعربة ومعه ستيفن وآماريا. وقد أسرع فينياس بعد ذلك فضمّد جراح توم، ثم حمله إلى العربة ونقلوه إلى إحدى المزارع حيث اعتنوا به حتى التأمت جراحه وتماثل للشفاء.

وأخيراً توصل العبيد الآبقون إلى دخول الحدود الكندية فتنشقوا نسيم الحرية وطابوا عيشاً ولو إلى حين.

وان: خيّم.
خرّ: سقط.

الفصل الحادي عشر

الرَّنجيَّة التَّعِسة

وجدت أوفيليا البيت الذي عهد إليها أمر إدارته غارقاً في الفوضى والإهمال والتبذير. ولقد اجتهدت صاحبتنا وهي ذات العقل المنظم الإداري لإصلاح ما أفسدته الأيام في إدارة ذلك المنزل الكبير، ولكنها لم تُوفَّق إلا قليلاً. وكان فشلها يرجع بالدرجة الأولى إلى فوضوية كبيرة الطاهيات العجوز دينا وعدم قبولها النصائحَ والإرشادات. ولكنها لم تقف إزاء هذا كله مكتوفة اليدين، بل صارحت سانت كلير بهذا الوضع الشاذ قائلة:

- ليس ثمة أمل في أن ينعم هذا البيت، يوماً، بشيء اسمه النظام.

فقال سانت كلير:

- أنا واثق من أن هذا اليوم لن يأتي.

- كل هذا التذمر من النفقات والفوضى في الأعمال، والاختلاط في المسؤولية لم أرَ مثله في حياتي.

- أستطيع أن أقول لك إنك لم تشهدي مثله فعلاً!

التبذير: كثرة الإنفاق.

أصارحك يا أوفيليا بأننا نحن جماعة الأسياد فئتان: فئة منا تكون طاغية وقاسية، وفئة أخرى تكون مضطهدة ومظلومة. وهؤلاء الذين أنتمي إليهم هم أصحاب النوايا الطيبة والنفسيات النبيلة الذين يمقتون العنف والقسوة. ونحن خليق بنا أن نعتاد تحمّلَ كثير من المكاره والمتاعب، ما دمنا مصرّين على الاحتفاظ بأراضينا ومراكزنا وبيوتنا، مستعينين بهؤلاء الخدم الجهلة. ولست أعرف غير قلة من الأسياد وُفِّقوا ببراعة خاصة إلى أن تحقق لهم الانضباط والنظام من دون أن يلجأوا إلى القسوة والعنف. ولكني لست واحداً من هؤلاء... ومن هنا عقدت النية، منذ عهد طويل، على أن أترك الأمور تجري على هواها.

ولكن هذه الأمور الفوضوية التي يقتل معها كل معنى للزمان والمكان... إنها شيء لا قِبَل لي باحتماله.

ولا يخفى أنكم أنتم الشماليين تُعطون الوقت أهمية بالغة، وتخلعون عليه حللاً زاهية. ولكن قولي لي بربك ما فائدة الوقت بالنسبة إلى إنسان لا يعرف كيف يُمضي وقته، وأين يبذّره، فهو أبداً حائر في ما يصنع. وأظن أنك توافقين على رأيي أنه عندما لا يفعل الإنسان لتمضية وقته سوى الانبطاح على الأريكة، ومطالعة الكتب، عند ذلك فإن تقديم موعد الغداء أو العشاء أو تأخيره ساعة من الزمن ليس أمراً خطيراً. من أجل ذلك أسألك يا ابنة العم العزيزة، أن

طاغية: ظالمة.
خليق بنا: جدير بنا.
يبذّره: يبدّده.
يمقتون: يكرهون.
الحلل: الثياب الفاخرة.

تخفي من غَلَوائك وتتركي دينا على سجيتها..

- حبذا لو تعلم كيف وجدت أدوات المطبخ، وكم تعذبت في تنسيقها.

- أنا لا أجهل أنها تضع التوابل أو الرقاق تحت وسادتها، وأنها تُخفي مبرشة جوز الطيب في جيبها، في كيس التبغ الذي تدخن منه. ولا أجهل أنها تستخدم أكثر من خمسة وستين وعاء للسكر من مختلف الأحجام والألوان فتضع كل وعاء في ثقب من ثقوب البيت، وأنها تغسل الصحون بمناديل السفرة أو بقطعة من فستان قديم. ولكن المهم في هذه المرأة أنها تُجِدّ لك طعاماً فاخراً، وتصنع قهوة سائغة. ولهذا ينبغي لك أن تحكمي على أعمالها من خلال نتائج ما تحققه كما يحكمون عادة على القادة العسكريين ورجال الحكم.

- ولكن ما قولك بالتبذير والإنفاق من غير حساب؟

- أوه، حسناً، أغلقي في وجوههم جميع الأدراج والخزائن واحتفظي بالمفاتيح، ووزعي عليهم ما يحتاجون إليه بمقادير صغيرة مقنَّنة.

- إن هذه الطريقة لا تروق لي يا سانت كلير. وإني لا أستطيع أن أتصور أن هؤلاء العبيد الأرقاء سارقون وغير أمناء. ترى هل أنت واثق من أننا لا نستطيع الاعتماد عليهم في مثل هذه الأمور؟!

من غلوائك: من حِدَّتك، من غلوّك. سجيتها: الطبيعة الإنسانية.
سائغة: طيّبة المذاق.
الأدراج: مفردها الدُّرج: الموضع من الخزانة الذي تحفظ فيه الأشياء المطويّة.
مقنَّنة: محدودة. لا تروق لي: لا تعجبني.

- لو تعلمين أن حديثك عن الأمانة شائق ومضحك. إن كل شيء ممكن أن يقع. وهل يكون أمثالهم أمناء؟ بل لماذا عليهم أن يكونوا أمناء، وهم أرقاء؟ بل ما هي المثالية التي يجدر بها أن تجعلهم أمناء على هذه الأرض؟!

- ولكن أليس بينهم نَفَر يتحلّون بالأمانة؟

- طبعاً، إنك تجدين بينهم، من وقت إلى آخر، عبداً تنعم عليه الطبيعة بقسط كاف من الصدق والإخلاص والأمانة من دون أن تقوى المُغريات على إفساده. والمشكلة هي أن الملوّن يُحس ويرى منذ طفولته في سن الرضاع أن الأساليب السرية هي وحدها التي يمكنه استخدامها للوصول إلى أهدافه. فهو هكذا ينشأ، وهكذا يسلك مع والديه ثم مع أسياده. ولهذا ينشأ على المكر والخداع، ويراهما وسيلتين للنجاح في هذه الحياة. وليس من العدل أن تنتظري منه شيئاً غير هذا. وعندي أنه لا يجوز إنزال العقاب به من أجل ذلك. فإذا تحدثنا عن الأمانة وجدنا أن المجتمع يفرض على الرقيق أن يظل في تلك الحالة الاتكالية بل الطفيلية، حتى إنه يصعب مع ذلك إفهامه الحقوق والواجبات، وأن أموال مولاه ليست ملكاً له. الواقع أني شخصياً لا أفهم كيف يستطيع الأرقاء أن يكونوا أمناء. أما صاحبنا توم فليس من رَيب في أنه معجزة في حسن أخلاقه وسيرته.

كانت الآنسة أوفيليا في المطبخ، أصيلَ ذلك اليوم، عندما صاح بعض الأطفال السود:

نَفَر: جماعة. ريب: شك.
الأصيل: بين الظهر والغروب.

- ها قد أتت «پرو» تنخر كما هي عادتها دائماً.

وما إن أتمّ الصَّبِيَّةُ كلامهم حتى دخلت إلى المطبخ امرأة زنجية مديدة القامة معروقة العظام، وعلى رأسها سلّ فيه أصناف من الكعك والحلوى!

- عجباً منك! فأنت تعاقرين الخمر طوال الوقت ثم تشتكين وتتأففين؟

قالت لها هذا الكلام فتاةٌ عبدة أنيقة نصف خلاسية في حين كانت تعبث بقرطها المرجاني الزجاجي...

وقالت پرو: «يا ليتني مت!»

فسألتها الآنسة أوفيليا عن سبب تَمنّيها الموت فأجابت: «لكي أتخلص من الشقاء».

ثم التفتت پرو إلى الفتاة الخلاسية التي انتقدت شربَها الخمورَ وقالت لها:

- قد تنتهين أيتها الصغيرة إلى ما انتهيت إليه أنا في يوم من الأيام. وسأكون مسرورة أن أراك على تلك الحال. وعندئذ ستتعطشين إلى قطرة من الخمر كما أتعطش أنا، تنسّين بها همومك وأحزانك...

ثم قالت دينا بلطف:

- تعالي يا پرو، لنرى كعكتك وهذه السيدة تدفع لك الثمن.

تنخر: تمد الصوت في خياشيمها.
معروقة: قليلة اللحم، هزيلة.
القرط: الحلية التي تعلق في الأذن.
مديدة: طويلة.
تتأففين: تقولين أُف من ملل وضجر.

وتناولت الآنسة أوفيليا بضع كعكات من السلة وصاحت دينا:

- هناك تجدين في الإبريق القديم المشوَّه الموضوع على الرف بضع بطاقات فائتني يا جين ببعض منها.

فسألت الآنسة أوفيليا باستغراب:

- «بطاقات»؟! وما الغرض منها؟

- إننا نشتري البطاقات من سيدها. وهي تقدم لنا الخبز مقابلها.

إنهم يعدون علي الأموال والبطاقات عند عودتي إلى البيت، فإن وجدوا خطأً في الحساب ضربوني حتى الموت، قالت پرو حاملةً الكعك.

فقالت جين الوصيفة السليطة اللسان:

- وما ترجين منهم أن يفعلوا بك غير هذا بعد أن تأخذي أموالهم لتبتاعي بها الخمر؟! صدقيني يا سيدتي أوفيليا أن هذه المرأة تفعل ذلك بل أكثر من ذلك لتحصل على الشراب!

- وذلك ما أُصرّ على فعله. ذلك أني لا أطيق الحياة على غير هذه الشاكلة. أريد أن أشرب لأنسى شقائي.

فغضبت الآنسة أوفيليا وصاحت في وجهها:

- تسرقين أموال سيدك لتجعلي من نفسك بهيمة من البهائم! إنك أثيمة مجنونة.

- قد أكون أثيمة ومجرمة ولصة يا سيدتي. ولكن لا حيلة لي في

السليطة اللسان: الطويلة اللسان.
أثيمة: مذنبة، خاطئة.

تفادي ذلك السير في الوحل. إني سأواصل يا إلهي طريقي. يا الله لماذا لا تُميتني وتريحني من شقائي؟!

وفي بطء وتثاقل نهضت العبدة العجوز ووضعت السلة على رأسها من جديد. وقبل أن تمضي في سبيلها تطلعت إلى الفتاة نصف الخلاسية التي كانت تعبث بقرطها وقالت:

- ما أخالُكِ إلا فتاة مغرورة. فأنت تحسبين أنك جميلة وأنيقة بهذا القرط المتدلّي من أذنيك. ولكني أرجو لك أن تعيشي طويلاً حتى يأتي ذلك اليوم الذي تصبحين فيه عجوزاً فقيرة كثيرة الشكوى والتذمر من حياتها مثلي، وعندئذ ستضطرين إلى معاقرة الخمر فتشربين وتشربين كما أشرب، ولعلك آنئذ تجدين أن الخمر هي تعزية البؤساء الوحيدة!

وكان توم في المبطخ حين جرى ذلك الحديث. فأزعجه أن يرى تلك الزنجية العجوز تخرج إلى الشارع وهي تطلق الآنة إثر الآنة. فلحق بها فرآها تقف على عتبة أحد الأبواب لتُصلح وضع «شالها» البالي الباهت الذي كان يغطي كتفيها، فقال لها في رقة وعذوبة:

- سوف أحمل سلتك قليلاً يا أختاه!

فقالت العجوز:

- لا داعي لذلك. فأنا في صحة تامة ولا أحتاج إلى المساعدة!

- يبدو أنك مريضة أو مهمومة أو شيء مثل هذا!

فأجابت المرأة بغضب:

- لست مريضة.

ونظر إليها توم نظرة مشبعة بالإخلاص وقال:

- حبذا لو أتمكن من إقناعك بضرورة الإقلاع عن **احتساء** الخمر.

آلا تعلمين يا أختاه أن المُسْكِرَ يجرّك إلى قتل صدرك وروحك على السواء؟

فأجابته المرأة التعسة قائلة:

- انا واثقة من أنني سأسكن الجحيم بعد موتي، ولا حاجة لأن تخبرني بذلك. إنني مدمنة على عادة قبيحة مجرمة تقودني **توّاً إلى** النار الآكلة الأبدية. آه يا ليت إلهي ينقلني إلى هناك لأنجو من شقاء الأرض!

وارتعد توم لدى سماعه هذه الكلمات وتوسل إلى المرأة أن لا تستسلم لليأس، وقال لها برقة:

- ارحمي نفسي أيتها المخلوقة البائسة. ألم تسمعي قط بيسوع المسيح؟

- يسوع المسيح؟ من هو يسوع المسيح هذا؟

فقال توم:

- ولكنه السيّد، يا امرأة!

- أحسب أني سمعتهم يتحدثون عن السيّد، وعن يوم الحساب وعذاب النار. لقد سمعت شيئاً من هذا القبيل. ولكن ما علاقة ذلك بي؟

- ألم يحدثك أحد عن يسوع المسيح الذي يُحبنا نحن الخطأة، وعن أنه مات من أجلنا **ليطهّرنا** من الخطايا.

احتساء: شرب.

توّاً: فوراً.

- لا أعرف شيئاً عن هذا. ولم يحدثني بذلك أحد كما أني لم أسمع إنساناً حدثني بحنوٍّ بعد أن مات معلمي العجوز.

فسألها توم:

- وأين تربَّيت وترعرعت يا أختاه؟

- هناك بعيداً في كانتاكي. فقد استخدمني أحد النخاسين لتربية أولاده العبيد الصغار، حتى إذا كبروا قليلاً أسرع إلى بيعهم في سوق النخاسة. وعندما كبرت باعني ذلك الملعون لأحد المضاربين في سوق البورصة، وهذا باعني بدوره إلى سيدي الحالي.

- وما الذي أوقعك في عادة الشراب القبيحة؟

- قادني إليها سوء حظّي. فالخمرة تسليني عن همومي وتبعد عني كُرَبِتي ولو إلى حين. فقد كان لي ولد صغير جميل جداً. وُلد بَديناً وصحته جيدة. وصدف أن مرضت سيدتي فكان لزاماً أن أعتني بها، فانتقلت الحمّى إلي بالعدوى. فجف اللبن في صدري ما أدّى إلى هزال طفلي فإذا به يصبح جلداً وعظماً. وقد طلبت من سيدتي أن تبتاع له قليلاً من الحليب فلم تابَهْ لطلبي، بل أجابتني أن باستطاعة الطفل أن يأكل من الأطعمة التي يأكلها باقي الناس.

وكان طفلي يضمر ويهزل من الجوع، وكان يصرخ ليلاً ونهاراً من الطَّوى حتى ضاق صدر سيدتي ببكائه فأخذت تُمَنّي نفسها ببيعه أو

ترعرعتِ: نشأتِ.
تابه: تكترث، تهتمّ.
الطَّوى: الجوع.
كربتي: حزني.
يضمر: يضعف.
تُمَنّي: تَبعد.

بموته. وقد منعتني أن أعتني به ليلاً لأنها كانت تظنّ أن وجوده معي يُبعد عن عينيّ النوم فلا أعود صالحة لخدمتها. وقد أجبرتني أخيراً على أن أنام في غرفتها، فأوجبت علي أن أضع طفلي وحيداً في علبة صغيرة. فبكى تلك الليلة بكاء متواصلاً بل بكاء على ما ظهر فتاكاً أدّى إلى موته... ومنذ ذلك الحين لجأت إلى الخمر لكي لا أتذكر الحادث، بل لأبعد صوته وصراخه عن أذني. لقد تذرّعتُ بالخمر وسأواصل احتساءها ما حييت. أنت تقول يا سيدي إني صائرة إلى جهنم. وأقول لك: بل أين أنا أحيا الآن، إن لم يكن في الجحيم؟!

فقال:

- أيتها النفس البائسة، ألم يخبرك أحد قط كيف أحبك يسوع السيد ومات من أجلك؟ ألم يخبرك أحد قط بأنه سوف يمدّ كل يد العون، وبأنك سوف تذهبين إلى الجنة وتنعمين آخر الأمر بالراحة.

- لست أريد الذهاب إلى الجنة. أليست هي المكان الذي سيذهب إليه أصحاب البَشَرة البيضاء؟ إنني لأفضل الجحيم على أن أجتمع بسيدي وسيدتي في الجنة.

قالت العجوز هذا وقذفت من صدرها آهة محرقة، ثم حملت سلّتها على رأسها وراحت تتابع طريقها ببطء وتثاقُل.

وهنا استدار توم وقفل راجعاً إلى البيت.

وفي الفناء التقى توم بإيفا الصغيرة وقد زينت رأسها بإكليل من الزنبق وشعّت عيناها ببريق الجذل والابتهاج.

تذرّعتُ: اتخذتُ وسيلة أحتجّ بها.
الجذل: الفرح.

وصاحت إيڤا وهي تمسك بيد توم الحزين:

- آه يا توم. لقد وجدتك أخيراً. أني سعيدة بأن ألقاك. فقد قال والدي إنّه يأمل أن تقودني للنزهة في عربتي الصغيرة الجديدة التي تقودها الأحصنة الصغار... ولكن ما بالك يا توم مكفهرّ الوجه كئيباً وماذا اعتراك؟

فقال توم بتبرة دامعة:

- لست أشعر بنشاط، يا آنسة، ولكني سأخرج العربة من أجلك لنذهب في نزهة.

- ولكن يجب أن تقول لي يا توم ما الذي يؤلمك؟ لقد رأيتك تتحدث إلى «پرو» العجوز، فهل تكون هي سبب كآبتك؟

وقص توم حكاية الزنجية التعسة على مسامع إيڤا الطفلة بكلمات معبّرة تفيض عاطفة وتأثراً، فغضبت إيڤا لدى سماعها تلك القصة المؤلمة. ولكنها لم تنتحب ولم تبك ولم ترسل صيحات العجب والدهشة كما يفعل الأطفال غيرها. بل صمتت وعَلَتْ وجنتيها سحابة ثقيلة كئيبة من الحزن، ثم وضعت كلتا يديها على صدرها وأخذت تتأوّه بحرقة ويأس.

اعتراك: أصابك. سحابة: غيمة.

الفصل الثاني عشر

آراء سانت كلير وأوفيليا

عندئذ قالت إيڤا بقوة:

- لا حاجة تدعوك يا توم لإعداد العربة فلستُ راغبة في تلك النزهة.

- ولمَ لا يا آنسة إيڤا؟

فقالت إيڤا:

- إن هذه الأمور المَقيتة تفتّت كبدي يا توم. أنا لا أريد أن أذهب.

وانصرفت إيڤا ميمّمة وجهة المنزل.

وبعد بضعة أيام جاءت القصر امرأة أخرى، غير پرو العجوز، حاملةً سلة الكعك على رأسها، وكانت الآنسة أوفيليا في المطبخ.

ولم تكد دينا ترى تلك الزنجية حتى صاحت:

- يا إلهي. ماذا دهى پرو؟

فقالت المرأة بصوت يوقع الرهبة في القلوب:

تفتت كبدي: تسبب لي الحزن الشديد. ميمّمة: متجهة.
دهى: أصاب.

- إن برو لن تأتي بعد اليوم أبداً...

فصاحت دينا:

- ولمَ لا؟! عساها لم تمت أليس كذلك؟

فقالت البائعة الجديدة وهي تنظر بطرف عينها إلى الآنسة أوفيليا:

- لسنا نعرف شيئاً عنها على وجه الدقة. وكل ما نعرفه أن أسيادها سجنوها في السرداب المظلم.

وبعد أن أخذت الآنسة أوفيليا حاجتها من الكعك، تبعت دينا المرأة إلى الباب ثم سألتها:

- ما الذي أصاب برو على كل حال؟

وبدت المرأة كأنها راغبة في الكلام؛ ولكنها ترددت في **البوح**. وأخيراً أجابت بصوت منخفض:

- حسناً! يجب أن لا تخبري أحداً. لقد سكرت برو كعادتها من جديد، فاقتادوها إلى السرداب، وهناك تركوها طوال النهار. ولقد سمعتهم يقولون: إن الذباب قد غطى جسمها وإنها ماتت.

وصعقت دينا لهذا النبأ، ورفعت يديها إلى العلاء **تستجير بربِّها**. وفيما كانت تلتفت إلى الوراء، رأت إلى جانبها إيفا الصغيرة تقف دَهِشة، وقد اتسعت عيناها الكبيرتان والوادعتان من الخوف، وامتقع لون وجهها و**غاضت** آخر قطرة من قطرات الدم في وجنتيها وشفتيها، وقالت بخوف:

البوح: الإفصاح عمّا في نفسها.
تستجير بربِّها: تطلب مساعدته.
غاضت: غابت، جفت.

- ليرحمنا الله! الآنسة إيفا تكاد تقع مغشياً عليها. ما الذي جاء بها إلى هنا لتسمع مثل هذا الحديث؟

وقالت الطفلة بحزم:

- لن أقع مغشياً علي يا دينا. وأيّ بأس في أن أسمع ذلك الحديث؟ إن سماعه لن يُؤذيني بقدر ما أوذيَتْ برو المسكينة عندما ذهبت ضحيّة قساوة البشر.

فصاحت دينا:

- ولكن هذه القصص لم تُجعل من أجل الآوانس الجميلات الناعمات مثلك، ففي هذا ما يقتلهنّ!

وتنهدت إيفا مرة ثانية، وارتفت السلم بخطوات **وئيدة** كئيبة.

وسألت الآنسة أوفيليا دينا بفضول زائد عما كانت تحدثها البائعة عن برو العجوز السوداء. فروت لها **بإسهاب** وتفصيل حادثها المؤلم، وزاد توم على كلامها ما كان قد سمعه في صباح ذلك اليوم من فم العجوز برو نفسها في زيارتها الأخيرة لذلك البيت.

وصاحت أوفيليا:

- يا لها من حادثة كريهة وفظيعة وغريبة!

ودخلت الغرفة حيث كان سانت كلير مسترخياً على مقعد طويل يطالع صحيفته وقصّت عليه النبأ.

فقال سانت كلير متابعاً النظر في صحيفته:

وئيدة: بطيئة، متأنية.
الإسهاب: الشرح المفصّل.

- لقد كنت أتوقع مثل هذه الخاتمة للمسكينة پرو.

فقالت الآنسة أوفيليا:

- كنت تتوقع ذلك؛ ولكن ألا تعتزم أن تعمل شيئاً ما؟ أليس عندك من تبعثه للتدخل وللحيلولة دون اقتراف المآسي؟

- ما بوسعي أن أفعل في من يُؤْثِر أن يُهلك ممتلكاته ويفقد النفع الحاصل منها، وحريّ بأولئك الناس أن يحرصوا على ما يملكون، أما إذا كانوا يفضّلون إتلاف أملاكهم بأيديهم فلا أدري ما الذي أستطيع أن أفعله في هذا السبيل... ويبدو يا ابنة عمي أن تلك الإنسانة البائسة كانت تسرق أسيادها لتتمكن من ابتياع الشراب. ولهذا فليس ثمة أمل كبير في إثارة العطف عليها!

- ولكن هذا فظيع، يا أوغسطين، وليس من شك في أن ذلك سيعود عليك بالوبال الشديد ذات يوم.

- يبدو أنك تجهلين يا عزيزتي أني لم أقترف أنا ذلك الجرم بل غيري، وأنه لم يكن لي دخل فيه لا من قريب ولا من بعيد. وثقي بأنني لو تيسر لي أن أتفاداه لفعلت؛ ولكن ما شأني إذا كان أولئك الأسياد القُساة يسلكون هذه المسالك القذرة، ويعاملون أرقّاءهم مثل هذه المعاملة النكراء؟! إنهم يعتقدون أن لهم السلطة المطلقة على أرقّائهم وهم لهذا طغاة ولكنهم غير مسؤولين. وليس في التدخل ما يبعدهم عن وحشيتهم. لذلك كان من الأفضل للرجل الشهم إزاء هذه المظالم أن يغضّ طرفه ويصمّ أذنيه ويترك الأمور تجري على هواها.

الحيلولة: المنع.

يؤثر: يفضّل.

الوبال: سوء العاقبة.

- ولكن كيف تستطيع أن تغمض أجفانك وتوصد أذنيك إزاء هذه الوحشية؟ كيف تستطيع أن تدع هذه المظالم تحت سمعك وبصرك وأنت إنسان رقيق المشاعر؟

- ما عساي أن أفعل؟ وما الذي تتوقعينه مني يا عزيزتي؟ في بلادنا طبقة من الناس محتقرة ومهانة، وطبقة في الوقت نفسه جاهلة وغبية وجدت مقاديرها من غير احتياط أو رادع إنساني في أيدي طبقة ثانية تؤلف الأكثرية المطلقة في شعبنا، وهم بأغلبهم من قساة القلوب الذين فقدوا الحصافة والضمير الإنساني، بل لا يدركون إدراكاً حقيقياً معنى العطف البشري. وفي مجتمع كالذي نحيا فيه، ماذا تطلبين من رجل شريف أن يفعل غير أن يُغمض عينيه ويقسّي قلبه ويترك الأمور تجري؟

إني لا أستطيع أن أشتري كل بائس مسكين تقع عليه عيني. ولست بقادر أن آخذ لنفسي صفة «الفارس التائه» فأجعل عملي القضاء على كل ظلامة إفرادية في مدينة كهذه. وأظنّ أن كل ما بوسعي أن أفعله هو أن أتحاشى سلوك هذا المسلك الشائن الذي لا يليق بي.

وكأنما لم تقنع الآنسة أوفيليا بآراء أوغسطين فقالت:

- الحق أقول لك يا أوغسطين، إني ما أزال منذهلة من دفاعك عن مثل هذا النظام القذر!

وتناولت كُبّة صوفها وشرعت في الحبك.

- وهل وافقت على ذلك النظام، أيتها النسيبة العزيزة؟

فقالت أوفيليا في انفعال:

الحصافة: الرأي والحكم الجيد.

الشائن: المُعيب.

- طبعاً. أنت تدافع عنه. إن أهل الجنوب جميعاً يدافعون عنه. وأعتقد أنهم لهذا يقتنون العبيد ويسترقّونهم.

- أليس من الحيف أن يقوم الإنسان بأعمال يستنكرها ولا يعتقد أنها حق؟ ألم تفعلي في حياتك قط عملاً وأنت تعلمين علم اليقين أنه خطأ؟

فقالت أوفيليا:

- إني حين أفعل ذلك أعتصم بحبل التوبة.

- وهذا عين ما أفعله أنا. إني أتوب عن هذا الإثم كل يوم.

- ولكن لماذا تصر على التردي في هذا الإثم أبدَ الدهر؟

- ألم يصدف أن أقدمتِ يوماً على اقتراف إثم بعد أن تُبتِ عن مثله يا عزيزتي؟

- حسناً. ولكن ذلك لم يحدث لي إلا في حالات ضعفي القُصوى!

فقال سانت كلير:

- حسناً. وإني أقع في مهالك الضعف القصوى.

- أما أنا فإني أحاول دائماً أن أتغلب على ضعفي، وأتجنب الاستمرار في الخطيئة.

- وثقي بأني كنت أعتزم دوماً الإقلاع عن اقتراف أي إثم طوال هذه السنين العشر. ولكني لا أحس أني وُفّقت للخلاص من الإثم حتى

يسترقّونهم: يستعبدونهم.
الحيف: الظلم، عدم العدل.
الإقلاع: الامتناع.

اليوم بسبب واحد. وإذا كنت تريدين أن تعرفي حقيقة اعتقادي في الاسترقاق والرق، فإني لا أكتمك أن من يستفيد من هذا النظام هم المزارعون، ورجال الدين يسعون لاسترضاء المزارعين، والسياسيون يتّخذون منه وسيلة إلى الحكم. في استطاعة هؤلاء جميعاً أن يبدلوا اللغة والأخلاق إلى درجة تجعل الناس مندهشين من براعتهم، في استطاعتهم أن يسخروا من الطبيعة والكتاب المقدس لخدمة مصالحهم. ولكن لا هم ولا الناس يؤمنون على أية حال، بصحة ما يعتقدونه ويفعلونه. وإن نظام الاسترقاق رِجْس من عمل الشيطان، وإنه ليمثل نموذجاً بارعاً لما يستطيع أن يصنعه في حقل اختصاصه...

وهنا بدت على الآنسة أوفيليا أمارات الدهشة. وتوقفت يداها عن الحبك. وكأنما أَيِسَ سانت كلير بدهشتها فاسترسل في الحديث...

- والآن بربك ما هي مسألة الرق هذه التي يكرهها الله والناس؟ ومن أين أتت؟ هيا بنا نحللها ونحررها من صفاتها الزائفة، ولننظر إلى نواتها وجذورها فماذا نحن واجدون؟ قد نجد السبب في أن أخي الزنجي «كواشي» مثلاً جاهل وغبي بينما أنا أفوقه ذكاء ومهارة، فأسلبه كل ما عنده ثم لا أعطيه إلا بقدر ما يطيب لي. وعندما أضطر مرغماً للقيام بأي عمل مرهق قد يضايقني أو بأية مسؤولية قذرة لا أقدم عليها، أحتجّ أني لا أحب العمل فأجبر «كواشي» أن يعمل وأن يتحمل قيظ الصيف وقُرّ الشتاء. وهكذا أحكُم على كواشي بأن يعمل ويربح

رجس: إثم، خطيئة.
قيظ: حر شديد.
قر: برد قارس.

لي المال لأنفقه على أهوائي. وعليه أن ينفذ رغباتي لا رغبته، وإرادتي لا إرادته، ما دام على قيد الحياة. بل أكثر من ذلك، أتدخل بينه وبين ربه وأحرمه دخولَ الجنة إذا شئت، وأسمح له بها إذا أردت. هذا في اعتقادي حقيقة الاسترقاق. وإني أتحدى أي إنسان قانوني على وجه الأرض أن يخرج بنتيجة من قوانيننا الاسترقاقية غير ما ذكرت.

قال سانت كلير ذلك وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً، وقد أوشك وجهه المليح أن يحترق بحرارة أحاسيسه وعواطفه المتّقدة. وأومضت عيناه الزرقاوان الواسعتان ببريق عجيب. وإذ لم تشهده الآنسة أوفيليا على مثل هذا الانفعال من قبل، اعتصمت بالصمت وكأن على رأسها الطير.

وفجأة اقترب سانت كلير من ابنة عمه وقال:

- ومهما كان الأمر فإني أصرح لك جازماً أني كلما فكرت في قوانيننا التي تُجيز لأي إنسان أبيض، مهما كان وضيعاً، أن ينصب نفسه طاغية ويتسلط بشكل مطلق على عدد من الرجال والنساء والأولاد العبيد، يزيد عددهم أو ينقص بقدر استطاعته على الشراء أو بقدر ما في نفسه من خداع وحقارة... أقول إني كلما فكرت في قوانيننا هذه ألعن بلادي وألعن الجنس البشري برمّته!

وصاحت أوفيليا:

- كفى يا أوغسطين كفى! إني واثقة من أنك قلت كل ما أنتظر منك أن تقوله. وأقسم أني ما سمعت حتى في الشمال إنساناً يفوه بمثل هذا الكلام ضد القوانين الجائرة.

المتّقدة: الملتهبة.

برمته: بكامله.

فقال سانت كلير، وقد عاودته لا مبالاته المألوفة:

- في الشمال؟ هذا هراء! إن أصحابك الشماليين ذوو دم بارد، وهم لا يحسنون صبّ اللعنات كما نحسنه نحن حين يفرغ صبرنا.

فقالت الآنسة أوفيليا:

- ولكن السؤال هو...

فقاطعها سانت كلير قائلاً:

- آه، حتماً السؤال هو: كيف انغمست أنت في بؤرة الفساد هذه وارتكبت مثل ذلك الإثم؟ سأجيبك عن تساؤلك: «إني فعلت ذلك الإثم ورائياً. فقد كان العبيد الذين تَرَيْنَهم في بيتي عبيداً لأبي، والبعض الآخر عبيداً لأمي. فأمسوا بحكم الإرث عبيداً لي مع العدد الجديد من الأرقاء الذين ابتعتهم بمالي الخاص. لقد كان أبي، كما تعرفينه، رجلاً مستقيماً ذا إرادة حديدية. وقد آثر أن يرتحل إلى هذه الديار ويترك نيوإنجلاند ليفرض سلطته على الرجال والنساء، وليجمع ثروته الطائلة على أكتافهم وبمساعدتهم، في حين ظل أبوك في وطنه يفرض سلطانه على الصخور والحجارة، وينتزع ثروته من الطبيعة. وكانت أمي امرأة روحانية تتجسد فيها قيم الكتاب المقدس تجسداً كاملاً. وكنت أنا وأخي توأمين. وإذا كان التوائم يتشابهون عادة فقد كنا على نقيض ذلك، وكان أخي على نقيضي. فهو أسود العينين فاحم الشعر، ويمتاز عني بملامحه الرومانية القوية وسمرة بشرته الجميلة، في حين أني، كما ترين، أزرق العينين ذهبي الشعر وملامحي إغريقية

آثر: فضّل.

إغريقية: يونانية.

وبشرتي بيضاء. وكان أخي مع رفقائه وأصدقائه لطيف المعشر؛ ولكنه متعالٍ على من هم دونه منزلةً، قاسي القلب، لا يعرف الشفقة على كل ما يعترض مصالحه أو يحاول إيذاءه.

«وكما تعلمين فقد كان أبي أرستقراطياً بفطرته فكان يحتقر الزنوج ويَعُدّهم خليقة وسطى بين الإنسان والحيوان، وكان يستخدمهم في مزارعه. وكان له ما ينوف على خمسمائة زنجي يأتمرون بأمره. ومن المعروف عن والدي أنه كان شديد القسوة على خدامه وعبيده، وكان عنده رئيس للعمال أبيض فظ الطباع غليظ القلب، فكان يسوم الأرقاء سوء العذاب، وكنت أنا وأمي نكرهه كرهنا للمحرمات؛ ولكنه عرف كيف يستحوذ على ثقة أبي فإذا هو سيد الإقطاعة المطلق.

«لقد كنت حديث السن آنئذ؛ ولكني كنت أؤمن بحقوق الإنسان، وكان يعمر قلبي، منذ نعومة أظفاري، بحب الناس على اختلاف أجناسهم وعروقهم وأحوالهم. وأذكر أن العبيد كانوا يُفضون إليّ بشكاواهم فأنقلها بدوري إلى أمي فنتعاون للتخفيف عنهم وإبعاد المظالم النازلة بهم.

«وعندما تفشل مساعي والدتي في حمل أبي على أن ينهج منهجاً جديداً يكون أكثر إنسانية في معاملة الرقيق، كانت تكفّ عن محادثته بهذا الموضوع، وتبتعد عن التدخل في شؤونه لتصرف وقتها كله في تربية ولديها وفق عقائدها وعواطفها ومشاعرها.

متعالٍ: متكبّر.
يستحوذ: يحصل.
ينوف: يزيد.
يُفضون إليّ: يبوحون لي، يخبرونني.

«والحق أنني كثيراً ما سمعتك تتحدثين عن أثر تربية الأولاد الصالحة في نفوسهم، ولكني أسمح لنفسي أن أزعم أن الأولاد إنما يشأون على ما فُطروا عليه أكثر مما يصلحون به. فمنذ كنا أطفالاً كان أخي ألفرد يبدو متعالياً أرستقراطياً، وعلى هذا شب وترعرع وكانت هذه الطباع غريزة فيه. وذهبت مواعظ أمي في تبديله أدراج الرياح.

«أما أنا فقد رسخت جذور هذه النصائح في أعماق نفسي فشببتُ أقدّس كرامة الإنسان البشرية ولا فرق عندي بين إنسان وآخر. وأذكر أني كنت أرنو إليها بإعجاب وهي تناجي النجوم ليلاً ثم تومئ إلى النجوم في هدوء الليل قائلة لي: اعلم يا أوغيستان أن أحط الناس وأوضعهم في أرضنا هذه سوف يصبحون أحياء عندما تتلاشى هذه الأكوان ويصيبها الفناء. إنهم سيبعثون أحياء ما دام الله ذو الجلال والإكرام.

«وأعتقد أني لو عشت تحت رعايتها كل سنوات حياتي لكنت في عداد القديسين أو المعلمين أو الشهداء الأبرار، ولكنها فارقتني وأنا ما أزال حدثاً في الثالثة عشرة من عمري فحُرمت رؤية وجهها إلى الأبد.

«وكذلك حين توفى الله والدي فقد ترك ثروته الطائلة كلها لنا نحن التوأمين نقسمها بالاتفاق. وبدا أخي ألفرد عند اقتسام الإرث نبيلاً كريم النفس، فرأيت من الأفضل أن نستغل أرضنا ومزارعنا متعاونين متضامنين.

شبيتُ: بلغت سنّ الشباب.
أرنو: أنظر.

«وبعد سنتين على هذه التجربة اتضح لي، بما لا يتطرق إليه الشك، أن فسخ الشركة كان أفضل لكلينا. فقد هالني أن أرى في مزارعنا سبعمائة عبد يُشترون ويباعون ويستغلون ويطعمون، ثم يعاملون كالبهائم ويجلدون بالسياط أو بقبضات رؤساء العمال القساة.

«ومن السخف والغباء أن نقول إن العبيد يرتاحون لهذه المعاملة القاسية. ولا أعتقد أن هنالك مخلوقاً بشرياً يحيا على وجه الكرة الأرضية يوافق مختاراً أن يشتغل طوال عمره، وكلَّ يوم منذ مطلع الفجر حتى غروب الشمس، وعين سيده القاسية تراقبه من دون أن يكون له الحق في أن يستريح ويتنفس الصعداء من عناء الكد المتواصل **الرتيب**. وهو يفعل كل ذلك لقاء بنطال واحد وحذاء واحد يصيبه في العام، ومن أجل مأوى صغير وقدر من الطعام الحقير يسدّ به **رمقه** ويكفي لإبعاد شبح الموت عنه، ويمكنه بالتالي من متابعة العمل المتواصل. وإذا كان في هذا الوطن من يزعم أن هذه الكائنات البشرية تستمتع وتلتذ بهذا الوضع كما يتمتع باقي الناس في حياتهم فإني مستعد أن أشتري ذلك الكلب لأشغله بقلب قانع وضمير مرتاح».

فقالت الآنسة أوفيليا: «كنت أحسب أنكم جميعاً تُقرُّون بهذه الأشياء وترون أنها عدل وحق وفقاً للكتاب المقدس».

ـ إن ذلك **هراء** وادعاء فنحن **لم نَرْقَ** بعد إلى هذه الدرجة من الكمال، وألفرد أخي الذي يسري دم الطغيان في عروقه لا يمكنه أن

الرتيب: الثابت على وتيرة واحدة.
هراء: كلام فارغ.
الرمق: بقية الروح في الجسم.
لم نَرْقَ: لم نرتفع.

يستعين بهذه النظرية، فهو حين يعامل خدامه بقسوة إنما يعتقد أنه يدافع على أساس أرفع وأعلى، على أساس تلك النظرية القديمة القائلة إن الحق يكون دائماً للأقوى معتقداً في كثير من **الصفاقة**، كما يخيل إلي، أن المزارع الأميركي، في استخدامه العبيد، إنما يقلّد بذلك ما تفعله الطبقة الأرستقراطية الإنكليزية أو الرأسماليون الإنكليز بالطبقة الدنيا؛ ولكن على شكل مختلف، فيكون من الاسترقاق تسخير العبيد جسداً وروحاً. وألفرد أخي يدافع عن كلا النظامين المطبقين هنا وفي إنكلترا، ويقول إنه ما من حضارة عالية يمكن أن تقوم إلا على استعباد الجماهير سواء كان ذلك الاستعباد فعلياً أو اسمياً...».

وهنا صاحت الآنسة أوفيليا بدهشة واستغراب:

ـ وأي عقل بشري هذا الذي يتيح لنفسه أن يشابه ما بين حال الأرقاء في أميركا وحال العمال في بريطانيا؟ يكفي أن العامل الإنكليزي لا يباع ولا يشترى في سوق النخاسة، ولا فرق بينه وبين رب العمل في الحقوق والواجبات العامة، ويكفي أنه لا يضرب بالسياط.

ـ هناك لا يكون العامل خاضعاً لرب العمل خضوعاً كلياً ينزله منه منزلة الرقيق الذي يُشترى ويباع هنا. وإذا كان مالك العبد يجلد عبيده بالسوط حتى الموت، فإن الرأسمالي البريطاني يلجأ إلى مثل ذلك عن طريقة ملتوية فيُجيع العامل حتى الموت. أما ما له علاقة بالأسرة وسلامتها، فمن العسير على المرء أن يميّز أيهما أسوأ أن يرى

الصفاقة: الوقاحة.

أولاده يباعون أو أن يراهم **يتضوّرون** جوعاً تحت سقف البيت الذي يسكنه.

وعلى كل حال، فلقد حدثت أخي آخر الأمر بضرورة تصفية الشركة، فأجابني بأني إنسان عاطفي كالنساء وأني لا أصلح لحياة العمل في المزارع. وقد نصحني أن آخذ نصيبي من الأموال المودعة في المصارف، وأن أسكن بيت الأسرة في نيو أورليانز وأترك أمر العمل له، وأنصرف أنا إلى نظم الشعر...

- ولِمَ لم تحرر عبيدك؟

- الواقع أني أكره استخدامهم كآلات صماء لأجمع الثروة. ولكن لا أكره المحافظة على بعضهم وإنفاق المال عليهم. فقد خدم بعضهم في بيتنا منذ طفولتي حتى أصبحت متعلقاً بهم كأهلي، ثم كان لأولئك صغار ولا يمكن إبعادهم. يضاف إلى كل هذا أنهم راضون بالبقاء هنا ولا يُطيقون فراقنا.

وتوقف سانت كلير لحظة وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ثم قال:

- لقد أتى علي حين من الدهر وضعت فيه الخطة لإبداع نظام جديد في هذا العالم. فقد كان يطوف في مخيلتي نوع من العقيدة بأني سأكون محرراً ومصلحاً فأمحو عن وجه وطني لطخة العار هذه. وأعتقد أن معظم الشبان يتعرضون لمثل ما تعرضت له من الحماسة، وتعصف في نفوسهم مثل هذه الحمى في وقت ما ثم...

- وما الذي حال بينك وبين تنفيذ ما عزمت عليه؟

يتضوّرون: يتألمون.

- حسناً، إن الرياح لم تجرِ بما كنت أشتهي وأرغب، فملكني اليأس. وبعد أن كنت أطمح أن أكون معلماً ومجدداً في بيئتي، قنعت من الحياة بأن أكون قطعة من الخشب تطفو على سطح المياه وتتقاذفها الأمواج لا أكثر ولا أقل.

وهنا سألت الآنسة أوفيليا ابن عمها:

- وما رأيك في قضية الاسترقاق عموماً؟ وما المصير الذي ستؤول إليه؟

- لا يمكنني الإحاطة بما سيؤول إليه الرق؛ ولكن لا ريب في أن الجماهير ستتكتل ذات يوم وتتحفز للوثوب في جميع بقاع الأرض. ولا بد أن يأتي يوم تغضب فيه الجماهير الواعية غضبتها القصوى إن عاجلاً أو آجلاً. وقد بدأت تباشير هذه الثورات تظهر في أوروبا وإنكلترا بل في هذه البلاد. ومما كانت تحدثني به والدتي أنه سيأتي زمن **تسود** فيه العدالة والإصلاح جميع أطراف الأرض، وذلك حيث تسود ديانة المسيح فيتحرر جميع الناس **ويصبحون سواء**. وهكذا علمتني أن أصلي وأنا صغير فأقول: «مملكتك يا رب آتية». ويخيّل إلي أحياناً أن جميع التنهدات وجميع الآلام وجميع الثورات التي تعصف في رؤوس المعذبين على الأرض ليست إلا علامات ودلائل تشير كلها إلى اقتراب ساعة القيامة التي كانت تتحدث عنها إلي. فهل، يا ترى، يطول بنا **الأجل** حتى نشهد ظهور ذلك اليوم؟

تسود: تسيطر.

يصبحون سواء: أي متساوين.

الأجل: الوقت.

رمت أوفيليا الصوف الذي كانت تحوكه جانباً، ونظرت إلى ابن عمها بشوق ولهفة وقالت:

أوغسطين! يتراءى لي في بعض الأحيان أنك لست بعيداً عن تلك المملكة.

- أشكر لك حسن ظنك. ولكن الأمر عندي يحار ما بين الصعود والهبوط. الصعود إلى باب السماء من حيث النظريات، والهبوط إلى غبار الأرض من حيث الواقع. وعلى أية حال، فها هوذا الجرس يدعونا لتناول الشاي، فلنلبِّ دعوته. ولا تقولي بعد اليوم إنني لم أُسهب في حديث جديٍّ رصين مرة واحدة في حياتي!

وعلى المائدة أشارت ماري إلى حديث برو العجوز، ووجهت الكلام إلى ابنة عمها وقالت:

- أخشى أن تعتقدي أننا كلنا قساة برابرة...

- إني، ولو اعتقدت أن ذلك الحادث بربري، فلست أعتقد أنكم قوم برابرة على أي حال.

فقالت ماري:

- مهما تبدلت الأحوال فأنا واثقة أنه من العسير علينا أن نعيش مع بعض هذه المخلوقات، وأن نحسبهم مساوين لنا، فهم أردياء وسيئون. حتى إنهم لا يستحقون أن يَحْيَوا. وأنا شخصياً لا أشعر بذرَّة من العطف عليهم. وأعتقد أنه لو يحسّن العبيد سلوكهم لما وقعت كل هذه المآسي!

فقالت إيفا:

أسهب في حديث: أطالَ الحديث وفصّله.

- ولكن تلك الإنسانة البائسة كانت شقيّة جدًّا، يا ماما، وهذا ما اضطرها إلى معافرة الخمر.

- وهل يكون ذلك السبب عذراً مقبولاً لارتكابها ذلك الإثم؟ إنني، يا بنيتي، أتعرض في أكثر الأوقات لظروف تعسة شقية، ومع هذا لم أهرع للتخلص من شقائي إلى الشراب. لا، لا تظني ذلك فهم يشربون الخمر لأنهم فاسدون، وهنالك فريق منهم يصعب تهذيبه مهما عاقبته بضروب القسوة. فلقد كان عند والدي، على ما أذكر، عبد كسول كان يفرّ دوماً من عمله ويبتعد عن المزرعة لا لسبب إلا للتخلص من الشغل، فكان يذهب إلى المستنقعات ليسرق هناك ما تقع عليه يده، ويرتكب أفظع الآثام وأرذلها. فكان رجال والدي يلاحقونه، وعندما يقبضون عليه كانوا ينهالون عليه ضرباً ويجلدونه بالسياط؛ ولكن من دون جدوى فلم يبدل عادته. وفي ذات يوم، تحامل على نفسه رغم ضعفه البالغ، وهرب ثم وُجد ميتاً في المستنقع. والحقيقة أنه لم يكن لتصرفه سبب غير شذوذه. أما أبي فكان يحسن معاملة أرقائه ويعاملهم دوماً في رفق ولين نادرين.

فقال سانت كلير:

- لقد روَّضت أنا، ذات مرة، ما عجز عن ترويضه أقدر النظار والأسياد.

فصاحت ماري:

- أنت يا أوغسطين، كم يسرني أن أعرف عنك شيئاً من هذا القبيل قد قمت به من تلقاء نفسك.

أهرع: أسرع.

- حسناً، لقد كان ذلك العبد ضخم الجسم قوياً، وكانت فكرة الحرية مستحوذة عليه استحواذاً كلياً. كان يشبه أسداً أفريقيًّا بقوته وجرأته وكان يسمى «شيبو»، وقد أذاق مالكيه الأمرّين. فتناقلته أيدي النخاسين بيعاً وشراء حتى انتهى به السوق آخر الأمر إلى أن يكون عبداً لأخي ألفرد الذي اشتراه خصيصاً ليبرهن أنه قادر على ترويضه. ولكن ما مضى على وجوده عنده زمن غير طويل حتى قتل شيبو هذا مدير عمل الإقطاعة، وفرّ إلى المستنقعات يلوذ بها.

وصدف أن زرت أخي في مزرعته فألفيته حانقاً غاضباً يتميَّز من الغيظ على فعلة ذلك الزنجي، فطيّبت خاطره وقلت له: إنها هفوته. وأبديت استعدادي لمراهنته على أن في مقدوري أن أروّض ذلك العبد الشرس، وأدَّت نتيجة محادثتنا إلى موافقته على أن يعطيني ذلك العبد، إذا ما قدرت أن أعثر عليه في المستنقعات لأُجري تجاربي عليه.

وقد زودني بستة رجال أشداء ومعهم بنادقهم وكلابهم أملاً في أن أتمكن من اصطياد الأفريقي الشرس الضاري.

وانطلقنا نبحث عنه، وكانت الكلاب دليلنا، وأخيراً اهتدينا إلى مقرّه، ولكنه ما كاد يرانا حتى أطلق ساقيه للريح، وراح يعدو كالغزال فما استطعنا أن ندركه حالاً، غير أن ضمة من قصب السكر اعترضت سبيله فتلكأ عن المسير حتى تمكنت الكلاب أن تدركه، فعارك الكلاب وانقضّ عليها كالأسد، وبسالة مدهشة قتل ثلاثة كلاب بيديه العزلاوين.

يلوذ بها: يلجأ إليها.
تلكأ: تأخر.
ألفيته: وجدته.
العزلاوين: من دون سلاح.

ولكن أصابته آنذاك إحدى رصاصاتنا فسقط على الأرض يتخبط بدمه، وقد وقفت فوق رأسه فتطلع إليّ المسكين بنظرات قاسية ويائسة في الوقت نفسه، فأخذتني الشفقة عليه، وأبعدت عنه الكلاب والرجال الذين تهافتوا عليه يريدون الإجهاز عليه، وأعلنت أمامهم أن ذلك العبد أصبح أسيري منذ الساعة.

لقد كان هذا أفضل ما يمكنني أن أفعله لأنقذه من رصاص الرجال وفتك الكلاب. ولما عدنا إلى المدينة طلبت من ألفرد أن يبيعني إياه ففعل، وما هي إلا مدّة أسبوعين اثنين حتى فَكَّ الرجلَ فصار مطواعاً لأمري.

فقالت ماري:

- ماذا فعلت حتى وُفّقت لتطويعه؟

- حسناً! لقد كانت العملية هينة وبسيطة، فقد حملته وهو جريح إلى غرفتي الخاصة ونصبت له فراشاً وثيراً فيها، وضمّدت جراحه وسهرت عليه بنفسي حتى التأم جرحه. وعندما عادت إليه صحته، اعتقته وأعطيته الحرية في أن يذهب حيث يشاء.

فسألته الآنسة أوفيليا:

- وهل ذهب بعيداً؟

- بالطبع لا. لقد بلغت به الأنفة أن رفض صكّ الإعتاق، وأبى أن يفارقني. ومنذ ذلك الحين صار يلازمني كظلي، وأشهد أني لم

الإجهاز: الإسراع في القتل.
اعتقته: حرّرته.
فكّ الرجل: جمعتنا الألفة.

أعرف طَوال عمري إنساناً أنبلَ قلباً وأنقى **سريرةً** وأكرم أخلاقاً منه. وقد اعتنق المسيحية بعد ذلك، وغدا لطيف المعشر **نمئاً** كالأطفال. بيد أني فقدته في موسم الكوليرا الأول، وذلك لأنه قدّم حياته فداء لحياتي. فقد كنت مريضاً، بل أشرفت على الهلاك، فابتعد عني جميع الناس بسبب الخوف من الوباء، فيما لازمني شيبو وخدمني في مرضي أصدق خدمة، فعادت الحياة إلى جسدي **الذاوي**، ولكن المسكين وقع هو فريسة الكوليرا، وعبثاً حاولت إنقاذه وبذلت قصارى جهدي لأعيد إليه الحياة، فقد تغلب عليه المرض وراح ضحية تفانيه وإخلاصه لي.

وعندما رأى سانت كلير هيكل ابنته الرقيق النحيل يرتجف ويتمايل تحت تأثير عواطفها. كان سانت كلير يحكي تلك المأساة المحزنة، عندما تقدمت منه إيفا قليلاً وقد انفرجت شفتاها بالدهشة، واتسعت عيناها بشوق عارم واستغراق مذهل. ولمّا انتهى من سرد الرواية هرعت إليه وطوقت عنقه فجأة بذراعيها وأجهشت بالبكاء والنحيب.

وصرخ سانت كلير وقد رأى أن هيكل فتاته النحيل يرتجف ثم قال:

- إيفا عزيزتي الصغيرة، ماذا دهاك؟

ثم أضاف:

- ينبغي على هذه الفتاة أن تبتعد عن سماع مثل هذا الكلام. إنها عصبية المزاج رقيقة المشاعر.

السريرة: النيّة. **نمئاً:** لُيّن الطبع.
الذاوي: الذابل.

فقالت إيفا وهي تضبط نفسها فجأة:

- لا. لا، يا بابا. أنا لست عصبية. ولكن أفكاراً غريبة كثيرة تراودني. ولعلي أحدثك عنها في يوم من الأيام!

فقال سانت كلير:

- حسناً يا عزيزتي! فكّري كما تشائين؛ ولكن لا تصرخي وتزعجي والدك، الآن، أنظري أية خوخة طيبة المذاق جئتك بها!

وأخذت إيفا الخوخة، وابتسمت، ولكن آثار التشنج العصبي كانت ما تزال بادية حول زوايا فمها.

* * *

ترى ماذا حل بصاحبنا توم؟ نخشى أن يكون قد أُهين أو أهمل في غمرة هذه الأخبار التي تحدثنا بها عن الطبقة الارستقراطية. ولكن مخاوفنا تزول لو رافقنا القراء إلى غرفة صغيرة كائنة فوق الإسطبل ليعرفوا عنه شيئاً قليلاً. فقد كانت غرفته هذه غرفة حسنة على وجه العموم، فيها فراش وكرسي ومنضدة خشبية وضع عليها الكتاب المقدس ومجموعة أناشيده الكنسية.

أما توم فقد **راقه** المكان؛ ولكن الحنين إلى الأهل والأولاد سيطر على نفسه وملك مشاعره كلها في ذلك اليوم. فقد طلب من إيفا أن تعطيه قطعة ورق ليكتب إلى زوجته رسالة يحدثها فيها عن نفسه ويسألها عن أحوالها. وقد اختلط الأمر على توم، فما عرف كيف يستهلّ رسالته. لقد نسي طريقة كتابة الرسائل التي علمه إياها جورج

راقه: أعجبه.

ابن مولاه السابق، وهو لا يدري على وجه التأكيد أي الأشكال بقي عالقاً في ذهنه يمكنه أن يستخدمه الآن.

وفيما كان منهمكاً في إعداد الرسالة، وأفكاره تعبة لا يدري ما يفعل، دخلت عليه إيفا فتنفس الصعداء، وكأنما هبط عليه ملاك من العلاء، وقد صرخت إذ لمحت ما كتبه على الورق.

- آه أيها العم توم إنك تصوّر مناظر مضحكة حقاً!

- لقد مضى علي زمن طويل وأنا أحاول أن أخط رسالة لامرأتي المسكينة وإلى أولادي الصغار. ولكني أجد صعوبة بالغة وأخشى ألا أنجح في ذلك.

- ليت باستطاعتي أن أساعدك أيها العم توم، فقد تعلمت الكتابة في السنة الماضية، وكان في مقدوري كتابة جميع الحروف الهجائية، ولكن لست واثقة الآن إذا كنت ما أزال أحسن كتابتها.

- وما كان من إيفا إلا أن جلست بقرب توم ووضعت رأسها الجميل إلى جانب رأسه، وأخذا يتعاونان في كتابة الرسالة بحماسة متكافئة وجهالة شبه متكافئة. وقد اشتركا في كثير من التساؤلات والتشاورات وفحص الكلمات وصوغ الجمل، حتى أخذت لغة الرسالة تبدو كأنها شبيهة بالكتابة الصحيحة.

وتطلعت إيفا مليًّا في ما كتباه ثم صاحت بفرح:

- أجل! أجل أيها العم توم لقد أخذت السطور تظهر جميلة حقاً.

كم سيسعد أطفالك الصغار وزوجتك بقراءتها! آه إنه من العار أن

تضطر لمغادرتهم والارتحال عنهم. ولكن لا تخف فقد قررت أن أطالب بابا بإعادتك إلى موطنك الأول في وقت قريب...

- لقد وعدتني سيدتي السابقة بأن ترسل إلي بعض المال عندما يتيسر لها ذلك. وإني أتوقع منها مثل هذه التضحية. وقد وعدني مولاي جورج الصغير بأنه سيحضر لافتدائي. وقد نقدني هذا الدولار دليلاً على حبه لمساعدتي وسيفعل ذلك من دون شك!

قال توم هذا، وسحب الدولار الثمين من تحت ثيابه.

قالت إيفا:

- آه. لا شك في أنه سيأتي. إذاً إني سعيدة بذلك!

- وقد أردت أن أبعث إليهم برسالة لأعلمهم بمكان وجودي، ولأخبر زوجتي المسكينة أنني بخير.

وفجأة دخل عليهما سانت كلير. وإذ رأى الورقة تساءل عن حقيقة أمرها فقالت إيفا:

- أوه! إنها رسالة توم. إني أساعده على كتابتها. أليست جميلة؟

فقال سانت كلير:

- لا أريد أن أقلل من قيمة مهارتكما في الكتابة. ولكني أعتقد يا توم أنه من الأفضل أن أكتب لك الرسالة بخط يدي. ولسوف أقدّم لك هذه المساعدة بعد عودتي من نزهتي التي أقوم بها الآن على ظهر الجواد.

الافتداء: هو دفع مبلغ من المال (الفديّة) مقابل تحرير العبد، أو إطلاق الأسير.

فقالت إيفا:

ـ من الضروري جداً أن تعجّل في ذلك، لأن سيدته سوف تبعث بالمال لافتدائه. أسمعت يا بابا؟ لقد أخبرني أنهم قالوا له ذلك.

ولم يظهر سانت كلير اهتمامه بكلام ابنته، بل أصدر إليه الأمر بأن يُعِدَّ الخيل للنزهة. وبعد عودته من النزهة، كتب سانت كلير الرسالة باسم توم وأودعها صندوق البريد.

www.liilas.com/vb3

الفصل الثالث عشر

توپسي

ذات يوم، فاتحَ سانت كلير الآنسة أوفيليا بأنه قد ابتاع لها هديّةً فتاةً هندية زنجية صغيرة يراوح عمرها ما بين الثامنة والتاسعة ثم قدمها لها بعد قليل. وكانت الفتاة من أكثر أبناء جلدتها سواداً، ولها عينان مستديرتان برّاقتان. وكان شعرها الشبيه بصوف الخرفان مضفوراً غدائر متنافرة هنا وهناك. أما وجهها فكانت عليه علائم الذكاء والمكر.

وصاحت أوفيليا:

ـ وما الذي دعاك يا أوغسطين إلى أن تقدّم لي هذه الفتاة الوثنية الملامح؟

ـ لقد جئتك بها كي تثقفيها وتربيها حسبما ترغبين وحسبما ينبغي أن تربّى وتثقّف.

ثم التفت إلى الفتاة وقال:

ـ والآن يا توپسي. هيّا أسمعينا إحدى أغنياتك المفضلة، وأتحفينا برقصة من رقصاتك الرائعة.

مضفوراً: مجدولاً.

غدائر: جدائل.

وبرقت عينا الفتاة السوداوان الشبيهتان بالزجاج، واندفعت تغني أغنية زنجية اشتركت في أدائها رجلاها ويداها جميعاً.

حتى إذا انتهت، وجّه إليها سانت كلير الخطاب قائلاً:

- توپسي، هذه سيدتك الجديدة. سأتركك الآن بين يديها، ولا تنسي أن تسلكي دائماً سلوكاً ممتازاً.

- نعم يا سيدي!

وهنا قالت أوفيليا لابن عمها:

أخبرني، بربك، ما الغاية من شراء مثل هذه الفتاة، وبيتك يغصّ بأمثال هذه المصائب الصغيرة، حتى إن المرء لا يتمكن من أن يتنقل في أركان القصر من دون أن يدوسهم برجليه...

- ألم أقل لك إني أتيت بها لكي تثقفيها وتنشئيها تنشئة صالحة؟ فأنت تتحدثين دوماً عن أثر التربية والتثقيف في نفس الإنسان، لذا رأيت من واجبي أن أقدم لك نموذجاً على الفطرة عساك توفقين إلى إصلاحه ووضعه في قالب مسيحي صحيح كما يفعلون في نيو إنجلاند.

- لا، لست أريدها، فعندي من هذه البضاعة ما لا أستطيع أن أتحمله.

- وكيف لا يا ابنة عمي؟ وأنتم المسيحيين في بقاع الأرض كلها تؤلفون الجمعيات وتبعثون الإرساليات لإصلاح أمثال هذه الفتاة من الوثنيين، وتقضون سحابة عمركم في هداية الفكر إلى الدين!

أركان: زوايا.

سحابة عمركم: طول عمركم.

ولكن يا أوفيليا هل بوسعك أن تدليني على مُصلح مسيحي واحد أو مبشّر واحد مستعد أن يُدخل وثنياً واحداً إلى منزله ويتولى بنفسه أمر هدايته؟! إن هذا لا يحدث، إذ عندما تصبح القضية بهذه الخطورة، يصبح البائس قذراً ويصبح الوثني حقيراً غير مرغوب فيه، حتى إنكم تستكثرون أقل ما يمكن من العناية والرعاية.

وخففت أوفيليا من غلوائها وقالت:

- أوغسطين. أنت تعلم أني أنظر إلى المسألة على هذا الضوء. حسناً. قد يكون في العناية بهذه الطفلة عمل تبشيري حقيقي...

وتطلعت إلى وجه توپسي بشيء من العطف، ثم حملتها إلى المطبخ لتكلف إحدى الخادمات بتنظيفها وإلباسها ثياباً نظيفة.

ولما رفض جميع الخدام والخادمات القيام بتنظيف توپسي، اضطرت أوفيليا إلى أن تقوم بهذا العبء بنفسها، مع أنها لم تكن مرتاحة لهذا العمل. ولكنها تحملته بصبر، وكان الصبر أقصى ما تستطيع عمله. ولما رأت آثار السياط على ظهر الفتاة وكتفها، وهي لا تذوب ولا تمحى ولا تزول، وتدل بوضوح على فظاعة النظام الذي تعيش فيه هذه المسكينة، رَقَّ لها قلبها وأخذتها عاطفة من الشفقة عليها.

وسألتها الآنسة أوفيليا:

- ما عمرك؟

- لست أدري يا سيدتي.

وكشّرت حتى بانت نواجذها.

نواجذها: الأضراس التي في أقصى فمها.

- ألا تعرفين كم عمرك؟ ألم يخبرك أحد بذلك من قبل؟ ومن تكون أمك؟

- لم يكن لي أم في يوم من الأيام.

وكشرت عن أسنانها من جديد.

- لم يكن لك أم؟! ماذا يعني هذا؟ وأين ولدت؟

- أنا لم أولد في يوم من الأيام.

فقالت الآنسة أوفيليا وهي تتكلف الأناة:

- إنك لا تحيينني أيتها الطفلة. فأنا لا ألهو معك. أخبريني أين ولدت ومن هما أبوك وأمك...

فأجابت المخلوقة السوداء بصوت أشدّ إصراراً:

- إني لم أولد قط. ولم أعرف لي أباً وأماً أو أي شيء آخر. لقد رباني أحد المضاربين في البورصة مع كثير غيري من العبيد. وكانت العمة «سو» العجوز تعنى بنا كلنا.

- كم سنة عشت عند ذلك السيد؟

- لست أدري يا سيدتي، ولمَ كل هذه الأسئلة؟

- أعشت عندهم سنة أم أكثر أم أقل؟

- لست أدري يا سيدتي.

- ألا تعرفين من الذي خلقك؟

وضحكت الطفلة ضحكة مثيرة ثم قالت:

- لست أعلم أن أحداً قد خلقني.

الأناة: التروّي، التمهّل، الصبر.

وهنا بدا للآنسة أوفيليا أن تسألها عن أشياء أقرب إلى فهمها فقالت:

- هل تعرفين كيف تخيطين؟

- لا، يا سيدتي.

- ولكن ما الذي تعرفينه؟ ماذا كنت تصنعين عند سيدك وسيدتك؟

- كنت أحمل الماء وأغسل الصحون وأمسح السكاكين.

- وهل كانا يحسنان معاملتك؟

- أعتقد أنهما كانا طيبين معي.

وهنا حدجت السوداء الآنسة أوفيليا بعينيها الماكرتين.

* * *

وهكذا انصرفت الآنسة أوفيليا لتهذيب توپسي. فعلمتها، بادئ الأمر، ترتيب الغرف وتنسيق الأسرّة. وفيما كانت تشرح لها في اليوم الأول كيف تبسط الأغطية على الفراش بذوق وإحكام، غافلتها التلميذة الصغيرة واختطفت قفازين وشريطة حريرية وخبأتها جميعاً في وسطها.

- والآن يا توپسي. حاولي أن تعيدي عمل ذلك بنفسك.

وبعد أن قالت الآنسة أوفيليا هذا نزعت الأغطية عن الأسرة، وجلست لترى إلى أي حد ستنجح الصغيرة في درسها الأول.

وتقدمت توپسي بنشاط للقيام بالتجربة، فنالت بوجه عام رضا الآنسة أوفيليا؛ ولكنها لم تكد تفرغ من عملها حتى تدلى طرف الشريط من أسفل ردفها ما أغاظ أوفيليا فصاحت في وجهها بحدة:

إحكام: دقّة وإتقان.

- ما هذا؟ لقد سرقت الشريطة أيتها الطفلة الفاسدة الشريرة!

وسحبت الآنسة أوفيليا الشريطة من ردن توبسي من غير أن يعتري الجارية الصغيرة أي قلق أو اضطراب. لقد اكتفت بأن نظرت إليها بعينين تموران بالدهش والبراءة.

وقالت توبسي:

- ولكن هذه شريطة الآنسة فيلي. أليس كذلك؟ ما الذي أتى بها إلى ردفي؟

فصاحت أوفيليا:

- توبسي، لا تكذبي. فلقد سرقت الشريطة!

- سيدتي، أنا لم أسرقها. أنا لم أرها إلا في هذه الدقيقة.

- توبسي. كوني متأكدة أني سأجلدك لو بقيت مصرّة على ادعائك الكاذب.

ولكن الطفلة أصرّت على الإنكار، فأمسكت الآنسة أوفيليا بها وهزتها هزاً عنيفاً. وأخرجت هذه الهزة القفازين من الردف الآخر. فصاحت أوفيليا:

- انظري أيتها اللصة. وبعد هذا ما تزالين مصرّة على أنك لم تسرقي الشريطة؟!

واعترفت توبسي بسرقة القفازين؛ ولكنها أنكرت أن تكون قد سرقت الشريطة.

فقالت الآنسة أوفيليا:

يعتري: يصيب.

تموران: تتحركان، تزخران.

- والآن يا توبسي، إذا اعترفت بكل شيء فلن أعاقبك بالجلد هذه المرة.

فما كان من توبسي إلا أن اعترفت بكل شيء.

وهنا قالت أوفيليا:

- حسناً، أخبريني الآن هل سرقت شيئاً آخر، من قبل؟ أنا لن أجلدك إذا اعترفت.

- نعم يا سيدتي. لقد سرقت ذلك الطوق الأحمر الذي تضعه سيدتي الصغيرة في عنقها.

- أيتها الطفلة الشريرة! اذهبي وائتني به في الحال!

- لا أستطيع يا سيدتي فقد التهمته النيران.

- احترق! يا للقصة العجيبة حقاً! اذهبي واجلبيه وإلا جلدتك بالسوط! وانتحبت، وأعلنت أنها لا تستطيع لأنه احترق.

- ولكن لماذا حرقته؟

- لأنني شريرة. أنا لا أقوى على مقاومة الشر.

وفي تلك اللحظة دخلت إيفا إلى الغرفة، وفي جيدها عقد مرجاني جميل.

فقالت الآنسة أوفيليا:

- ولكن أين عثرت على عقدك يا إيفا؟

- أين عثرت عليه؟ إني لم أنزعه من عنقي طوال النهار!

جيدها: عنقها.

فسألت الآنسة أوفيليا:

- وهل كنت تلبسينه يوم أمس؟

- نعم. نعم يا عمتي. والمضحك أنه ظل في عنقي طوال الليل. فقد نسيت أن أخلعه عندما رقدت في سريري.

وأصاب الآنسة أوفيليا ذهول صارخ. ثم قالت في يأس:

- إني أعترف بعجزي عن فهم هذه الطفلة.

ثم التفتت إلى توبسي وقالت لها:

- لِمَ ادّعيت أيتها الشقية أنك سرقت العقد؟

فقالت توبسي وهي تفرك عينيها:

- لقد طلبت مني يا سيدتي أن أعترف. فلم أجد ما اعترف به، فقلت لك إني سرقت العقد.

فقالت أوفيليا:

- ولكني لم أكلفك أن تعترفي بأمور لم تفعليها طبعاً فذلك كذب محرَّم. أرجو ألا تعتادي اقترافه.

عندئذ التفتت إيفا إلى الطفلة السوداء وقالت:

- صارحيني يا توبسي. ما الذي يدفعك إلى ارتكاب السرقة؟ ثقي أنك ستجدين عندنا كل عناية واهتمام، ولا حاجة تدعوك لسرقة شيء. وإذا كنت تطمعين في أي شيء فإني على استعداد لأن أقدمه لك شريطة أن تقلعي عن هذه المهنة الفاسدة، السرقة!

وكانت تلك أول كلمة عطف سمعتها المسكينة طوال عمرها.

* * *

وخصَّت أوفيليا الساعات الطويلة لتعليم توبسي القراءة والخياطة. أما في الفن الأول فقد أبدت ذكاء نادراً واستعداداً غريباً لتعلّم الحروف، فما مضى عليها إلّا يسيرٌ من الزمن حتى أصبحت تحسن القراءة، وأما في فن الخياطة فلم تَرْقَ توبسي إلى مثل ذلك النجاح، ولعل مردّ ذلك إلى خفة حركاتها، فكانت دائمة الحركة كالقطة، نشيطة كالقردة، فلم تناسبها الخياطة، فمَقَتَتْها لأنها تجمّد من حركاتها وتكبت نشاطها.

وفي أيام الآحاد أخذت أوفيليا تعنى بتعليم توبسي تعاليم الدين المسيحي، فأظهرت الفتاة فطنة مدهشة، إذ كانت تحفظ ما تمليه عليها سيدتها بسرعة بالغة ما أهاب بالمعلمة إلى أن تُكثر من تلقين الفتاة تلك التعاليم.

وسألها سانت كلير ذات يوم:

- أية فائدة تتوقعين أن تجنيها هذه الطفلة من ذلك كله؟

فقالت الآنسة أوفيليا:

- التعاليم المسيحية هي أفضل ما ينبغي أن يلقنه الأطفال ليثبّوا على هدايتها. وهي تقدم لهم أكبر فائدة في حياتهم كلها.

فقال سانت كلير:

- سواء أفهموها أم لم يفهموها؟!

- إذا كان الأطفال يعجزون عن إدراك حقيقتها ساعة تلقينهم إياها فلسوف تتكشف لهم حقيقتها بعد أن يكبروا.

مقتتها: كرهتها، أبغضتها. أهاب: دعا.

هدايتها: إرشاداتها وتوجيهها الصحيح.

ومضت الآنسة أوفيليا في جدالها حول التثقيف الديني فاستطردت تقول:

- وهكذا تتعلم أن أبوينا آدم وحواء قد أفسدا الولاية التي رسمها الله لحياتهما عندما تُركا على إرادتهما الحرة، فأُخرجا من الفردوس مطرودَين.

فبرقت عينا توپسي، وارتسمت علامة استفهام كبيرة على محيّاها. فسألتها الآنسة أوفيليا:

- أتريدين أن تقولي شيئاً يا توپسي؟

- من فضلك يا سيدتي، هل كانت تلك الولاية كانتاكي!

- أية ولاية يا توپسي؟

- إن الولاية التي خسرها أبوانا هي ما أعني. وإني كثيراً ما سمعت مولاي القديم يروي لنا كيف تحدّرنا من ولاية كانتاكي.

فضحك سانت كلير حتى استلقى على قفاه ثم قال:

- ينبغي أن نعطيها معنى من المعاني، وإلا تخيلت هي ذلك المعنى. ألا ترين نظرية الهجرة التي أوحت بها؟

فزجرت الآنسة أوفيليا ابن عمها وقالت:

- وهل تراني أوفّق في تعليمها أصول الدين ما دمتَ تسخر من طريقتي وتهزأ بي على هذه الشاكلة؟

فوعدها سانت كلير بالتزام الصمت وانصرف إلى جريدته يتصفّحها.

محيّاها: وجهها.

الفصل الرابع عشر

كانتاكي

لا شك في أن القراء باتوا يتساءلون بشوق عما يمكن أن يكون قد حصل في كوخ العم توم في ولاية كانتاكي. لهذا يحسن بنا أن ننتقل بهم لحظة إلى ذلك الكوخ.

نحن الآن في يوم قائظ من أيام الصيف والوقت عند الظهر، وقد فتحت أبواب قصر آل شيلبي استدراراً للنسائم التي اختفت. وأصبح بود الجميع أن تلفحهم نسمة لتبعث فيهم المرح والبهجة.

وقالت السيدة شيلبي لزوجها:

- النبأ المهمّ اليوم هو أن كلو قد تلقت رسالة من توم!

- صحيح! يبدو أن توم قد وجد صديقاً هناك. كيف حاله؟

فأجابت السيدة شيلبي:

- لقد بيع لأسرة طيبة على ما يبدو. وهم يعاملونه معاملة حسنة.

فقال السيد شيلبي بتعجب:

- آه. حسناً إني سعيد بذلك. سعيد جداً. وأحسب أن توم سوف يعتاد حياته الجديدة في الجنوب فيزهد في العودة إلينا.

قائظ: شديد الحرّ. استدراراً: استحصالاً.

- بل إنه على نقيض ذلك، فهو يسأل زوجته بلهفة بالغة: متى تبعث إليه بالمال الضروري لافتدائه.

فقال السيد شيلبي:

- لست أدري ما أفعله بهذا الشأن! إن أموالي في تدهور مستمر.

- يتراءى لي يا عزيزي أن الوضع يتطلب منا أن نفعل شيئاً لإصلاح أحوالنا، فما قولك في أن نبيع جميع الخيول بل نبيع إحدى المزارع لنفي ديوننا المتراكمة؟

ولزمت السيدة شيلبي الصمت على مَضَض، فما كان يحزّ في نفسها هو أنها لا تستطيع أن تفي بوعدها لتوم وكلو وأن تفتدي توم لذا استطردت وقالت:

- ألا توافق معي أن في إمكاننا إيجاد وسيلة ما نجمع بواسطتها الفِدْية؟ مسكينة العمة كلو. إن مصيرها كله مرهون بهذه النتيجة وهي أن يعود إليها توم.

فأجابها زوجها بغصة:

- إني آسف أن ينتهي بنا الأمر إلى هذه النتيجة. وأعتقد أني تسرعت في إسماعها ذلك الوعد. والذي أراه أنه من الخير لنا ولها أن نصارحها بهذا الواقع المؤلم لتعتاده، وتوم زوجها سيضطر إلى الزواج من امرأة أخرى بعد سنة أو سنتين، كما أنه من الخير لها أن تبحث عن رجل غيره.

مضض: ألم.

- لذلك لا بد من أن نسرع في تدبير الفدية.

- ماذا تقولين؟ إنك تثيرين ضحكي. صحيح أنك أجمل امرأة في كانتاكي؛ ولكنك مع هذا لا تستطيعين أن تُلِمّي بالشؤون المالية. لا، إن النساء لا يمكنهن فَهْمُ مثل هذه الأمور.

- لقد صارحتك يا عزيزي بأني لا أستطيع أن أحنث بوعدي لهذين البائسين. وإذا لم نتمكن من جمع الفدية بطريقة ما من الطرق الممكنة، فإني سأضطر إلى تدريس الموسيقى لجمع المال اللازم لإنقاذ هذين الزوجين التعسين وجمع شملهما.

- وتذلين نفسك إلى هذا الحد؟ ثقي من أني لا أوافقك على شيء من هذا، ما دمت حياً.

- أذلّ نفسي؟ أليس في إخلالي بكلمة الشرف التي أعطيتها لتوم إذلالٌ لنفسي وروحي أكثر من إذلال التدريس الموسيقي؟

وهنا توقف الزوجان عن الحديث إذ ظهرت لهما كلو في آخر الشرفة.

- حسناً يا كلو، ماذا تريدين؟

قالت السيدة شيلبي ذلك، ونهضت من مكانها قاصدة كلو.

- أريد أن أسرّ إليك أمراً يا سيدتي.

- قولي ما عندك، أيتها العمة كلو.

- أرجوك يا سيدتي أن لا تتعبي أو يتعب مولاي من أجل جمع

أن تُلِمي: أن تعرفي.

لاحنث بوعدي: لا أفي بوعدي.

الفِدية، فبوسعكما أن تتجنبا ذلك إذا ما لجأتما إلى ما هو رهن أيديكما هنا.

وتضاحكت كلو تَضاحُكَ من يشكّ في وقع فكرته في نفس محدِّثه.

وقد خشيت السيدة شيلبي استناداً إلى ما تعرفه عن طباع كلو أن تكون العجوز قد سمعت كل كلمة من الحديث الذي دار بينها وبين زوجها فقالت:

- أنا لا أفهم ما تقصدين يا كلو.

وتضاحكت كلو مرة ثانية ثم قالت:

- ولمَ لا؟ فالأسياد الآخرون يؤجّرون عبيدهم ليجمعوا لهم المال الذي يصرفونه.

- حسناً يا كلو، فهل تقترحين علينا أن نؤجرك لأحد من الناس؟

- ليس ما أبديه اقتراحاً. وكل ما في الأمر أن سام أخبرني بأن في مدينة لويسڤيل بائعاً للحلوى يحتاج الى امرأة تحسن صنع الكعك والفطائر مقابل أن يدفع كل أسبوع أربعة دولارات.

- حسناً يا كلو... وماذا بعد ذلك؟

- إن ما أرمي إليه يا سيدتي هو أنه قد آن الأوان لتسليم سالي مهام أعمال المنزل، وأعتقد أنها تستطيع أن تنهض بإدارته مثلي تماماً، وأفضل. وهكذا أتمكن من الذهاب للعمل عند تاجر الحلويات. وبهذا أساعدك لجمع الفدية المطلوبة.

- ولكن... هل تريدين أن تفارقي أولادك يا كلو؟

- سيدتي. لقد كبر أولادي، وفي استطاعتهم أن يخدموا أنفسهم. ولسوف تعنى سالي بالطفلة الصغيرة فهي فتاة طيبة.

- ولكن لويسڤيل بعيدة جداً من هنا.

فقالت كلو:

- وأي بأس علي في ذلك؟ لعلّي أقترب من زوجي العجوز البعيد!

- لا يا كلو، ستكونين بعيدة عنه أكثر من مئة ميل.

فعجزت كلو عن الجواب.

فقالت مولاتها:

- لا بأس عليك يا كلو! فبإمكانك الذهاب إلى لويسڤيل حيث تكونين هناك قريبة منه على أيّة حال. ولسوف أدّخر لك كل فلس تحصلين عليه من أجورك لافتداء زوجك.

وكما تحيل أشعة الشمس الساطعة سحابة دكناء إلى لون الفضة كذلك أشرق وجه كلو الداكن وأضاء ثم قالت:

- أشكرك يا سيدتي، فأنت بالغة العطف. كنت أفكر في هذا منذ زمن طويل، واعلمي أني لن أحتاج إلى ثياب أو أحذية أو أي شيء آخر. ولذا سأدخر كل فلس من هذه الدولارات الأربعة. بربك يا مولاتي أخبريني كم أسبوعاً في السنة؟

فأجابتها السيدة شيلبي:

- في السنة اثنان وخمسون أسبوعاً يا كلو.

دكناء: سوداء.

- فإذا تقاضيت أربعة دولارات أسبوعياً فكم أجمع في العام؟

فقالت السيدة شيلبي:

- تجمعين آنئذ مئتين وثمانية دولارات في السنة.

وبدت على محيا كلو أمارات الدهشة والغبطة مختلطة

- وفي كم من السنين أستطيع أن أجمع قيمة الفدية يا سيدتي؟

- في أربع أو خمس سنين. ولكنك لن تضطري إلى العمل طوال هذه المدة، فلسوف أساعدك في دفع جزء من الفدية يا أختاه!

فقالت كلو:

- إني لا أوافق أن تعطي سيدتي دروساً في الموسيقى أو أن تفعلي شيئاً من هذا القبيل لمساعدتنا. إن مولاي على حق من دون شك.

- لا بأس علي يا كلو. ولكن قولي لي متى تنوين أن تذهبي؟

- حسناً. فأنا لا أتوقع. إنه مسافر إلى النهر مع بعض الفتيان، وإن في استطاعتي أن أرافقه. فإذا ما وافقت سيدتي، فإني مستعدة أن أصحب سام صباح الغد.

- وفيما كانت كلو في كوخها منهمكة في تصنيف ثياب طفلها، دخل عليها جورج ابن سيدها فبادرته بقولها:

- لعلك تجهل أني ذاهبة غداً إلى لويسفيل. إني ذاهبة إليها لأربح أربعة دولارات كل أسبوع. ستجمع لي مولاتي هذه الأجور لافتداء زوجي العجوز توم.

- ولكن مع من أنت ذاهبة؟

- مع سام. والآن، أيها السيد، أرجو ألا أزعجك إذا ما طلبت منك أن تكتب رسالة إلى توم تخبره فيها بكل ما ذكرته لك.

فقال جورج:

- من دون شك. إن العم توم سيكون سعيداً جداً بأن يتلقى رسالة منك. سأذهب الآن تؤًا إلى المنزل لأجلب الورق والحبر، وبعد ذلك أفرغ لكتابة الرسالة.

- طبعاً، طبعاً، أيها السيد الصغير. إذهب أنت إلى المنزل وساوافيك بقليل من لحم الدجاج أو بما تسدّ به رمقك. فأنت لن تتناول عشاءك بعد اليوم مع عمتك المسكينة كلو.

تؤًا: حالاً.

ساوافيك: سألاقيك.

الفصل الخامس عشر

«العشب يبيس والأزهار تذبل»

كما تمر بنا الحياة لاهية عابثة يوماً فيوماً وشهراً فشهراً، كذلك مرّت على صديقنا توم سنتان كاملتان وهو على حاله الجديدة. وعلى الرغم من أن الدهر فرّق بينه وبين من يُحبّ وما كان لديه غالياً وعزيزاً، وعلى الرغم من أنه كان كثيراً ما يَعِدُ نفسه بجمع الشمل وانكشاف تلك الغيوم السوداء من سماء حياته، نقول على الرغم من كل ما ناله من مساوئ ومتاعب، بقي محافظاً على روحه المعنوية العالية ومبادئه طوال تلك المدة.

ولعل الرسالة التي كتبها إليه جورج ابن مولاه القديم بالنيابة عن زوجته هي أفضل ما قوّى معنوياته، خاصة وأنه علم بعزم زوجته على العمل عند بائعي الحلوى في لويسفيل لافتدائه، وأن ولديه «مُوز» و«بيت» ناجحان في أعمالهما، وأن الطفلة الصغيرة تلاقي عناية فائقة من سالي وأفراد الأسرة جميعهم. وفهم توم من الرسالة أن كوخه الغالي قد أوصد مؤقتاً، وأن جورج صديقه ينوي تجديد أثاثه بعد أن يعود توم إليه في وقت قريب...

أوصد: أغلق.

والواقع أن أسلوب الرسالة كان موجزاً خالياً من الحشو والتعقيد. وقد فتنه إنشاؤها كأنه أفصح نموذج كتابي ظهر في العصر الحديث. فكان لا يملُّ تلاوتَها وتقليب النظر فيها. بل إنه قد أظهر رغبة أمام إيفا بأن الرسالة تستحق أن توضع في إطار وتعلق في حائط الغرفة. ولعلَّ ما منعه من تحقيق هذه الرغبة هو تعذّر تعليق الرسالة على نحو يبرز وجهي القرطاس في وقت واحد.

وفي تلك الأثناء انتقل سانت كلير إلى داره الواقعة على ضفاف بحيرة بونشارترين وبصحبة جميع أعضاء الأسرة والخدم. وذلك بسبب قيظ الصيف الذي اضطر جميع من يستطيعون مغادرة المدينة الضيقة الأنفاس غير الصحية إلى طلب الراحة والهدوء والنسيم العليل عند شواطئ البحيرة.

وكان منزل سانت كلير هناك شبهَ فندق صغير على النمط المألوف في جزر الهند الشرقية، محاطًا بِشُرَفٍ من الخيزران، ومطلًا من جهاته الأربع على حدائق وملاعب جميلة واسعة. وكانت غرفة الجلوس العامة تطل على حديقة كبيرة تفوح أزهارها ونباتاتها بأطيب عبير.

ها هي الشمس تشرف على الغروب فتضرم في الأفق كله شعلة ذهبية لا نهاية لها، وتُحيل الماء إلى سماء جديدة. وها هي البحيرة ملونة ومخططة الجوانب بألوان وردية حيناً وذهبية حيناً آخر، ما خلا

القرطاس: الورقة.
تضرم: تشعل.
القيظ: الحرّ.

ما يبدو من المراكب السوداء التي تتهادى على سطح البحيرة هنا وهناك. والنجوم المتلألئة الصغيرة تتوهج في قبة السماء كما تتراءى للعين مرتجفة واجفة في أعماق الماء.

وكان توم وإيڤا في تلك الأثناء جالسين في ظل إحدى عرائش العنب في آخر الحديقة في أمسية من أمسيات الأحد. وكانت إيڤا تمسك بيديها الكتاب المقدس فأخذت تقرأ فيه هذه العبارة: «ورأيت بحراً من زجاج يمتزج بالنار».

وفجأة كَفَّت عن القراءة وأومأت بإصبعها إلى البحيرة قائلة:

- توم... إنه هناك!

- وما ذاك يا آنسة إيڤا؟

فقالت الطفلة مشيرة إلى المياه شبه الزجاجية التي كانت تعكس في ارتفاعها وانخفاضها وهج السماء الذهبي:

- ألا ترى؟ هناك. إن ثمة بحراً من زجاج يمتزج بالنار.

فقال توم:

- صدقت يا آنسة إيڤا.

وأنشد:

«لو كانت لي أجنحة الصباح

إذاً لَطِرْتُ إلى سواحل كنعان

إن الملائكة الطاهرة قادرة أن تحملني

إلى بيت المقدس الجديد».

واجفة: مضطربة.

وتساءلت إيڤا:

- أين تقع هذه البلاد يا توم؟

- أوه، هناك وسط السحب.

فقالت إيڤا:

- إذاً أعتقد أني أراها. أنظر إلى هذه السحب. إنها تبدو أشبه بأبواب ضخمة من لؤلؤ. ثم انظر إلى ما وراءها. بعيداً بعيداً، إنه ذهبٌ كله. توم! رتِّلْ ترنيمة الأرواح المشرقة.

وأنشد توم الترنيمة التي مطلعها:

«إني أرى طغمة الملائكة تنعم بالمجد هناك».

فقالت إيڤا:

- لقد رأيتها أيها العم توم!

لم يشك توم في كلام الفتاة، ولم يدهشه قولها ذاك أبداً، حتى إنها لو أخبرته آنئذ أنها رأت الجنة أو أنها تعيش في وسطها، لما رأى في كلامها إلا الصدق المحض.

- إنها تزورني أحياناً وأنا نائمة... هذه الملائكة!

قالت إيڤا ذلك وهمست بصوت منخفض:

- إني أرى طيف الملائكة.

ثم استطردت:

- يا عم توم، إني ذاهبة إلى هناك.

السُحب: الغيوم.

المحض: الصافي، الخالص.

طغمة: جماعة شأنهم واحد.

MAKTBA.COM/VB3

-إلى أين يا آنسة إيڤا؟

ونهضت الفتاة وأومأت بيدها الصغيرة إلى السماء. وكان وهج السماء يخلع على شعرها الذهبي وخدها المتورد لوناً من الإشعاع السماوي، وكانت عيناها عالقتين بالأعالي وقالت:

-إني ذاهبة إلى هناك، إلى الأرواح، إلى الملائكة الطاهرة. توم، إني ذاهبة بعد فترة غير طويلة من الزمان...

عند كلام إيڤا، أحسّ توم العجوز كأن طعنة نَجْلاء أصابت صميم قلبه، فشرد ذهنه وتذكر معاملة تلك الطفلة له خلال الأشهر الستة الأخيرة، وبدا له بوضوح أن يدي إيڤا الصغيرتين آخذتان في الضمور والهزال، وأن أنفاسها بدأت تتقاصر، فهي إذا عَدَتْ مسافة يسيرة في الحديقة يقعدها الجهد والتعب. وقد كانت من قبل تقفز وتثب الساعات الطويلة من دون أن تشعر بتعب. إنه يتذكر أقوال الآنسة أوفيليا عن سعال تعجز جميع الأدوية عن شفائه. إن كل هذا يؤلمه ويُدمي فؤاده.

وفي تلك اللحظة لم يستطع توم أن يفهم مغزى كلام إيڤا إذ تحدثت عن السماء والأرواح العلوية لأنه كان يلحظ تورد خديها فيظنه صحة في حين أنه تورد خدود المصدورين.

وقطع حديث الصديقين نداء متعاقب أرسلته الآنسة أوفيليا حين قالت:

نجلاء: واسعة.
متعاقب: متلاحق، متتابع.
المصدورين: المصابين بداء السل.

-إن الندى يهبط على الأرض، فعليك ألا تبقي خارجاً تحت السماء.

فأسرعت إيڤا وتوم إلى الدار تلبية لرغبة الآنسة أوفيليا.

* * *

كانت الآنسة أوفيليا تتقن فن التمريض، لذا لم يكن خافياً عليها العلامات التي تشير إلى وجود ذلك الداء الخبيث الهادئ الذي يُزهق الحياة رويداً رويداً من صدور الكثيرين ممن يكونون ألطف الناس وأجملهم وأرقهم عوداً. فقد لاحظت سعال إيڤا الجاف وذلك الإشراق غير الطبيعي الذي يبدو في خديها، فحدثت سانت كلير عن مخاوفها على إيڤا، وأبدت قلقها على صحتها خوفاً من أن تكون مصدورة، فكان سانت كلير ينتهرها بقوله:

- إني أمقت التشاؤم، فلا تُكثري منه أرجوك. وإذا كنت تخشين على صحة إيڤا فعليك أن تدركي أنها تنمو نمواً سريعاً، والأطفال يفقدون ضخامتهم عندما يكبرون بسرعة.

- ولكنها تعاني ذلك السعال، أجابت أوفيليا.

- آه! هذا هراء. إن ذلك السعال ليس بشيء هام عندما تكون مصابة بالزكام!

بهذا أجاب سانت كلير محدثته؛ ولكن الوساوس أخذت تلازمه على صحة فتاته، منذ ذلك الحين، فصار يراقب إيڤا مراقبة لاهية ويتفحص حركاتها وسكناتها لحظة لحظة. وأخذ يلازمها أكثر من ذي

أمقت: أكره.

قبل، ويصطحبها معه في النزهات، ويوافيها من وقت إلى آخر بالوصفات الطبية وبالأدوية المقوّية لا بحجة أن الفتاة تحتاج إليها، بل خوفاً من أن تحتاج إليها، وأنها تفيد ولا ضرر فيها.

وإن ما كان يبعث الألم في نفسه ويحز قلبه هو نضوج ابنته المطّرد وخاصة في عقلية الفتاة ومشاعرها. إذ إنها كثيراً ما كانت تتفوّه عن غير قصد منها بعبارات قوية المغزى أو تنطق بحكم رقيقة تفوق مداركها وكأنها موحاة إليها.

وكان سانت كلير يحس أحياناً برعشات مفاجئة تنبعث من جسم الفتاة فيشدها إلى صدره.

وكأنه كان يتخيل أن باستطاعة هذه الشدة العاطفية أن تشفيها من ألمها فيخفق قلبه بقوة، ويعمل للاحتفاظ بتلك الشدة آملاً في ألّا تفلت من بين يديه كعصفور يحاول الطيران.

وكانت الطفلة تنمو وينمو معها حب الخير، فكانت تحيا لتقوم بالأعمال الكريمة بقلب مفعم بالطيبة والصلاح. ولكن لاحظ أبوها أن الفتاة تتعرض لتفتح عواطف الأنوثة الواعية في قلبها، ذلك لأنها كانت تلعب سابقاً مع توپسي وسائر الأطفال الملوّنين، ثم آثرت في الأيام الأخيرة أن تنظر إليهم يلعبون من دون أن تشاركهم في لعبهم ومرحهم. وقد كانت تفضل أن تشاهد توپسي وهي تلعب على الحبل دقائق طويلة فتضحك لها، ثم فجأة يكفهر وجهها وتدمع عيناها وتسرح أفكارها في المجهول بعيداً بعيداً...

وذات يوم قالت لأمها فجأة:

تتفوّه: تتكلّم.

الملوّنين: يقصد السود البشرة.

- ماما. لماذا لا نعلّم خدمنا القراءة والكتابة؟

- سؤال غريب حقاً. إن الناس لم يتعودوا ذلك.

فقالت إيڤا:

- ولكنهم يجب أن يقرأوا الكتاب المقدس ليفهموا تعاليم الله.

فأجابتها أمها في شيء من الضيق:

- إن في استطاعتهم أن يستمعوا إلى آيات الكتاب تُتلى عليهم عند الحاجة، فيتعلمونها.

- ولكن يبدو لي يا ماما أن على كل إنسان أن يقرأ الكتاب المقدس كي يستوعب أقواله.

فقالت أمها:

- إيڤا أنت طفلة غريبة الأطوار حقاً!

فأردفت إيڤا بحديثها وقالت:

- لقد علمت الآنسة اوفيليا توپسي القراءة يا أماه!

- نعم، ولكن قولي لي إلى أي حد نفع تعليم القراءة توپسي هذه، فهي أسوأ مخلوق بشري عرفته.

واستمرت إيڤا في حديثها وقالت:

- إليك يا أمي المسكينة مثلاً، فإنها تحب الكتاب المقدس كثيراً، وتتمنى لو تستطيع أن تقرأ فيه. فما عساها تفعل وهي لا تتمكن من أن تقرأه؟

- حسناً يا ابنتي. ما عليك من هذه الأفكار المقلقة، أبعديها عن رأسك الجميل. وعما قريب ستشغلك الحياة عن مثل هذه الأفكار

تُتلى: تقرأ.

المزعجة لتنصرفي إلى إقامة الحفلات الصاخبة والملابس الأنيقة. وإليك الآن هذه الجواهر الثمينة، فإني أقدمها لك لتلبسيها في الأعياد والحفلات العامة. لقد لبستها في أول حفلة راقصة شهدتها. وبوسعي أن أصارحك فقد جعلتني قِبْلَة الأنظار طوال الحفلة.

وتناولت إيڤا علبة الجواهر، وأخرجت منها عقداً ماسياً. لقد علقت عيناها الواسعتان اللامعتان بالعقد. ولكن كان واضحاً أن أفكارها كانت منصرفة إلى موضوع آخر.

وقالت ماري:

ـ شدّ ما تبدين رزينة يا إيڤا.

وتساءلت إيڤا:

ـ هل يساوي هذا العقد مالاً كثيراً يا أماه؟

ـ لا شك في ذلك، فقد جلبه لي والدك من فرنسا وهو يساوي ثروة طائلة!

ـ ليتني أملك هذا العقد!

ـ وما تفعلين به لو ملكته؟

ـ أفضّل أن أبيعه لأبتاع بثمنه نزلاً لنا في إحدى الولايات التي تعتنق مبدأ الحرية، وأنقل إليه جميع خدمنا، ثم أستأجر لهم مدرّسين يعلمونهم القراءة والكتابة.

وضحكت الأم حتى استلقت على قفاها.

شهدتها: حضرتها.
نزلاً: فندقاً.
قِبْلَة: محطّ.

الفصل السادس عشر

هانريك

في هذه الحقبة من الزمن قدم من المدينة ألفرد شقيق سانت كلير مصطحباً معه نجله الأكبر هانريك ليقضيا يومين على ضفاف البحيرة مع الأسرة.

وكان هانريك فتى جميل المنظر في الثامنة عشرة من العمر، أسود العينين، تبدو عليه مظاهر النبل والغنى، وكان وجهه يفيض حيوية ونشاطاً، فما إن رأى ابنة عمه حتى فتنته برقتها الزائدة وجمالها الفتان!

وكان لإيڤا مهر صغير أبيض اللون كالثلج، ضامر الجسم كصاحبته. ولما عزم هانريك وإيڤا أن يقوما بنزهة قصيرة أعدّ توم مهر إيڤا وقاده إلى الساحة الخلفية. بينما أعدَّ فتى خلاسي له من العمر ثلاثة عشر عاماً مهراً عربياً أسود اللون، كان قد اشتراه والد هانريك مؤخراً بثمن باهظ ليقدمه لابنه هانريك.

وحين تقدم هانريك إلى مهره الصغير ليمسك بزمامه ألقى نظرة فاحصة عليه، واكفهر وجهه ثم خاطب الفتى الخلاسي:

ـ ما هذا أيها الكلب الكسول؟! إنك لم تنظف حصاني صباح اليوم!

فقال «دودو» الخلاسي المسكين:

- بلى يا مولاي. ولكنه غيّر نفسه بنفسه.

فصاح هانريك رافعاً سوطه:

- اخرس. كيف تجرؤ على الكلام؟

- سيدي هانريك...

وجلده هانريك على وجهه بالسوط بقوة، ثم أمسك بإحدى ذراعيه وأجبره على الركوع، وشرع يضربه حتى تقطعت منه الأنفاس.

- إن هذا الدرس يعلّمك أن لا تجيب عندما أكلمك! أيها الكلب الوقح، أرجع المهر إلى الأسطبل ونظّفه جيداً. ولسوف أضعك في المكان الذي تستحقه.

وحاول توم أن يعلّل مسلك الغلام فصرخ هانريك في وجهه:

- وأنت أمسك لسانك إلى أن يُطلب منك الكلام.

ثم تقدم إلى إيفا وكانت واقفة غير بعيدة وقال:

- آسف يا ابنة عمي العزيزة أن يؤخرنا عن النزهة ذلك الأبله النخاسي اللعين. فلنجلس هنا قليلاً على المقعد ريثما يعود... ولكن ما بالك يا إيفا؟ يبدو لي أنك كئيبة كاسفة اللون فما اعتراك؟

- كيف تستطيع أن تقسو على دودو هذه القسوة الوحشية؟ قالت إيفا هذا والغضب بادٍ على وجهها.

- قسوة وحشية؟ ماذا تعنين يا إيفا العزيزة؟

كاسفة اللون: متغيرة اللون من مرض أو حزن.

- لست أرضى أن تدعوني إيفا العزيزة حين تفعل هذه الأعمال المنكرة!

فقال هانريك:

- لا، يظهر أنك مهتمة كثيراً بدودو هذا. وإني حقاً أحسده على هذا الاهتمام الذي يناله منك.

- ولكنك ضربته من دون أن يستحق الضرب.

- حسناً. أعدك بأن لا أضربه أمامك بعد اليوم إذا كان في ضربه إزعاجٌ لك.

ولكن وعد ابن عمها الجميل لم يقنعها، ورأت من العبث بل من المستحيل أن تحمل هانريك على فهم عواطفها ومشاعرها النبيلة.

وما هي إلا فترة حتى أقبل دودو ومعه المهر.

فقال هانريك كلمة لا تخلو من الرفق:

- حسناً يا دودو. لقد أحسنت صنعاً هذه المرة، تعال الآن وأمسك حصان الآنسة إيفا ريثما أرفعها إلى متنه.

* * *

وكان سانت كلير وأخوه ألفرد قد شهدا حادث جلد «دودو» بالسوط وهما في ناحية أخرى من الحديقة.

قال سانت كلير:

- أحسب يا ألفرد، أن هذا ما ندعوه التربية الجمهورية المتساوية، التي تنادي بأن جميع الناس ولدوا أحراراً ومتساوين في الحقوق.

- ذلك أحد مبادئ جيفرسون المضحكة يا أخي. ومن العجيب أنها ما تزال تلقى استئناساً من بعض النفوس حتى اليوم.

فقال سانت كلير بشيء من السخرية:

- أعتقد ذلك.

- ألا تعتقد معي يا أوغسطين أن جميع الناس لم يولدوا أحراراً كما أنهم لم يخلقوا متساوين في الحقوق والواجبات. وإني أصارحك بأن معظم هذا الكلام هراء محض، وأن الذين يستحقون أن يتمتعوا بالحرية والمساواة هم المثقفون والأغنياء لا السوقة الرعاع.

- لكن السوقة الرعاع كان لهم يومهم المشهود الرائع في فرنسا...

- أنا لا أخشى ثورة السوقة والرعاع عندنا... إن يدهم ستظل هي السفلى في بلادنا.

فقال سانت كلير:

- هذا صحيح، ولكن البخار خليق أن ينفجر إذا ما أحكمتَ سَدَّ صمام الأمان.

- وهذه إحدى مضحكاتك الديموقراطية، يا أوغسطين. وإني ألاحظ أنك تستطيع أن تكون خطيباً جماهيرياً ممتازاً. لم لا تجرب حظك في هذا الميدان؟ أما أنا فإني أفضل الموت قبل أن أرى ذلك العهد المقيت الذي تنتقل فيه مقاليد الحكم إلى جماهيرك القذرة...

- قذرة أو غير قذرة. إنها سوف تحكمكم عندما يأتي دورها.

السوقة: عامة الناس.

ولسوف تكون في حكمها على الصورة التي تريدونها لها. إن نبلاء فرنسا قبل الثورة فضلوا أن يجعلوا من شعبهم مواطنين بلا سراويل كما يلبس النبلاء، فكان أن أصبحوا في ما بعد يخضعون لحكم أبناء هذه الطبقة نفسها...

وهنا بدت إيفا وهانريك على فرسيهما من بعيد، فقطع سانت كلير حديثه ونهض قائلاً:

- انظر يا ألفرد! هل رأيت قط منظراً أجمل من هذا؟

كان المشهد جميلاً حقاً. فقد كان هانريك يعتلي حصانه وجبهته العالية تدل على جَسارته، وشعره الفاحم الناعم وتورُّدُ وجنتيه يدلان على نشاطه وقوته. وكان يضحك بطرب وبهجة وهو يلتفت نحو ابنة عمه الجميلة فيما كانا يتقدمان في سيرهما. وكانت إيفا ترتدي ثوباً فروسياً أزرق اللون وتعتمر قبعة من اللون نفسه. وكان الطقس والنشاط الخارجي قد صبغا خديها بلون زاهٍ زادها جمالاً فضلاً عن لون بشرتها الشقراء وشعرها الذهبي.

فصاح ألفرد:

- يا للسماء! ما هذا الجمال الذي يخلب ويذهل! ناشدتك الله، ألا ترى معي أنها سوف تقتل أكثر القلوب في يوم من الأيام؟

- أخشى أن يكون هذا صحيحاً...

قال سانت كلير ذلك في جِرْسٍ تشوبه مرارة مفاجئة، ثم أسرع ليساعد ابنته على الترجّل.

الجسارة: الجرأة.

جرس: نغمة.

يخلب: يسحر.

تشوبه: تخالطه.

وقال وهو يطوقها بذراعيه ويضمها إلى صدره.

- إيفا، عزيزتي، أنت لست تعبة جداً؟

فأجابت الفتاة:

- لا، يا بابا.

ولكن لهاثها المتواصل أقلق بال والدها.

- ما كان عليك أن تتركي الحصان يعدو بك بهذه السرعة الشديدة يا عزيزتي، فأنت تعلمين أن ذلك يضر بصحتك.

- لقد شعرت بنشاط يا بابا. وكنت سعيدة جداً. لقد نسيت.

وحمل سانت كلير ابنته إلى المنزل ومددها على إحدى الأرائك، ثم التفت إلى هانريك وقال:

- هانريك. ينبغي أن تنتبه لإيفا جيداً، وأن لا تعدو بفرسك بهذه السرعة حين تكون في رفقتك.

فقال هانريك:

- سوف أتعهدها بعنايتي يا عمّاه!

وجلس على الأريكة وأمسك يد إيفا وأخذ يداعبها بلطف. وما هي إلا فترة حتى عاود إيفا النشاط، فاستأنف أبوها وعمها نزهتهما، وتركا الولدين الجميلين يهتمان واحدهما بالآخر.

الفصل السابع عشر

الأيام الأخيرة

وقع ألفرد أخاه أوغسطين وعائلته بعد يومين اثنين. وبدأت صحة إيفا إثر ذلك تتقهقر، فقد بذلت مجهوداً فائقاً ونشاطاً لا طاقة لها على بذله مسايرة لابن عمها وتلبية لمتطلباته، فقرر سانت كلير أخيراً أن يستشير الطبيب، الشيء الذي كان يتجنب عمله كي لا يصبح الشك حقيقة يعرفها.

ولم تلاحظ ماري تقهقر صحة ابنتها لانشغالها دائماً بصحتها هي. وكثيراً ما حاولت أوفيليا أن توقظ فيها مثل تلك المخاوف ولكن عبثاً.

كانت تقول دائماً:

- أنا لا أرى أن الفتاة تشكو ألماً ما. إنها تعدو وتلعب كالأطفال الأصحّاء!

فتجيبها الآنسة أوفيليا:

- ولكنها تسعل!

- وما في السعال من خوف. فقد قضيتُ سحابة عمري وأنا

مصابة بالسعال. وعندما كنت في عمر إيڤا خشوا علي من الموت. وكانت مامي تسهر إلى جانبي الليل بطوله. أوه، إن سعال إيڤا ليس شيئاً خطراً.

- ولكنها سائرة في طريق الهزال. وأنفاسها تقصر وتنقطع.

- لا خوف عليها. فقد عرفتُ ذلك سنوات وسنوات!

- ولكنها تسبح في عرقها أثناء الليل.

- حسناً. لقد كان جسمي يتبلل عرقاً طوال هذه السنوات العشر. وكثيراً ما كنت أنهض من فراشي وثيابي تقطر عرقاً... لا، ليس العرق الذي يرشح من جسم إيڤا شيئاً بالقياس إلى ذلك الذي كان يرشح من جسدي!

وكانت الآنسة أوفيليا تضطر في كل مرة للاعتصام بالصمت والصبر. أما الآن وقد بدا واضحاً أن صحة إيڤا في تدهور مستمر وأن والدها استدعى الطبيب لمعالجتها، فقد اتخذت ماري فجأة موقفاً آخر يختلف تماماً عن ذي قبل، فقالت ذات يوم:

- ما كنت أشك مطلقاً بأني أتعس الأمهات وأن الأيام قَدَّرَت لي أن أكون عليلة الجسم، ثم ابتلاني القدر بمرض ابنتي الوحيدة. وها إنّي أراها تمشي بخطى كبيرة إلى القبر، فما عساي أن أفعل؟!

فقال سانت كلير:

- عزيزتي ماري. لا تتكلمي هكذا. يجب ألا تقطعي الرجاء على هذا القَدَر المتشائم.

- أنت لا تحس إحساس الأم يا سانت كلير. أنت لن تفهمني في يوم من الأيام.

- ولكن ما عليك أن تتكلمي هكذا وكأننا إزاء مصيبة حتمية.

- لا يمكنني يا سانت كلير أن أنظر إلى الأمور نظرة لا مبالاة كما تنظر إليها أنت. فإذا ما كنت لا تُقرُّ بشيء من المخاوف، وابنتك الوحيدة تعاني قساوة الألم والمرض المفجع، فإني على النقيض من ذلك أحس بأشياء قاتلة تفتّت كبدي. إنها ناجعة لا أقوى على احتمالها لاسيما إذا أضيفت إلى الفواجع الأخرى التي أصابتني حتى الآن!

وخلال أسبوع أو أسبوعين تحسنت صحة إيڤا تحسناً واضحاً. كان على ما يظهر تحسناً خادعاً هو أشبه بالسكون الذي يسبق العاصفة، ومظهراً كاذباً كثيراً ما يتخذه ذلك الداء اللعين وسيلة لإلهاء القلوب المفجوعة حتى في الساعات الأخيرة. فأخذ الجميع يتمتعون بمشاهدة إيڤا الرفيقة تلعب في الحديقة وعلى الشُّرَفِ، وعاد إليها إشراقها وضحكها كما عادت إلى لعبها وتسليتها، فاستبشر والدها بهذا التحسن كما استبشر به جميع من كانوا يقيمون في ذلك القصر الجميل، ما عدا الآنسة أوفيليا وطبيب إيڤا اللذين لم ينخدعا بهذه الهدية المؤقتة الوهمية، كما كان هنالك قلب آخر لا يمكن أن يصل إليه الخداع هو قلب إيڤا الصغير. استقر في ذلك القلب الطاهر إيمان نبوي بأن الجنة أصبحت قريبة منها، فكان قلبها الصغير هادئاً لهذه النبوّة، وادعاً لطيفاً كسكون الخريف لا يزعجه في تفكيره وأحاسيسه سوى مصير أولئك الذين أحبهم ويحبونه حباً جمًّا.

لقد كانت إيڤا شديدة الحزن لفراق والدها وأمها وخدمها الأوفياء

النقيض: الضدّ.

جمًّا: كثيراً.

أكثر مما كانت شديدة الحزن على مفارقتها هذه الحياة. وسمعها توم ذات يوم تقول وهي تقرأ عليه بعض آيات الكتاب المقدس:

- الآن فهمت لماذا أحب يسوع أن يموت من أجلنا.

- وكيف علمت ذلك يا آنسة إيفا؟

- لأنني شعرت بالشعور نفسه أيضاً.

فتساءل العجوز:

- ماذا تقولين يا آنسة إيفا؟ لا أفهم قصدك.

- قد لا أقوى على إفهامك قصدي، ولكني أخبرك أنه عندما رأيت تلك الأكوام البشرية على ظهر السفينة، إن كنت تذكر، وقد فُصلت الأمهات عن الأبناء، وأُبعد الأزواج عن الزوجات، وبكت الأمهات على أطفالهن الصغار، وضجَّ الأزواج لما يلاقونه من ظلم، وخاصة عندما سمعت خبر بِرو التعسة والمآسي الشبيهة بها، شعرت بأني أستحق أن أكون سعيدة في موتي، لا سيما إذا كان موتي يساعد على إنقاذ هؤلاء المظلومين ويُبعد عنهم الشقاء.

وأمعن توم النظر في وجه الطفلة بقلق، حتى إذا انطلقت لتلبية نداء والدها دمعت عيناه غير مرة، بينما كان يشيّعها بنظراته الشاردة الحزينة!

وصعدت إيفا درجات السلم المؤدي إلى الشرفة لتمثُل بين يدي أبيها، وكان ذلك في ساعة من ساعات النهار المتأخرة، وكانت أشعة

يشيّعها: يرافقها. لتمثل: لتحضر.

الشمس الذهبية تضفر إكليلاً من المجد وراءها، وهي ترتقي الدرج بردائها الأبيض وشعرها الذهبي.

وقد لمعت عيناها ببريق غريب بتأثير من الحمى البطيئة المنبثَّة في عروقها. وقد استدعى سانت كلير ابنته ليقدم لها تمثالاً صغيراً كان قد اشتراه لها؛ ولكنه ذعر عندما شاهدها تتقدم نحوه، فقد أثار مظهرها في نفسه ألماً دفيناً. كيف يكون هذا الجمال الباهر الصارخ عرضة لأنياب المرض؟! وعند وصولها إليه طوّقها بذراعيه وكاد ينسى الغرض الذي طلبها من أجله.

- إيفا، عزيزتي، أنت أحسن حالاً اليوم، أليس كذلك؟

فقالت إيفا في عزم طارئ:

- بابا. لدي أشياء كثيرة أحب أن أقولها لك قبل أن يزداد ضعفي!

وارتعد سانت كلير، عندما رأى ابنته تجلس في حضنه، ثم أسندت رأسها إلى صدره وقالت:

- لا فائدة من كتمان الحقيقة بعد اليوم، يا بابا. فقد اقترب الوقت الذي سأودعكم فيه. إني ذاهبة عنكم ولن أعود إليكم من جديد.

وأجهشت بالبكاء.

فقال سانت كلير وهو يرتجف ولكنه تصنَّع السرور:

- لا. لا يا عزيزتي إيفا. هدئي أعصابك. ولا تسمحي لمثل

ترتقي: تصعد. تصنَّع السرور: تظاهر بالسرور.

هذه الأفكار السوداء أن تسيطر عليك. أنظري. لقد اشتريت لك تمثالاً صغيراً.

- لا، لا تخدع نفسك يا بابا. وأخذت التمثال ووضعته جانباً ثم استطردت تقول: إن حالي اليوم أفضل مما كنت عليه سابقاً. إني أعرف هذا جيداً، وأعرف أني راحلة عنكم بعد قليل. كن واثقاً، يا أبي، أني لست عصبية ولست جَزِعة. ولولا مفارقتك ومفارقة أصدقائي لكنت في منتهى السعادة. أريد أن أذهب. أنا مشتاقة إلى الذهاب.

- أنت حزينة النفس يا إيفا. وإن مشهدك على هذا الوضع يوقع الرعب في قلبي. هل يحزنك شيء خاص يا إيفا؟

- آه، نعم. هذا ما أعنيه بالضبط. ولعل ما يحزنني هو ما يجري كل يوم في بلادي. إني أتألم لمصير هؤلاء البائسين الذين يحبونني كل هذا الحب، والذين يحتفون بي كل هذا الاحتفاء ويحسنون إلي. كم أتمنى يا بابا لو يصبحون كلهم أحراراً!

- ولكن ألا تظنين يا إيفا أننا نعاملهم هنا أحسن معاملة؟

- حقاً يا بابا. ولكن ماذا يصيب أولئك المخلوقات من الذل لو حدث لك شيء لا قدر الله. فالأناس الطيبون أمثالك نادرون جداً. عمي ألفرد وابنه وكذلك أمي ليسوا مثلك رأفة وحناناً. ثم فكّر في أولئك الذين كانوا يمتلكون «بِرو» المسكينة، فما أفظع الآلام التي يرتكبها البشر!

قالت إيفا ذلك وارتعشت أوصالها.

- أنت حساسة أكثر من اللازم، يا طفلتي العزيزة. وإني آسف لسماحي لك بالاستماع إلى هذه القصص المثيرة.

- أوه، هذا ما يزعجني حقاً وما يقلقني يا والدي. إنك تحب أن أحيا سعيدة وأن لا أشعر بألم ما، وأن لا أسمع أيّة قصة مثيرة ومؤثرة، في حين أن الآخرين ليس لديهم سوى الآلام والهموم يتجرعونها طوال حياتهم. وهذا منتهى الأنانية يا بابا! علي أن أعرف حقيقة هذه الأمور وأن أحسها. إن هذه المظالم تفطر قلبي أسى. وكثيراً ما خطر في بالي أن أسعى لتحرير العبيد. بابا أليس من وسيلة لتحرير هؤلاء المنكودي الحظ جميعهم دفعة واحدة؟

- هذه قضية صعبة الحل يا حبيبتي. وليس من شك في أن استعباد الناس عادة اجتماعية سيئة جداً، وهنالك كثير من الناس يؤمنون بمثل ما تؤمنين، وأنا أحد أولئك الضاجين من الرق، وكم أتمنى من صميم قلبي أن لا يكون على أرضنا رقيق واحد، ولكن لا أعرف ما علي أن أفعله للتخلص من هذه المذلّة البشرية!

- إنك رجل نبيل وطيب القلب يا بابا، ألا يكون بوسعك أن تتجول في طول البلاد وعرضها محاولاً إقناع الناس برفع الظلم عن تلك الطبقة البائسة؟

أعتقد جازمة أنك ستفكر بهذا بعد أن أغيب عن هذه الدنيا، ولسوف تفعل شيئاً من هذا القبيل حتى بعد موتي. كم كنت أتمنى لو يتسنى لي القيام بهذا العمل الشريف بنفسي، ولكن الحياة لن تتيح لي ذلك!

يتجرعونها: يبلعونها.
المنكودي: السيئي.
تفطر: تشقّق.
الضاجين: الصائحين من مشقّة.

فأجابها سانت كلير بصوت تخنقه العبرات:

- ماذا تقولين يا إيفا؟ عندما تموتين؟ أرجوك يا فتاتي بألا تتكلمي هكذا، فأنت كل ما أعطاني الله في الوجود.

- وكانت پرو لا تملك في الوجود إلا طفلها، ومع ذلك فقد قدر لها أن تسمعه يبكي وينتحب من دون أن تقوى على مساعدته. ثق يا بابا أن أولئك المساكين اليائسين يحبون أولادهم بقدر ما تحبني أنت. آه! أرجوك أن تصنع شيئاً لإنقاذهم. ومامي المسكينة تحب أولادها أيضاً. ومن الفظيع حقاً يا بابا أن تقع هذه الأشياء تحت سمعنا وبصرنا ثم لا نحرّك ساكناً لإزالتها.

- كفى. كفى يا حبيبتي، فأنت تزعجين نفسك بأمور غريبة عنك. هيّا عِديني بألّا تفكري ولا تتحدثي عن الموت. وسأفعل من أجلك ما ترغبين أن تفعليه أنت.

- عدني يا والدي بأن يتمتع توم بكامل حريته قبل...

قالت ذلك ثم سكتت لحظة، لتردف بصوت متردد:

- ... أن أكون قد غادرت هذا العالم.

- أجل يا عزيزتي، سوف أعمل كل شيء، كل ما تطلبين أن أعمله.

وهنا وضعت الطفلة خدها الملتهب على خد والدها وقالت:

- بابا، حبيبي، جُلُّ ما أتمنى لو نذهب كلانا معاً.

جُلُّ: أكثر.

فسألها سانت كلير:

- إلى أين يا عزيزتي؟

- إلى حيث يقيم مخلصنا يسوع المسيح، إنه لموطن جميل آمن. ألا تريد أن تذهب إلى هناك يا بابا؟

وشدّها سانت كلير إلى صدره؛ ولكنه ظل صامتاً. فقالت الطفلة بلهجة واثقة:

- سوف تأتي إليّ يا بابا.

- سوف ألحق بك يا بابا ولن أنساك.

الفصل الثامن عشر

الموت

اختفت أمارات الصحة الخادعة التي بدت على محيا إيفا في الأيام الأخيرة. وآذنت الشمس بالمغيب. فصارت خطواتها تسير من دون صوت حتى في الشرفة. وكانت تقضي معظم أوقاتها على كنبة صغيرة، قرب النافذة المفتوحة المطلة على البحيرة. وقد كانت عيناها دائماً مسمَّرتين على مياه البحيرة المائجة.

وفي ذات يوم قالت إيفا لأمها:

- ماما، أريد أن أقص بعض الخصل من شعري.

فسألتها ماري:

- ولمَ ذلك؟

- أريد يا أماه أن أهدي أصدقائي بعض خصل من شعري. وإني أفضّل أن أهديهم إيَّاها بنفسي ما دمت قادرة على أن أفعل ذلك. فهل لك أن تكلفي عمتي الآنسة أوفيليا بأن تقص لي تلك الخصل.

ومن دون أي تردد نادت ماري الآنسة أوفيليا الموجودة في الغرفة

آذنت الشمس بالمغيب: أوشكت أن تغرب.

المجاورة. ولم تكد تدخل الغرفة حتى نهضت إيفا قليلاً، وأرخت جدائل شعرها المسدول الذهبي وقالت بلهجة ممازحة:

- تعالي، يا عمتي، وجزّي صوف هذا الكبش...

فقال سانت كلير وهو يدخل عليهن حاملاً إلى إيفا بعض الفاكهة.

- ماذا؟

فقالت إيفا:

- لا تجزع يا بابا. فقد طلبت من عمتي أن تجزّ بعض خصل شعري فهو كثيف جداً وطويل وإنه لينفخ في رأسي حرارة قوية. وفوق هذا فإني أريد أن أوزّع خصل شعري على أصدقائي الذين يحبونني وأحبهم.

وتقدمت الآنسة أوفيليا وبيدها المقص.

فقال الأب:

- انتبهي! احذري أن تفسدي جمال شعرها. قصي من الداخل لكي لا يبدو أثر القص. إن شعر إيفا هو موضع فخري واعتزازي.

فقالت إيفا في جِرْسٍ حزين:

- آه يا بابا!

- أجل أريد أن يظل شعرك جميلاً لأني أنوي اصطحابك قريباً إلى مزارع عمك، وهناك ترين ابن عمك هانريك.

جُزّي: قصّي.

الكبش: الخروف.

- لا يا بابا. لن أرافقك إلى هناك... وإني راحلة إلى بلد أفضل منه. آه! صدقني يا بابا. ألا تُقِرّ معي بأني أزداد اقتراباً من الموت يوماً بعد يوم.

فقال الأب:

- لماذا تُصرّين على ضرورة إقناعي بهذا الأمر الرهيب الذي قد لا يصيبك يا إيڤا؟

- لأنه صحيح يا بابا. ولعلك إذا صدقته الآن تستطيع أن تنظر إليه في ما بعد بعين راضية كما أنظر إليه أنا الآن.

وأطبق سانت كلير شفتيه من شدة الحزن، ووقف جامداً دَهِشاً من رؤية عناقيد الشعر الذهبية الجميلة التي تقص من رأس إيڤا وتوضع باعتناء في حضنها خصلة خصلة. فكانت الفتاة تداعب بأناملها تلك الخصل التي تمثلها وتتأملها ملياً ثم تلفها حول أناملها النحيلة، وتنظر بين الفينة والفينة نظرة يائسة إلى وجه أبيها الجامد.

وأخيراً أومأت إيڤا بيدها إلى سانت كلير، فتقدم وجلس بجانبها.

- اعلم يا بابا أن قواي تنحل وتَهِن يوماً إثر يوم. وإني واثقة بأني راحلة. لذا فإني أريد أن أحدثك ببضعة أمور تراود فكري. إنك ترفض أن أفوه بكلمة عن هذا الموضوع؛ ولكني آسفة لأن أقوله لك مضطرة، فإن الأمر لم يعد يحتمل التأجيل. فأرجو أن تصغي إلي الآن وتعمل بما أقوله لك.

تهن: تضعف.

- إني أسمع لك يا بُنَيّتي!

قال سانت كلير ذلك، وحجب عينيه بإحدى يديه وتناول يد إيڤا بالأخرى.

- أريد أن تدعو جميع من يعيشون في هذا المنزل إلى هنا، فلديّ ما أقوله لهم أمامك.

فقال سانت كلير بصبر:

- حسناً يا إيڤا.

ووجهت الآنسة أوفيليا رسولاً إلى القوم يدعوهم للحضور. وبعد لحظة كان الخدم جميعهم قد اجتمعوا في الغرفة. وكانت إيڤا مستلقية على وسائدها، وكان شعرها المقصوص يتدلى حرًّا حول وجهها. وكان خداها القرمزيّان لا ينسجمان مع شدة بياض بشرتها ورقّة جسدها. وكانت عيناها الواسعتان عالقتين في كل من دخل الغرفة.

وقد أصابت الأرقاء موجة من الحزن فجائية، فقد أثّر فيهم وجه إيڤا الملائكي المصفرّ وخصل الشعر الطويلة المقصوصة الموضوعة إلى جانبها، كما أثار كوامنَ نفوسهم منظرُ الأب الحزين الذي أشاح بوجهه عنهم، وتنهدات الأم المحرقة. إن كل ذلك حرك عواطف أولئك البائسين المتحدرين من شعب شديد الانفعال رقيق الإحساس، فصاروا ينظرون إلى بعضهم البعض، وأخذوا يطلقون من أفواههم آهات وزفرات حارّة، وهزوا رؤوسهم السوداء وساد الغرفة صمت عميق كالصمت الذي يسود الجنازة.

القرمزي: ما كان بلون القرمز وهو صبغٌ أحمر.

أشاح بوجهه: مال بوجهه، أدار وجهه.

وأخيراً فتحت إيفا فاها مخاطبة الجميع، وقد حجبت أكثر الإماء وجوههن باردانهن ليُخفين دموع عيونهن. فقالت:

- أهلاً بكم يا أصدقائي. لقد طلبت مقابلتكم يا أعزائي لأني أحبكم وأحبكم جميعاً بمكانة أبي، ولديّ ما أسرّه إليكم لكي تتذكروني دائماً. أنا على وشك أن أرحل عنكم إلى الدار الآخرة، ولن تمضي بضعة أسابيع على بقائي معكم إذ تفتقدونني فلا تجدونني بينكم.

وهنا سرت في الجميع موجة من النحيب والبكاء والتنهد، وأخذت النساء يندبن فتوّتها الزاهرة كما أخذ الرجال يعدّون فضائلها، فضاع في هذه الموجة المحزنة صوت الطفلة الضعيف، فتوقفت لحظة عن الكلام، ثم عادت إليه بلهجة تفاؤلية وضعت حداً لبكاء الجميع وقالت:

- إذا كنتم تحبونني حقاً فأرجو ألا تقاطعوني بل اسمعوا ما أقول. طلبتكم لأحدثكم عما تحتاج إليه نفوسكم لخلاصها، فإني أخشى أن يكون أكثركم لا يهتمون بالآخرة، ولا يفكرون إلا في هذا العالم. من أجل هذا أريد منكم أن تعرفوا أن هنالك عالماً هو أجمل من الأرض، عالماً يُقيم فيه يسوع مملكته. إني راحلة إلى هناك، وفي استطاعتكم أن تذهبوا إلى حيث أذهب أيضاً، فهو لكم بقدر ما هو لي، هو لجميع العالم؛ ولكن عليكم لكي تتمكنوا من دخول ذلك العالم أن تعيشوا حياة جد وتأمل وتفكير، ويجب أن تذكروا أن في وسعكم جميعاً، لو أردتم، أن تصبحوا ملائكة وتبقوا ملائكة إلى

باردانهن: أكمامهن. أسرّه إليكم: أخبركم إياه سرًّا.

الأبد... ومن كان مسيحياً حقيقياً فإن يسوع يساعده، وعلى هذا المسيحي أن يصلي دائماً ويقرأ الكتاب المقدس والإنجيل دائماً.

وذهبت الطفلة في حديثها متهللة ثم تطلعت إليهم بحنوّ وحب.

وقالت بصوت حزين ضعيف:

- آه يا أحبائي، ولكنكم لا تعرفون القراءة، مساكين أنتم!

وهنا خبأت وجهها في الوسادة وانتحبت، في حين أطلق أولئك الذين وجهت إليهم الخطاب زفرات مكبوتة وقد كانوا راكعين على الأرض.

- لا بأس.

قالت ذلك ورفعت رأسها مرسلة ابتسامة مشرقة من خلال دموعها. ثم قالت:

لقد صلّيت من أجلكم. وأنا واثقة بأن يسوع يساعدكم حتى ولو كنتم لا تستطيعون القراءة. حاولوا جميعاً أن تعملوا أفضل ما تستطيعون عمله. صلّوا كل يوم. اسألوه أن يساعدكم، واستمعوا إلى تلاوة الكتاب المقدس ما وجدتم إلى ذلك سبيلاً. وأعتقد أنني سوف أراكم في السماء في ما بعد.

وقال توم ومامي وغيرهما من المتقدمين بالسن: «آمين»، في حين استرسل نفر من العبيد الصغار بالانتحاب، وقد خفضوا رؤوسهم فوق ركبهم كي لا يؤلموا ببكائهم الفتاة المريضة.

مكبوتة: محبوسة في الصدور. نفر: جماعة.

وقالت إيڤا:

- أنا أعرف أنكم جميعاً تحبونني. وإنني أود أن أعطيكم شيئاً تذكرونني به إذا ما نظرتم إليه. سوف أعطي كلا منكم خصلة من شعري فاذكروني في المستقبل.

وتجمَّع الأرقاء كلهم حول الفتاة الصغيرة ودموعهم تغسل وجناتهم، وزفراتهم تتصعد من صدورهم، وأخذوا يتناولون من يديها آخر أثر من آثار مَنْ تُحبّهم ويُحبّونها، ثم ركعوا على الأرض وأخذوا يبتهلون ويصلّون وقبّلوا ذيل ردائها. في حين أرسل الكبار كلمات الولاء والحب ممزوجة بالأدعية والابتهالات على طريقة العبيد العاطفية الجياشة الشعور.

كانت الآنسة أوفيليا تراقب هذا المشهد المؤثر دون أن تجهل أثره السيء في صحة الفتاة المريضة، فكانت تشير إلى من يأخذون نصيبهم من خصل الشعر أن ينصرفوا من الغرفة حالاً.

وما هي إلا لحظات حتى كان الأرقاء كلهم قد خرجوا. ولم يبقَ في الغرفة غير توم ومامي.

والتفتت إيڤا إلى توم وقالت:

- والآن، إليك أيها العم توم، هذه الخصلة الجميلة. آه! أنا سعيدة، أيها العم توم. ولسوف أراك في السماء بين أحضان الملائكة والقديسين وأرى مامي أيضاً. مامي العزيزة الطيبة. وألقت ذراعها حول الأم العجوز الوفيّة.

وجناتهم: خدودهم. الولاء: الإخلاص.

فقالت المرأة البائسة:

- أوه أيتها الآنسة الحبيبة. لست أدري كيف أقوى على العيش بعدك!

وأبعدت الآنسة أوفيليا برفق ودعة كلا من مامي وتوم خارج الغرفة بحجة أن الخدم جميعهم قد خرجوا. لكنها لم تكد تلتفت حولها حتى رأت توپسي واقفة هناك، وكأنها حجر أسود فصرخت في وجهها:

- من أين نبعتِ؟

فقالت توپسي:

- كنت هنا!

وكفكفت دموعها، ثم خاطبت إيڤا قائلة:

- آه يا آنسة إيڤا. لقد كنت دائماً جارية شريرة؛ ولكن ألا تريدين أن تعطيني أنا خصلة من شعرك أيضاً؟!

- طبعاً. يا توپسي. طبعاً إني أحبك. أحبك لأنه لم يكن لك يوماً أب أو أم أو أصدقاء. أحبك لأنك فتاة فقيرة مضطهدة. وأعطيك هذه الخصلة من شعري. وكلما نظرتِ إليها أريد منك أن تعملي جهدك لتكوني فتاة طيبة.

- آه، يا سيدتي، سأحاول. ولكن من الصعب جداً أن يكون الإنسان طيباً. وخبأت توپسي عينيها الدامعتين بطرف ثوبها. وفيما كانت أوفيليا تسوقها إلى خارج الغرفة أخفت الخصلة في صدرها.

* * *

ودعة: هدوء. كفكفت: جففت.

عندئذ أوصدت الآنسة أوفيليا باب الغرفة وهي تكفكف دموعها، وقد استبد بها الفزع لهذا الموقف المثير.

لم يبقَ من شك في أن النهاية أمست وشيكة الوقوع. ولم يعد في وسع الآمل مهما كان متفائلاً أن يتعامى عن رؤية الحقيقة المفجعة.

وأكثر العم توم من التردد إلى غرفة إيفا، إذ أخذت الطفلة تشكو هواجس عصبية. كانت تأنس لمن يحملها بين يديه، إذ تجد في ذلك منفرجاً وارتياحاً. وكان توم يشعر بأعظم سعادة تغمر قلبه، عندما يحمل هيكل الفتاة الصغير مستريحة على وسادة بين ذراعيه، ويطوف بها في أرجاء الغرفة والمنزل، حتى إذا هبت النسائم الندية من البحيرة أخذها ومشى معها أحياناً تحت أشجار البرتقال، أو جلس قربها في بعض الأماكن التي كانا يترددان إليها سابقاً. وكان ينشد لها التراتيل الكنائسية القديمة المفضلة عندها.

وكثيراً ما كان أبوها يعاملها بمثل هذه المعاملة الرقيقة. ولكن صحته لم تكن لتساعده على الصمود في وجه المتاعب. وكثيراً ما كانت تقول له إيفا:

- دع توم يحملني عوضاً عنك يا بابا! مسكين توم فهو رجل طيب، وأظنّ أن العمل الصالح يُدخل السرور إلى قلبه الكبير، وهو يحب أن يفعل شيئاً من أجلي، وليس بوسعه أن يفعل غير هذا!

- لا تحزن يا بابا! فباستطاعتك أنت أن تقرأ لي الكتاب المقدس، وأن تسهر على راحتي ليلاً كما أنك كل شيء لي؛ ولكن

منفرج: فتحة.

توم لا يستطيع إلا أن ينشد لي ويحملني على ذراعيه، وهو بهذا أقدر منك وأكثر نشاطاً وقوة!

وكانت إيفا تصارح توم بكل ما كان يراودها من خواطر مزعجة وأحاسيس قاتلة، فتطلعه بتفصيل على تلك الإيحاءات والعلاقات الغريبة التي تزور الروح حين تبدأ الحياة بالكسوف؛ وقبل أن يفارق العين نور الحياة إلى الأبد.

وكان توم قد اعتاد السهرَ في الأيام الأخيرة في غرفته، وكان يستلقي طوال الليل على الشرفة الخارجية ليكون على أتم استعداد للنهوض، عند أول مناداة تطرق أذنيه من فم الفتاة المريضة.

وفي ذات يوم، قالت له الآنسة أوفيليا:

- ما الذي يدعوك أيها العم توم إلى أن تنام في أي مكان شأن الكلاب؟ لقد حسبتك إنساناً متمدناً، وأنك تحب النوم في الفراش المنظَّم كالمسيحيين.

فأجابها توم بصوت منخفض:

- إني كذلك يا آنسة فيلي... إني كذلك، ولكن الآن...

- حسناً، ماذا يخيفك، الآن؟

- يجب ألا تتكلمي بصوت عال، لكي لا يسمع سيدي سانت كلير. ولكن، يا آنسة فيلي، أنت تعلمين أنه يجب أن يكون هنالك دائماً من ينتظر العروس.

- ماذا تعني يا توم؟

أنت تعرفين قول الكتاب المقدس: «وفي منتصف الليل خرجت

صيحة قائلة: هوذا العريس مقبل فاخرجْنَ للقائه». وهذا ما أتوقعه كل ليلة، يا آنسة فيلي. ويتعيَّن علي أن أسمع النداء.

- ولكن، ما الذي يجعلك تفكر هذا التفكير؟

- ذلك ما توحيه إلي الآنسة إيڤا، فهي تحدثني بأن الله يوجه إرادته إلينا بواسطة الروح. لذلك يجب أن أكون دائماً متيقظاً، حتى إذا ذهبت طفلتنا المباركة إلى ملكوت السماوات وفتح لها باب الجنة، كحَلتُ عيني بذلك المنظر الملائكي الرهيب.

- هل قالت لك الآنسة إيڤا إنها شعرت بضعف غير عاديّ، هذه الليلة؟

- لا. ولكنها قالت، هذا الصباح، إنها تقترب من النهاية أكثر فأكثر. إنهم هم الذين يخبرونها بذلك يا آنسة فيلي. إنهم الملائكة...

ولقد دار هذا الحديث بين توم وأوفيليا في ما بين الساعة العاشرة والحادية عشرة من ذلك المساء. وكانت إيڤا مرحة طروباً على غير عادتها بعد ظهر ذلك اليوم. وكان صوتها طبيعياً جداً، وبدت لأبيها، حين نظر إليها، ذلك المساء، أفضل حالاً مما كانت عليه في أي يوم مضى، منذ وافاها الداء الخبيث، فقبّلها وقال مخاطباً الآنسة أوفيليا:

- نستطيع أن نبقيها معنا على كل حال، فإن صحتها أحسن بكثير مما كانت عليه سابقاً.

ثم أوى إلى فراشه وبين جنبيه فؤاد هادئ لم يحتفظ بمثله في صدره منذ أسابيع.

بين جنبيه: الجنب: الجهة والناحية، والمراد هنا الصدر.

ولكن، ما إن انتصف الليل، في تلك الساعة الغريبة التي يرقّ فيها الحجاب ما بين الحاضر والماضي والمستقبل، حتى جاء الرسول.

ودوى في الغرفة صوت إنسان يجري مسرعاً بادئ الأمر. وكان هذا الشخص هو الآنسة أوفيليا التي قررت ألا تنام طوال الليل لتتفقد حال المريضة في تلك الساعة المتأخرة.

وفي لمح البصر فتح الباب الخارجي، واندفع منه توم إلى الغرفة، وقالت أوفيليا لتوم:

- اذهب إلى الطبيب يا توم، ولا تضيّع ثانية واحدة.

قالت الآنسة أوفيليا ذلك ووثبت عبر الغرفة لتفتح الحجرة التي تضم سانت كلير.

وقالت:

- سانت كلير أرجو أن تحضر إلي في الحال.

ونهض سانت كلير لتوّه وهرع إلى الغرفة، وانحنى فوق إيڤا التي كانت ما تزال نائمة!

ماذا اعترى المسكين حتى كاد يقف قلبه عن الحركة؟ لماذا لم يحدث أوفيليا أو لم تحدثه ببنت شفة؟! إننا لا نعرف جواباً لتفسير مثل هذه المواقف الحرجة إذا لم يقدَّر لنا، ورأينا تلك الآثار أو تلك الانطباعة على وجه عزيز لنا وهو يفارق الحياة. تلك الانطباعة البائسة التي تحدثك بما لا تقوى على تفسيره المجلدات، وهي تخبرك بأن المخلوق الذي تحبه لم يعد ملكك.

الحجرة: الغرفة.

بنت شفة: كلمة.

ووقفا إلى جانب الفتاة يحدقان النظر إليها وكأن على رأسيهما الطير، حتى لقد بدت تكتكة الساعة في آذانهما صارخة جداً. وبعد لحظات رجع توم بصحبة الطبيب. ولم يكد يدخل الطبيب الغرفة ويلقي نظرة سريعة على الطفلة حتى وقف جامداً مطرق الرأس ظاهر الأسى.

وفي صوت كالهمس قال للآنسة أوفيليا:

- متى حدث هذا التغيير؟

- حدث حوالى منتصف الليل.

وأيقظ مجيء الطبيب أم الطفلة من نومها. فهرعت إلى ابنتها متسائلة:

- أوغسطين! أوفيليا! ماذا حدث؟ أخبراني بربكما؟

فقال سانت كلير بصوت متهدّج باكٍ:

- هس. إنها تحتضر.

سمعت ماري هذه الكلمات فسارعت إلى إيقاظ الخدم. وفي أسرع من لمح البرق، استفاق سكان البيت جميعهم. فأضيئت القناديل واحتشد الجمع جَزِعين في الشرفة. وتطلعت الأعين من خلال الأبواب الزجاجية مستفسرة عن صحة الفتاة. ولكن سانت كلير لم يسمع الضجة وكل ما كانت تثيره تلك الانطباعة، انطباعة الموت على وجه النائمة الصغيرة وقال:

- آه! ليتها تستطيع فقط أن تفيق وتتحدث مرة أخرى!

قال ذلك وانحنى فوقها وهمس في أذنها:

متهدّج: مرتجف، متقطع. جزعين: خائفين.

- إيفا، عزيزتي.

وانفتحت عينا الطفلة الزرقاوان الواسعتان. وأشرقت على وجهها الذابل ابتسامة، وحاولت أن ترفع رأسها وتتكلم.

- هل تعرفينني يا إيفا؟

- بابا، عزيزي.

قالت الطفلة ذلك. وقد بذلت آخر ما تستطيعه من جهد، ومدّت يديها تطوّق بهما جيده. وفي لمح البصر ارتخت اليدان من جديد. فرفع سانت كلير رأسه. فإذا به يرى على وجهها آثار النزع الأخير.

وأشار سانت كلير بوجهه في لوعة بائسة وقال:

- آه يا إلهي. إن هذا مخيف!

ثم ضغط بطريقة لا شعورية على يد توم وقال باكياً:

- أوه يا توم. إن هذا المشهد ليقتلني!

وضغط توم على يد سيده التي ظلت في يده، وتطلع، والدمع الغزير يجري على خديه الأسودين اللامعين، إلى السماء حيث اعتاد أن ينظر طالباً العون والنجدة.

- أدعُ ربَّك أن يعجل في إنهاء هذا البلاء. إنه يدمي قلبي ويفطر أحشائي.

فصاح توم:

- أوه شكراً لله! لقد انتهى. لقد انتهى أيها السيد انظر إليها.

جيده: عنقه.

ألقت الطفلة رأسها على وسائدها وراحت تلهث لهاثاً شديداً. وقد تألقت العينان الكبيرتان الصافيتان وجمدتا. آه. ماذا قالت تانك العينان اللتان ناجتا السماء كثيراً. لقد قالتا: لقد انتهت حياة الأرض وانقضى ألمها. فتحلق الجميع حولها بسكون رهيب.

وقال سانت كلير بتؤدة ورفق: «إيفا».

ولكنها لم تسمع.. فقال والدها:

ـ أوه إيفا. أخبرينا ماذا ترين؟

وطافت على وجهها ابتسامة مشرقة وقالت بصوت ضعيف:

ـ أرى الحب والبهجة والسلام.

ثم أرسلت زفرة وانتقلت من الحياة إلى الموت، ومن الموت الأرضي إلى الحياة الأبدية.

الفصل التاسع عشر

اللقاء القريب

نفر ووري جثمان الملاك الصغير في جدث بأرض الحديقة في جو محزن عاطفي نضبت فيه دموع المحبين وتقرّحت العيون. وبعد أيام قلائل عادت أسرة سانت كلير إلى المدينة. فقد كان سانت كلير الذي آذته الصدمة وهدّه الغمّ تؤاقاً لتبديل المشهد وتغيير مجرى تفكيره الكئيب. وغادر القوم دارهم في المصيف وتركوا الضريح الصغير ورجعوا إلى قصرهم الشتوي. وهناك في نيو أورليانز كان الناس يرون سانت كلير يذرع الشوارع بخفة ورشاقة لملء الفراغ الذي أوجده في قلبه ذلك الحادث الأليم، متظاهراً بالحركة والنشاط، متنقلاً من مكان إلى آخر. حتى إن الذين كانوا يصادفونه في الطريق أو في المقهى لا يشعرون بأنه افتقد ابنته أو أنه حزن عليها إلا من ربطة العنق السوداء التي كانت تطوّق رقبته أو من الشريط الأسود الذي يلف قبعته. فقد كانوا يشاهدونه مبتسماً أبداً، وكان يتحدث ويقرأ الصحف ويستطلع الأخبار السياسية والحزبية ويشترك في القضايا التجارية، ولم يكن

ووري: أخفى، دفن.
نضبت: جفّت.
تؤاقاً: مشتاقاً.
جدث: قبر.
تقرّحت: تجرّحت.
يذرع: يقطع بخطى متوازنة طويلة.

هنالك أحد ليعتقد أن كل تلك المظاهر الكاذبة من ابتسام ونشاط ما كانت سوى قشور جوفاء تُخفي في طياتها فؤاداً مكلوماً هو أشبه ما يكون بقبر مظلم موحش!

قالت ماري ذات يوم للآنسة أوفيليا بلهجة شاكية:

- لقد أصبح السيد سانت كلير رجلاً غريب الأطوار حقاً. لقد كنت أعتقد أنه إذا ما كان يخلص لإنسان الحب فهو لابنته الحبيبة الراحلة إيفا. ولكن يبدو أنه قد نسيها بسهولة مطلقة. إني لا أقدر على أن أحمله على التحدث عنها أبداً، ولكني أصرّح بأني كنت أعتقد أنه سيظهر عاطفة أقوى وأخلص!

فقالت الآنسة أوفيليا:

- المياه الساكنة تكون أكثر عمقاً من سواها كما يقال.

- أوه. أنا لا أؤمن بهذه السفاسف. فإذا كان عند الناس عواطف فعليهم أن يظهروها ولا قيمة في إخفائها على أية حال!

فقالت ماري:

- يبدو لي أن السيد سانت كلير قد أصبح هزيلاً كالخيال، فهو لا يأكل طعاماً، وهو لم ينس، ولا يستطيع أحد أن ينسى المخلوقة المباركة إيفا.

وجرت الدموع سخية على خديها:

- حسناً. على كل حال، إنه لم يُقم لي وزناً في هذه الفاجعة.

مكلوماً: مجروحاً.

السفاسف: الأمور التافهة.

فهو لم يسمعني كلمة تعزية واحدة. وكان عليه أن يدرك أن الأم تحس بلوعة الحزن أكثر من الأب.

فقالت الآنسة أوفيليا برصانة:

- إن القلب يدرك ما يعانيه من تباريح.

- ذلك ما أعنيه بالضبط. فأنا على علم جيد بكل ما أحس به، وأن أحداً سواي لا يمكنه أن يدرك ما أعانيه، باستثناء إيفا التي كانت تعلم ما يعتلج في نفسي. ولكنها، يا للأسف، قد رحلت عني!

قالت ماري ذلك وانطرحت على أريكتها وأخذت تبكي وتنتحب.

* * *

كان أهم ما انصرف إليه سانت كلير بعد عودته إلى نيو أورليانز هو اتخاذه التدابير القانونية الضرورية لتحرير توم. وفي الوقت نفسه أخذ الوالد الثّكِل يلازم الرجل العجوز أكثر فأكثر ويوماً بعد يوم. إذ لم يكن ثمة في الدنيا الواسعة ما يذكّره بإيفا بقدر ما كان يذكّره بها توم. فهو لهذا كان يحب أن يبقى إلى جانبه ليشكو إليه حزنه ويبثّه بلواه. وكان يجد قربه متعة بالغة، وخاصة حين يتلو على مسامعه فصول الإنجيل والعهد القديم.

وقال سانت كلير لرفيقه بعد يوم من شروعه في اتخاذ الخطوات الشكلية لإعتاقه:

- سوف أجعل منك رجلاً حُرًّا. فرتّب حقيبتك واستعدّ للرحيل

تباريح: آلام.

الثكل: الحزن على موت الولد.

الشروع: البدء.

يعتلج: يضطرب.

بلواه: مصيبته.

لإعتاقه: لتحريره.

إلى كانتاكي.

وأضاء وجه توم بنور الغبطة وهو يرفع يديه إلى السماء ويجار بالحمد لله...

- شكراً لك يا رب!

ورأى سانت كلير الفرح يغمر وجه توم فاكفهر جبينه بعض الشيء. فقد ساءه أن يكون توم راغباً كل هذه الرغبة في فراقه.

وقال بلهجة جافة:

- أنت لم تقض عندنا كثيراً من الأوقات التعسة حتى تتعجل الذهاب على هذا النحو!

- لا. لا يا سيدي. ليس الذهاب هو الذي يُفرح قلبي، إنما الذي يفرحني هو أنني سأصبح حُرًّا.

- ولكن ألا تظن يا توم أنك عشتَ بيننا حياة هي أفضل من حياة الأحرار أمثالك؟

فقال توم في عزم أكيد:

- لا. أيها السيد. لا.

- ألا تعتقد يا توم أنه ما كان يتسنى لك لو كنت حراً أن تجني من عملك ما يمكّنك من أن تشتري به مثل هذه الملابس وتأكل مثل هذه المآكل التي نقدمها لك؟

- هذا صحيح يا مولاي، فقد كنتَ كريم النفس معي

يجار: يرفع صوته.

تجني: تحصل.

سخيًا جداً، ولكن يا سيدي أفضل أن تكون ثيابي رثة وبيتي حقيراً وأثاثي حطاماً، وأن تكون هذه الأشياء ملكي على أن أتمتع بأفضل منها وهي ملك غيري من الناس، وأعتقد أن هذا الإحساس طبيعي. ولا أخفي عنك أني سأبقى معك ما دمت تشعر بالهم والقلق.

فقال سانت كلير وهو يتطلع إلى الحديقة مكلوم الفؤاد:

- ما دمت أشعر بالهم والقلق؟! ولكن هل تعتقد أن لحزني انقضاء؟

فأجاب توم:

- عندما يغدو سيدي سانت كلير مسيحياً.

فابتسم سانت كلير نصف ابتسامة، وقال وهو يبتعد عن النافذة ويضع يده على كتف توم:

- وهل تعتزم أن تبقى فعلاً حتى ينبلج فجر ذلك اليوم؟ آه يا توم. إنني لأشفق عليك حتى أبقيك قربي إلى تلك الساعة. لا، يجب أن تذهب إلى زوجتك وأولادك وتحمل حبي.

ومذ غاب وجه إيفا الجميل عن نواحي البيت وملاعب الصبا، والآنسة أوفيليا تحس بفراغ قاتل في حياتها لا مجال لتعبئته. لهذا فقد انصرفت بكليّتها لتعليم توپسي القراءة وفنون إدارة المنزل، وكانت تحرص على أن تلقنها مبادئ الإنجيل والتوراة في الدرجة الأولى.

سخيًا: كريماً.

ينبلج الفجر: يطلع.

www.liilas.com/vb3

وأخيراً صارت توبسي سلوتها عن يأس، فأخذت تحدب عليها وترى فيها المخلوقة المرسلة من الله لتهديها إلى الصراط المستقيم وتضطرها لسلوك معاريج الفضيلة. وبالطبع فإن توبسي لم تنقلب بين ليلة وضحاها إلى فتاة قديسة؛ ولكن موت إيفا والنصائح التي زوّدتها بها قبل وفاتها أحدثت تغييراً كبيراً في نفس توبسي. فقد تخلصت من بلادتها تلك التي عرفت بها، وحلّ محلها إحساس وأمل وشوق لعمل الخير، ونضال متواصل لإرضاء أسيادها. وكانت دائماً تتوجه نحو الصدق والإخلاص في كل ما تفعل.

قالت الآنسة أوفيليا ذات مرة لسانت كلير، وقد كانا يتجاذبان أطراف الحديث حول الطفلة توبسي ومدى ما أحرزته من نجاح وتقدم:

ـ أحبّ أن أوجّه إليك سؤالاً يا أوغيستان. ستكون هذه الطفلة لي أم لك؟

فأجاب سانت كلير بدهشة:

ـ وهل نسيت أني قدمتها لك هدية؟

فقالت الآنسة أوفيليا:

ـ هذا صحيح. ولكنك لم تعطني إياها على نحو قانوني شرعي، فإني أريد أن تكون لي هذه الفتاة شرعياً وقانونياً.

ـ وما الذي يجعلك تطالبين بهذا يا أوفيليا؟

تحدب: تعطف.
معاريج: مسالك.
أحرزته: ناله، حقّقه.

ـ أوَدّ في النهاية أن أذهب بها إلى إحدى الولايات التي تحرّم الرق لأمنحها هناك حريتها، ولكي أضمن أن جهودي التي بذلتها في تثقيفها وتعليمها لم تذهب أدراج الرياح. فقد حاولت أن أجعل من توبسي طفلة مسيحية، ولكن ذهبت جهودي هباء ولم تَجدِ فتيلاً. وأعتقد أنه لا يمكن إدخال العقلية المسيحية إلى هؤلاء الأرقّاء ما دام شبح الاسترقاق يتهددهم في كل لحظة، اللهم إذا ما كانوا خارج هذا المنزل. لذلك فإني ملزمة أن أطالبك بمنحي صكًّا شرعيًّا يسمح لي بامتلاك الفتاة وحدي.

ـ حسناً، حسناً سوف أفعل.

قال سانت كلير ذلك وأخذ يقرأ صحيفته.

فقالت الآنسة أوفيليا:

ـ أريد أن أحصل على هذا الصكّ الآن!

ـ ولمَ العجلة؟

ـ من الخير أن لا تؤجل ما يمكنك أن تفعله الآن. وها هي الساعة مؤاتية، فإليك ورقة وريشة وحبراً، وما عليك إلا أن تكتب الصك.

وظهرت على جبين سانت كلير مسحة من الاستياء والنفور لدى هذا الطلب المُلحّ، فهو لا يستسيغ أولئك الذين يُصِرّون على الطلب، ويحب دوماً أن يسوّف ويماطل شأن الكثيرين من رجال الأعمال.

لم تُجدِ فتيلاً: لم يكن لها أي نفع.
مؤاتية: مناسبة.
صكًّا شرعيًّا: مستنداً قانونياً.
يسوّف: يؤجّل.

وصمت لحظة، ثم قال:

- عجيب أمرك ألا تتقين بكلامي؟

- أريد أن يطمئنّ قلبي. ومن يدري؟ فقد يخطفك الموت، وقد تنكثُ بالوعد، وعندئذ تساق توبسي إلى سوق المزاد على مرأى مني ومسمع أذني.

وهنا تناول سانت كلير الريشة وكتب صيغة الهبة ووقعها باسمه ثم قال، وهو يقدّمها إلى ابنة عمه:

- والآن أليس هذا سواداً على بياض يا آنسة؟

فابتسمت أوفيليا وقالت:

- حقاً إنك شاب طيّب. ولكن ألا يحتاج هذا الصك إلى من يشهد على صحته؟

- أوه، طبعاً.

وفتح الباب المؤدّي إلى غرفة زوجته وقال:

- ماري، إن ابنة عمي تطلب توقيعك على هذا الصك، فاكتبي اسمك ههنا.

وألقت ماري نظرة سريعة على الورقة وقالت:

- ما هذا؟ شيء مضحك! لقد حسبت ابنة عمنا أكثر صلاحاً من أن تُقدم على هذه الأشياء الفاسدة!

وأضافت وهي توقّع اسمها في أسفل الصك:

تنكثُ بالوعد: تَعِدُ ولا تفي.

- ولكنها ما دامت شديدة الحرص على هذا الطلب فلن أتأخر عن التوقيع عليه.

وبعد ذلك خرج سانت كلير إلى غرفة الاستقبال، وتفرّغ لمطالعة صحيفته التي ما تزال في يده، فلحقت به أوفيليا وجلست قربه وبلطف سألته وهي تحرك أناملها بحَبْك الصوف:

- أوغسطين، هل فكرت في أن تضمن مستقبل أرِقّائك في حال وفاتك، لا سمح الله.

فقال سانت كلير وهو يواصل القراءة:

- لا.

- إذاً فقد يؤدي إهمالك هذا إلى إنزال أشنع المكاره بهم.

وكان سانت كلير كثيراً ما يفكر في هذا الموضوع، لكنه أجاب بلامبالاة:

- حسناً، أريد أن أنجز الإجراءات التي تقيهم شرّ هذا المصير.

فتساءلت الآنسة أوفيليا:

- متى؟

- أوه. في يوم من الأيام...

- وماذا إذا حضرك الموت قبل ذلك؟

فطوى سانت كلير صحيفته وتطلع إلى ابنة عمه قائلاً:

- ماذا دهاك يا أوفيليا؟ تراك تشاهدين على وجهي أعراض

أنجز: أنهي. تقيهم الشرّ: تحميهم من الشرّ.

الحمى الصفراء أو غيرها حتى تستعجليني لإنجاز تلك التدابير بهذه السرعة الكلية؟

فقالت الآنسة أوفيليا:

- إننا نخوض معترك الموت ونحن في غمرة الحياة.

وغضب سانت كلير من حديث أوفيليا فخرج إلى الشرفة ليضع حداً لحديث لم يستسغه، وبصورة آلية أخذ يردد كلمة «الموت» وهو منحنٍ على حديد الشرفة حيث كان بصره يمتد إلى مياه البركة. وقد ذهب به نظره إلى زهور الدار وأشجار الحديقة وألوانها المتعدّدة، فرآها وكأن قد غشيها ضباب رقيق. وأخذ يردد تلك الكلمة المبهمة الشائعة على كل لسان والتي تخيف كل مخلوق «الموت».

وقال محدّثاً نفسه: من العجب أن يكون الموت على قيد باع منا ونناه كلّيًا. يكون الإنسان حياً مسروراً وغارقاً في خضمّ الحياة، تغمر قلبه الآمال الحلوة والرغبات الكثيرة والحاجات اليومية، ثم فجأة يُحرم كل هذا فلا تشرق عليه شمس اليوم التالي حتى يكون قد ابتعد عن هذه الأرض إلى الأبد!

وفيما كان سانت كلير منصرفاً إلى الطرف الآخر من الزمن في ذلك المساء الدافئ الجميل، رأى توم منكبًّا على كتابه المقدس يقرأه بإمعان، وأصابعه تشير إلى الكلمة التي يمر بها فيهمس بها في تأمل وخشوع. فأنس سانت كلير بتوم وقال له:

معترك: موضع القتال. غشيها: غطاها.

باع: مسافة اليدين إذا امتدت الذراعان يميناً وشمالاً.

الخضمّ: البحر.

- أتريد أن أساعدك فأقرأ لك يا توم؟

ومن دون أن يسمع جواباً جلس سانت كلير قرب الرجل العجوز فقال له توم:

- لو تلطّفت مولاي وقرأ لي، فقراءتك تُفهمني الكلام المقدس بشكل أوضح وأعمق. وتناول سانت كلير الكتاب، وألقى نظرة على الصفحة المفتوحة وأخذ يتلو أحد المقاطع التي أشار إليها توم بعلامات بارزة:

- ومتى جاء ابن الإنسان في مجده ومعه جميع الملائكة والقديسين، حينئذ يجلس على كرسي مجده وتجتمع أمامه الشعوب كافّةً. فيميز بعضهم عن بعض كما يميّز الراعي الخراف من الجِداء.

وتابع سانت كلير التلاوة بصوت يفيض حياة وعذوبة حتى وصل إلى آخر الإصحاح:

- ثم يقول للذين عن اليسار: اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية الآكلة، لأني جُعْتُ فلم تطعموني، وعطشت فلم تسقوني. كنت غريباً فلم تُؤووني، وعرياناً فلم تكسوني، ومريضاً وسجيناً فلم تعودوني وتزوروني. فيجيبه الأشرار قائلين:

- يا رب، متى رأيناك جائعاً أو عطشاناً أو غريباً أو عرياناً أو مريضاً أو سجيناً ولم نخدمك؟ فيجيبهم قائلاً: لأنكم لم تفعلوا ذلك بإخوتي هؤلاء الصغار.

الإصحاح: ما دون السِّفر وفوق الفصل، من التوراة والإنجيل.

تعودوني: تزوروني مرة بعد مرة.

وبدا سانت كلير مأخوذاً بهذا المقطع الأخير. فقد قرأه مرتين متواليتين متمهلاً في القراءة الثانية، وكأنما كان يردد الكلمات في ذهنه ثم قال:

- هل توافق يا توم أن أولئك الذين أنزل الله عليهم لعنته كانوا على ما أظن يتصرفون كما أتصرف أنا تماماً؟ هل كانوا يعيشون حياة مترفة ناعمة خلْتُ من مرارة الجوع والعري والمرض والاضطهاد؟!

ولما كان كلام سانت كلير في اعتقاد توم صحيحاً فقد لزم الصمت. فنهض سانت كلير وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً والأفكار السوداء تتلاطم في رأسه. حتى إن توم نبّهه مرتين إلى أن جَرَس تناول الشاي قد قُرع فلم ينتبه.

كان السيد سانت كلير شارد اللب، مشتت الفكر طوال ساعة تناول الشاي، ثم قصد بعد ذلك ومعه ماري والآنسة أوفيليا حجرة الاستقبال حيث خيم على الجميع صمت تام. أما زوجته ماري فقد انبطحت على أريكة تظللها كُبّة من الحرير، وراحت تغط في نوم عميق. أما الآنسة أوفيليا فقد تشاغلت بحبك الصوف، في حين جلس سانت كلير إلى البيانو وأخذ يداعب مفاتيحه بخفة ورشاقة وهو يفكر تفكيراً جَرَفَ كيانه كلَّه. وما هي إلا لحظة حتى فتح أحد الأدراج وتناول كتاباً موسيقياً قديماً صفّرت الأيام أوراقه، وراح يقلب صفحاته، ثم قال للآنسة أوفيليا:

اللب: العقل، الفكر.

الكُبّة من الحرير: اللفيفة، الحرير الملفوف.

- هوذا واحد من كتب أمي، وهذا هو خطّها. تعالي وانظري. لقد نسخْته ورتبته نقلاً عن قداس الموتى لموزارت.

واقتربت أوفيليا وألقت نظرة على الكتاب.

وقال سانت كلير:

- إنها قطعة تعودّتُ أن تغنيها كثيراً، وأحسب أن في وسعي أن أسمعك إياها!

وعزف لحناً فخماً وطفق ينشد تلك القطعة اللاتينية القديمة «يوم القصاص».

وسأل سانت كلير الآنسة أوفيليا:

- ما رأيك في إنسان يدعوه قلبه وتُلحّ عليه ثقافته وتناديه حاجات وطنه إلى القيام بعمل نبيل فيصمّ أذنيه دون النداء ويتعامى عنه. رجل يقضي سحابة عمره وهو يشاهد أنواع المظالم والمآسي تنزل ببني الإنسان فيبقى لا مبالياً حيادياً، في حين كان عليه أن يُنجز عملاً إيجابياً لرفع الحيف عن أولئك المعذبين!

فأجابت الآنسة أوفيليا:

- يخيل إلي أن على مثل هذا الرجل أن يثوب إلى ربه، وأن يفعل ما يدفعه قلبه لعمله.

- أنت دائماً واقعية وعملية. والذي يبدو لي أن عندك نوعاً من «الآن» التي لا تفنى، والحاضرة أبداً في ذهنك!

الحيف: الظلم.

يثوب: يعود.

- ألا تعتقد معي أن خير البرّ عاجله؟

فقال سانت كلير:

- مسكينة إيفا الصغيرة. لقد أوصتني بأن أفعل من أجلها أشياء كثيرة!

- وما الذي تنوي أن تصنعه؟

- سأقوم بواجبي في خدمة المعذبين الفقراء على الأرض عندما يتيسر لي ذلك. وسأبدأ طبعاً بأرقائي الذين لم أعمل شيئاً صالحاً من أجلهم بعد. وأرجو أن يوفقني الله لعمل كل ما من شأنه أن يبعد الظلم عن هذه الطبقة الرقيقة كلها، ويمحو العار الذي يلطخ سمعة بلادي بين سائر الأقطار المتمدنة.

فتساءلت الآنسة أوفيليا:

- أتعتقد أن من الممكن أن تنهض الأمّة بالاستناد إلى الإرادة وحدها بعد تحرير الأرقاء؟

فقال سانت كلير:

- أدري ما أقول وما أفعل يا أوفيليا، فعصرنا هذا هو عصر العمل الحق لا القول. وقد سرت في العالم موجة من الرحمة والإنسانية. وكثرت البطولات وأعمال الخدمة البشرية في كل مكان على هذه الأرض. ولعلك تذكرين أن نبلاء هنغاريا قد عمدوا لتحرير عبيدهم الذين يُعدون بالملايين، وتحملوا الخسائر المادية الضخمة

البرّ: الإحسان، المعروف.

المترتبة على هذا العمل النبيل. ومن يدري؟ فقد يكون بين مواطنينا بعض ذوي النفوس الكبيرة الذين لا يقيسون قيمة الشرف والعدل بالدولارات.

وصمت الاثنان لحظة. وعلَتْ وجه سانت كلير مسحة حزينة حالمة ثم قال:

- لست أدري ما الذي يجعلني أفكر في أمي تفكيراً متواصلاً هذا المساء، وإني لأحس إحساساً غريباً وكأنها هي تقيم قربي. إني لا أفتأ أفكر في أشياء كانت معتادة أن تقولها: غريب يا ربي! ما الذي يعيد إلينا ذكرى أمور ماضية حية قوية في بعض الأحيان؟

وذرع سانت كلير الغرفة بضع دقائق أخرى ثم قال:

- أرى من الخير أن أقصد المدينة، هذا المساء، لأتسقّط الأخبار، ولن أغيب إلا مدة قصيرة.

وتناول قبعته ومضى.

ولحق به توم إلى خارج الفناء وسأله ما إذا كان يريد أن يصطحبه. فرد عليه سانت كلير:

- لا، يا بني، سوف أعود بعد ساعة!

وجلس توم على الشرفة. كانت أمسية مقمرة جميلة، فراح يتأمل انبجاس الماء من فم البركة ثم سقوطه في طواحينها. وكان يستمع إلى

تسقط الأخبار: استطلع الأخبار.
انبجاس: اندفاع، انطلاق.

خرير الماء المطرب. وخطر في باله نزله القديم وزوجته وأولاده، وتخيل ساعة يصبح فيها رجلاً حراً، فيستطيع العودة إلى أسرته متى شاء. ثم قاده تفكيره إلى ما يتوجب عليه من الجهد المتواصل والدأب الطويل لشراء زوجته وأولاده. وامتدت يده فجأة إلى عضلات ذراعيه المفتولة، وشعر بنوع من الغبطة إذ رأى أن عضلاته القوية سوف تصبح بعد قليل ملكه وملك أسرته. وفكّر في سيده النبيل وفي ابنته الراحلة إيفا الطاهرة.

وتغلّب عليه الكرى فنام نوماً عميقاً، ونهض على قرعات قوية تضرب على الباب وعلى صراخ عال ينبعث من وراء الباب. فأسرع توم إلى المكان الذي تصدر منه الجلبة، فرأى جماعة من الرجال يمشون بخطوات وئيدة وهم يحملون جسماً بشرياً ملفوفاً ببعاءة، وموضوعاً على لوح خشبي. واستطاع توم على ضوء المصباح أن يتبيّن وجه الرجل المحمول على الأكتاف، فأرسل صيحة مؤلمة بائسة تجاوبت أصداؤها في أرجاء القصر كله. فتقدم الرجال إلى حجرة الاستقبال حيث كانت الآنسة أوفيليا جالسة تحوك الصوف.

وخلاصة ذلك الحادث المشؤوم أن سانت كلير قد دخل إلى أحد المقاهي ليبتاع صحيفة مسائية، وفيما كان يتصفح عناوين الجريدة نشبت مشاجرة بين رجلين من رواد المقهى كانا مخمورين. فحاول سانت كلير واثنان آخران أن يفصلوا بين المتشاجرين ويصلحوهما، ولكن عبثاً فقد استل أحدهما مُدْيَتَهُ وأراد أن يضرب بها خصمه،

الكرى: النوم. وئيدة: بطيئة.
مديته: سكينه.

فأصابت سانت كلير بجنبه، بينما كان يسعى سانت كلير لانتزاعها من يد حاملها. ولدى وصول الجمع وهم يحملون سانت كلير جريحاً ضج المنزل بالصياح والعويل والندب والنحيب. وبكى الأرقّاء ومزقوا صدورهم وألقوا بأنفسهم على الأرض وأخذوا يعولون. ولم يبق في ما بينهم أحد محتفظاً برباطة جأشه وحضور ذهنه سوى توم والآنسة أوفيليا. أما ماري فقد أصيبت باضطراب هستيري عنيف. وقد طلبت أوفيليا من الرجال أن يمددوا الجريح على أريكة في حجرة الاستقبال كانت قد أعدت سريعاً فوضع الجسد الدامي عليها. كان سانت كلير فاقد الوعي بسبب كثرة الألم ونزيف الدم، ولكن الآنسة أوفيليا لجأت إلى إجراء الإسعافات الأولية فضمدت الجرح ونظفته فثاب إلى رشده وفتح عينيه بدهشة على الجمع المحتشد حوله، وأخذت عيناه تنتقلان من مكان إلى آخر حتى استقرتا آخر الأمر على رسم أمه.

ووصل الطبيب بعد قليل ففحص سانت كلير. وقد اتضح للحضور من اكفهرار سحنته بأن لا أمل في نجاة الجريح من الموت، ولكن الطبيب انصرف لتضميد الجرح بشكل أفضل، وكانت تساعده أوفيليا وتوم، بينما كان الأرقّاء العديدون ينتحبون ويبكون وهم متجمعون حول أبواب الشرفة ونوافذها.

وقال الطبيب:

- ينبغي أن تبعد جميع هؤلاء الفضوليين من هنا. علينا أن نفتش عن أي شيء يدعو لراحة الجريح واحتفاظه بالسكينة والهدوء.

وفتح سانت كلير عينيه وحدق بالمخلوقات التعسة التي كانت الآنسة أوفيليا والطبيب يدفعانها إلى الخارج وقال:

- مساكين!

وطغت على وجهه علامات توبيخ وتأنيب ذاتي مرير!

ولم يستطع سانت كلير أن ينطق إلا قليلاً. كان مستلقياً مغمض العينين؛ ولكن كان واضحاً أن أفكاراً مريرة كانت تراوده. وبعد برهة قصيرة، وضع يده على كتف توم الذي كان راكعاً إلى جانبه وقال:

- توم. إني أموت. صَلِّ من أجلي.

واندفع توم يبتهل ويصلي بكل قوّته وروحه من أجل إنقاذ الروح المعذبة الراحلة التي كانت تنفذُ إلى الوجود من خلال هاتين العينين الزرقاوين الحزينتين. كان يصلي توم صلاة حارة حقيقية تصحبها ابتهالات قوية ودموع مدرارة.

وعندما انقطع توم عن الصلاة، مدَّ سانت كلير يديه نحوه وأمسك يده وتفرس فيه ملياً من دون أن ينطق ببنت شفة. ثم أغمض عينيه المتعبتين وطفق يدمدم ويهمهم أبياتاً من أنشودة «يوم القصاص» الكنائسية ويده ما تزال قابضة على يد توم. وأما الكلمات التي خرجت من فمه ذلك المساء فكانت تطوف في خلايا عقله منذ زمن طويل، وكانت كلمات الترنيمة تخرج من فمه محطمة وغير مفهومة.

وقال الطبيب:

- إنه يهذي.

فقال سانت كلير في عزم:

مدرارة: غزيرة.

يهذي: يتكلّم بلا وعي.

- لا، فقد بلغ المَحَجَّة آخر الأمر، أجل آخر الأمر.

وأنهكه جهد الكلام. ورانت على وجهه صفرة الموت ترافقها سمات طمأنينة وسلام أشبه بتلك التي تعلو وجه طفل متعب مستسلم للرقاد.

وظل كذلك بضع لحظات قصيرة، ثم رفع يده وظلل بها رأسه. وقبل أن تفيض روحه فتح عينيه، وظهر فيهما بريق البهجة والاعتراف بالامتنان ثم قال:

- أماه! ثم أسلم الروح!

المحجة: نهاية الطريق.

سمات: علامات، إشارات.

رانت: خيِّمت، غطّت.

الفصل العشرون

المحرومون حمايةَ القانون

بعد انقضاء أسبوعين أو ما يقرب على وفاة سانت كلير، أقبل أدولف، أحد الأرقّاء الذي سحق قلبه موت سيده الكريم، على توم وقال في جزع:

- هل تعرف يا توم أننا سنباع كلنا في وقت قريب؟

فسأله توم:

- وكيف عرفت ذلك؟

- لقد سمعت مولاتنا ماري تحدث أحد المحامين حين كنت خلف السجوف لا يراني أحد. وقد فهمت من كلامها أنها قررت بعد أن اتصلت عدة مرات بشقيق سيدنا الراحل أن تبيع البيت وجميع الخدم ما عدا ما تملكه هي شخصياً، لتتمكن بعد ذلك من العودة إلى مزرعة أبيها... ومعنى هذا أننا سنباع كلنا عمَّا قريب في المزاد العلني يا توم...

فقال توم:

السجوف: الستائر.

- لتكن مشيئة الله.

وطوى ذراعيه وأخذ يبكي وينتحب.

- إن الزمن لن يجود علينا بسيد مثل الذي فقدناه؛ ولكني أفضّل أن أباع في سوق الرقيق على أن أبقى تحت سلطة مولاتي ماري هذه!

لم ينطق توم بحرف جواباً على هذا النبأ المؤلم، فقد كان قلبه يعتلج بالحزن والقلق، وبرز له طيف حريته وانطلاقه والعودة إلى منزله بعيدَ المنال كمن تحطم قاربه على الشاطئ فأدرك الأمان؛ ولكنه لم يحتفظ به، أو كمن يشكو العطش فراح يعلل نفسه بما يراه أمامه ظاناً أنه ماء فإذا هو سراب. ومنذ تلك اللحظة، أخذ توم يودّع تلك الأحلام التي كانت تمنّيه بها نفسه، وشدَّ على صدره وراح يذرف دموعاً مدرارة مريرة ثم حاول أن يصلي. وبعد ذلك رأى أن يلجأ إلى الآنسة أوفيليا التي باتت تعامله باحترام بعد وفاة إيفا وقال لها:

- أرجو يا آنسة أوفيليا أن تساعديني، فقد وعدني سيدي المرحوم سانت كلير أن يمنحني حريتي، وقال إنه شرع في اتخاذ الإجراءات اللازمة لذلك. فهل يمكنك أن تتفضلي وتحدثي مولاتي في موضوعي هذا علَّها تنجز هذه المكرمة التي حال موت سيدي دون تحقيقها؟!

فقالت الآنسة أوفيليا:

- سوف أحدثها بالأمر، يا توم. وسأبذل جهدي لإقناعها...

يجود: يتكرّم.
تمنّيه: تعِدُه.
حال: منعَ.

يعتلج: يضطرب.
المكرمة: العمل الشريف

وتحاملت الآنسة أوفيليا على نفسها وقصدت غرفة ماري، لتبحث معها أمر تحرير توم، فوجدتها تنتقي هي و«جين» نماذج من القماش الأسود الرقيق.

وقالت ماري وقد وقع اختيارها على أحد النماذج:

- هذه جيدة؛ ولكن لست على يقين من أنها تصلح للبس الحداد مئة بالمئة.

فانبرت جين إلى الحديث في طلاقة:

- ولم لا؟ لقد ارتدت زوجة الجنرال «دربينون» ثوباً من هذا القماش بعد وفاة زوجها في الصيف المنصرم. ولقد كان حقاً ثوباً لطيفاً.

وهنا التفتت ماري إلى الآنسة أوفيليا وسألتها:

- ما رأيك؟

فقالت الآنسة أوفيليا:

- إنها مسألة عُرف على ما أظن، وفي استطاعتك أن تقرري أفضل مما أستطيع أنا.

- أتريدين الحق؟ إني لا أملك ثوباً واحداً أستطيع أن ألبسه في هذه المناسبة. ولما كنت عازمة على أن أغادر المنزل في الأسبوع القادم، فقد غدا لزاماً علي أن أبتاع ثوباً أسود جديداً.

- وستذهبين بهذه السرعة؟

تحاملت: كلفت نفسها ما لا تطيق. عرف: عادة، تقليد.

- أجل! فقد كتب إلي شقيق سانت كلير، وهو يعتقد مع محاميه أن علينا أن نبيع الأثاث والأرقّاء في سوق المزاد على أن يبقى البيت في عهدة المحامي لبيعه.

فقالت الآنسة أوفيليا:

- هناك مسألة أحب أن أحدثك بها جدياً، ذلك أن أوغيستان المرحوم كان قد وعد توم بأن يمنحه الحرية، وشرع في اتخاذ الإجراءات الشرعية المطلوبة. فالذي أرجوه أن تعملي جهدك لإكمال هذه الخطوة النبيلة التي بدأها سانت كلير.

- لا. إني لن أعمل شيئاً من هذا القبيل. فتوم من أغلى الأرقاء عندنا، وليس في استطاعتي أن أفرط به مهما كان الأمر. ولكن قولي لي بربك ما الذي يسعى وراءه من إطلاق حريته؟ وما عساه يبغي أن يفعل؟ وأعتقد أن من الخير له ألف مرة أن يظل عبداً رقيقاً من أن يعيش جائعاً عريانا.

فقالت الآنسة أوفيليا:

- ولكنه توّاق إلى الحرية. وقد وعده سيده سانت كلير المرحوم بإعتاقه.

فاستاءت ماري وقالت بجفاء:

- تقولين إنه تواق إلى الحرية، وأستطيع أن أقول لك إنهم كلهم تواقون إلى التمتع بالحرية من دون أن يعرفوا ما هي الحرية، فقد

الشرعية: القانونية. يبغي: يريد.
جفاء: نفور.

اعتادوا أن يتذمّروا ويشكوا وأن يتشدقوا لامتلاك ما ليس بأيديهم. وعلى كل حال فإني أخالف مبدأ عتق العبيد مخالفة صريحة. فإذا ما ظل العبد تحت كنف سيده يبقى حسن السيرة صالح الخلق، أما إذا أُتيح له ونال حريته عندئذ يتردّى في مهاوي البطالة والكسل فينقطع عن العمل، ويتعاطى الفحش والفجور والمخدرات وينتهي به الحال أن يصبح مخلوقاً قذراً لا نفع منه يرتجى. صدقيني فقد رأيت مئات النماذج بأم عيني، لهذا فإني أعتقد أن إعتاق العبد يضره ولا يخدمه في شيء!

- ولكن توم رجل مستقيم ونشيط وحسن السيرة.

- لست بحاجة إلى من يخبرني عن حقيقتهم. فقد شاهدت مثله من الأرقاء مئات يحافظون على سلوكهم الحسن ما داموا في خدمة سيد يتعهدهم بالعناية. أما إذا نالوا حريتهم فهم ينقلبون أناساً آخرين.

فقالت الآنسة أوفيليا:

- ولكن ألا تخشين أن يباع توم إلى سيد جديد لئيم إذا ما عُرض للبيع؟

- هذا هراء. وإنه من قبيل الصدفة أن يقع عبد طيب القلب كتوم في يد مالك سيّئ الخلق. وأعتقد أن أكثر الأسياد طيبو القلب وأصحاب ضمائر حية رغم كل ما يقال عنهم ويُشاع. فقد خلقت وترعرعت في الجنوب، وهناك حيث يقسو السادة على العبيد كما

تشدّق: لوى شدقيه تفاصحاً.
كنف: حماية.
أتيح له: سُمح له.
كتوم: لا يُفشي الأسرار.

يقال، لم أعرف سيداً عامل أرقاءه بغلظة. لا. لا تقلقي فأنا مطمئنة لهذه الناحية.

وهنا أدركت أوفيليا أن محدثتها لا تريد أن تلبّي طلبها، وأنها اخفقت في مهمتها فاكتفت بهذا القدر من الرجاء، ثم رجعت إلى توم مكسوفة حزينة النفس. ولكنها لم تشأ أن ترمي سلاحها دفعة واحدة. فقد أبَتْ عليها كرامتها أن تكفّ عن مساعدة ذلك العبد الرقيق العجوز، فقامت لتوّها وكتبت رسالة إلى السيدة شيلبي، وذكرت ما يقاسيه توم من صنوف العذاب ورجَتْها أن تعمل اللازم لافتدائه.

وشرعت أوفيليا بعد ذلك تستعد للعودة إلى موطنها الأول في نيو إنجلاند.

اخفقت: فشلت.

الفصل الحادي والعشرون

في سوق النخاسة

سيق العبيد الذين تركهم سانت كلير بعد موته، وفيهم توم وأدولف، إلى سوق النخاسة ودخلوا مستودع الرقيق حيث يمكثون قليلاً، قبل أن يعرضوا للبيع بطريقة المزايدة العلنية.

وكان توم يحمل حقيبة كبيرة ملأى بالثياب شأن معظم الأرقاء رفقائه، وهناك في المجمع الطويل، وجدوا عدداً غفيراً من الرجال الأرقاء المُعَدّين للبيع على اختلاف الأعمار والأحجام، وكان هذا الجمع يلهو ويعبث وضحكاتهم تتعالى في الجو.

وقال السيد سكرْز النخّاس:

- آه! أهلاً وسهلاً. ادخلوا يا أبنائي ادخلوا.

ثم التفت إلى زنجي كان يرسل فكاهات نابية وضيعة تثير ضحك القوم وقال:

- سامبو! لا تبخل على زُبُنِنا الجدد بنوادرك. إن أرقّائي يجب أن يكونوا دائماً في غاية المَرَح والبِشْر.

سوق النخاسة: سوق بيع العبيد. نابية: قبيحة، لا يقبلها الذوق.

وكان بديهياً أن يشمئز توم من صيحات القوم وضحكاتهم ومن مشاركتهم، فجلس على حقيبته مشيحاً بنظره عن الجمع وسادًّا أذنيه عن صيحاتهم. وراح يغفو وقد أسند رأسه إلى جدار الغرفة!

والمعروف أن المتاجرين بالأرقّاء يبذلون جهودهم القصوى لإحاطة العبيد بجوٍّ من الطرب الصارخ ينسون في غمرته بؤسهم وشقاءهم، ويُلهيهم عن التفكير بمصائرهم. والتدريب الذي سلكه النخّاسون في كسب رضا الأرقاء المؤقت كان من التنظيم بشكل يبعث على الدهشة، فكل زنجي يعرض للبيع في الأسواق الشمالية، حتى وصوله إلى الجنوب، كان يحاط بعناية فائقة واهتمام بالغ. وأكثر ما كان يهمّ تجار الرقيق هو أن يجعلوا من عبيدهم طَوال تلك الفترة أناساً عديمي الشعور قساةَ القلوب غلاظَ الكبد. فالنخّاس يعدُّ أرقّاءه في فرجينيا وكانتاكي، ثم يأخذهم إلى مكان صحي يناسب مزاجهم، فيه ماء غزير فيطعمهم الأغذية المسمّنة ويعلفهم علفاً يوماً بعد يوم. وإذا كان بعض العبيد يصابون بالهزال على الرغم من هذه العناية، يهرع التاجر آنئذ للترويح عنهم بالعزف والشرب والعربدة طوال النهار، فيُسمعهم موسيقى بلادهم وبآلاتهم نفسها فيُسرّون ويهزجون ويرقصون على أنغام الموسيقى.

وأما العبيد الذين يعصون أوامر التجار، ويرفضون الأخذ بأسباب المرح والبهجة، فيُعدّون عناصر خطرة وتنزل بهم أصناف التعذيب والتنكيل. وبحكم هذا التدريب يرى أولئك البائسون أنفسهم مضطرين

يهزجون: يغنون.

للتظاهر بالحبور والفرح طمعاً في أن يشتريهم سيد شهمٌ أو ليتفادوا عذاباً مضنياً قد يسومهم إيّاه النخّاس إذا ما أظهر سوق المزاد أنهم بضاعة غير مرغوب فيها وكاسدة.

- ماذا تفعل هنا أيها العبد؟ ما بالك!؟ قل.

قال سامبو مخاطباً توم بلهجة قاسية صارمة بعد أن ابتعد سيفز عن المستودع، وكان سامبو عبداً أسود فاحماً ضخم الجثة نشيط الحركة يفيض كرهاً وخبثاً.

فأجابه توم باناة:

- سوف أباع بالمزاد العلني، غداً.

- سيباع بالمزاد العلني. ها. ها. اسمعوا يا أولاد هذه النكتة.

وحاول سامبو أن يتحرش بأدولف فصرخ هذا في وجهه:

- أرجوك أن تدعني وشأني!

فقال سامبو:

- والآن أيها الأولاد، انظروا إلى هذا العبد المبيض الذي تفوح منه الروائح العطرية.

واقترب منه وكأنه يريد أن يشمه.

فزأر أدولف بصوت عال:

- أقول لك ابتعد عني!

ليتفادوا: ليتجنّبوا.
يسومهم إيّاه: يحمّلهم إياه.
اناة: تمهّل، تأنٍّ.
مضنياً: متعباً.
كاسدة: غير رائجة.

ولكن سامبو استمر في تنذره السَّمِج. فما كان من أدولف إلا أن وثب عليه وراح يوسعه ضرباً. وضحك الأرقّاء، وصاحوا صيحات الشماتة، وما هي إلا لحظة حتى كان النخّاس بالباب.

وصرخ بهم وهو يهز سوطه الطويل:

- ما هذا؟ أين النظام؟

وعاد كلٌّ إلى مكانه ما عدا سامبو الذي أطلع سيده على أن العناصر الجديدة التي دخلت إلى العنبر هي التي أحدثت الشغب. فاقترب النخّاس سيفز من توم وأدولف ووزع عليهما كيلاً من اللكمات والرفسات، ثم أصدر أمره للجميع بأن يحافظوا على الهدوء والسكينة وعاد إلى حيث أتى...

ذكرنا بعض ما كان يجري في مستودع الرجال حيث كان توم وأدولف، أما ما كان يجري في مهجع النساء فيختلف عن هذا تماماً، فقد كانت هناك مخلوقات لا عدد لهن ولا حد انبطحن على الأرض وفيهن الألوان المختلفة، أشياء من الأبنوس الصرف حتى الأبيض، وكذلك كن يراوحن في الأعمار من الطفلة حتى الشيخة العجوز. فهذه فتاة جميلة لا يزيد عمرها عن العاشرة بيعت أمها فتراها تبكي وليس من يكفكف دموعها الغزيرة التي ذرفتها. وتلك زنجية عجوز معروقة الجلد تنبئ ذراعاها الهزيلتان وأصابعها المعضمة عن شدة كفاحها في الحياة، فهي تنتظر أن تباع غداً كما يباع المتاع الساقط بثمن زهيد أو

تنذره: مزاحه.
المهجع: مكان النوم؛ هجع: نام.
معروقة الجلد: ضعيفة، هزيلة.
العنبر: المخزن.
الأبنوس: نوع من الخشب الأسود اللون.
الساقط: ما لا خير فيه.

بدراهم معدودات. وهناك امرأتان في الزاوية تمتازان عن باقي النساء البالغ عددهن الخمسين أو أكثر، الراقدات في المهجع، بحسن البزة والهندام وجمال الوجه. وقد كانت إحداهن امرأة خلاسية في منتصف العقد الخامس من عمرها ترتدي شبه عمامة حمراء زاهية على رأسها، وتلبس ثوباً نظيفاً أنيقاً. وكانت الأخرى فتاة في الخامسة عشرة من عمرها هي ابنتها وهي نصف خلاسية، كما يبدو من بشرتها الأكثر بياضاً؛ ولكن ملامح الوجه متشابهة بينها وبين أمها.

وكانت الأم وابنتها ولنسمهما سوزان وإميلين تعيشان سابقاً في منزل سيدة كريمة من سيدات نيو أورليانز، فتعلمتا القراءة والكتابة وألمّتا ببعض تعاليم الدين المسيحي. ولكن ابن سيدتهما الوحيد، مدير العمل في ممتلكات والدته، كان طائشاً مبذّراً فانتهى به الأمر إلى الإفلاس، فكان لزاماً عليه أن يبيع أرقّاءه في سوق الرقيق، وبين هؤلاء سوزان وإميلي.

وقالت البنت لأمها وهي تبكي في صمت:

- ماما. ضعي رأسك في حضني واجهدي أن تسلمي جفونك للكرى.

- ليست لي رغبة في النوم يا إميلين. وكيف أستطيع أن أنام وأنا أعلم أنها قد تكون الليلة الأخيرة التي يضمنا بها سقف واحد يا حبيبتي!

- آه يا ماما. لا تقولي هذا. ومن يدري؟ فلعل رجلاً واحداً يبتاعنا معاً...

البزة: اللباس، الثياب. مبذّراً: كثير الإنفاق.

فقالت المرأة:

- أرجو ذلك. ولكني لا أرى ما يدعو إلى التفاؤل.

- ولماذا يا ماما؟ ألم يقل الرجل إننا مليحتان، وإننا سنكون موضع اهتمام المشترين؟

ورجف قلب سوزان إذ تذكرت نظرات النخّاس إلى ابنتها وكلماته لها، وتذكرت كيف أنه تطلّع إلى يدي إميلين ورفع شعرها الجعد، وقال بدهشة: إن ابنتك هذه سلعة من الدرجة الأولى.

وقد خافت سوزان على إميلين ابنتها، وخشيَتْ أن تباع إلى من يسخّرها لحياة الإثم والعار، كما تخاف كلّ امرأة متدينة على فتاتها. ولكن ما عساها تفعل؟ فهي على كل حال محرومة من الحماية وبعيدة عن كل أمل.

وقالت إميلين:

- لنحاول يا ماما أن نبدو أكثر ما يمكن من النضارة والحيوية. فقد يعجب بنا سيد كريم فيشترينا معاً.

فقالت سوزان:

- أريد منك أن تسرّحي شعرك غداً وتتركيه على سجيّته.

- ولكن ذلك يقلل من حسن مظهري وجمال شعري يا أماه.

- هذا صحيح، ولكن إذا فعلت هذا فقد يشتريك رجل شهم لا يسعى وراء الفتنة! فقالت الفتاة:

الإثم: الذنب، الخطيئة. النضارة: الحسن والإشراق.
على سجيّته: على طبيعته.

ـ لا أفهم قصدك يا أماه!

ـ أعني يا بنيتي! إن العائلات العريقة في النسب والمحتد ترغب في شرائك أكثر لو بدوت زاهدة في التأنق والتبرج. لا تسأليني السبب فأنا أعرف طباعهم أكثر منك.

ـ حسناً، يا ماما، سوف أفعل ما ترغبين فيه!

ـ ولنفرض يا عزيزتي أننا افترقنا غداً أو بعد غد، وأنه قُدِّر لكل منا أن تباع إلى سيد، فتذكري دوماً ما علّمتك إياه من صلاح وتقوى وجميع ما علمّتك إيّاه معلمتُك، أي مولاتنا السابقة. ولا تتركي أبداً كتابك المقدس ومجموعة الترانيم. فإذا ما كنتِ وفية للرب الإله فالله يكون وفياً لك.

* * *

وتحت رواق كبير فخم، كان رجال من مختلف الأمم يذرعون الأرض المبلطة بالرخام جيئة وذهاباً، وفي كل جانب من جوانب الرواق المستدير، كانت منابر منتصبة أو لنقل مراكز صُنعت خصيصاً ليقف عليها الدلّالون وجماعاتهم. وقد بدا حتى الآن منبران أو مركزان للبيع متقابلان من البقعة المستديرة، وقد التفت الجماهير حولهما.

وكانت تحيط بمنبر ثالث جماعة من التجار ينتظرون اللحظة التي يبدأ فيها بيع السلع. وفي هذا المركز كان يقف أرقّاء سانت كلير ومعهم توم وأدولف. وهنا كانت تقف سوزان الأم وابنتها إميلين تنتظران دورهما بحزن وانكسار.

المحتد: الأصل.

الدلّالون: من يشرفون على المزاد.

وتجمع حول الأرقّاء المرموقين أناس عديدون، بعضهم كان ينوي الشراء والبعض الآخر همُّه تضييع الوقت والتحديق بالأرقّاء. وكان التجار يتفحصون وجوه الأرقّاء ويبدون آراءهم في كيفية أحوالهم الصحية، كما يتحدث تجار الخيول عن محاسن الخيل أو عيوبها عندما يكونون في سوق الخيل.

ـ هالو! ما الذي جاء بك إلى هنا؟

قال أحد الشبان ذلك وهو يضرب براحة يده على كتف شاب أنيق كان يفحص أدولف مستعيناً بإحدى النظارات.

ـ حسناً، إني أبحث عن خادم. وقد سمعت أن أرقاء سانت كلير يعرضون للبيع.

فقال الشاب الأنيق:

ـ لا أنصحك بشراء أي من أرقاء سانت كلير، فهم مترفون مدلّلون.

ـ لا تخشَ عليّ، فإني لن ألبث حتى أُفهمهم حقيقة مركزهم، وأن سيدهم الجديد غير سيدهم القديم. ويُخَيَّل إليّ أنني سوف أشتري هذا الفتى، فشكله يعجبني.

وكان توم مستغرقاً في التأملات العميقة، ناظراً إلى الوجوه التي تحوم حوله أملاً في أن تقع عيناه على إنسان تأنس إليه نفسه، ويرتاح إليه قلبه ليدعوه بحق مولاه. لقد شاهد رجالاً عديدين، كباراً وصغاراً، هزلاء وضخاماً، ضاحكين ومقطّبين، قساة يسوقون أرقّاءهم كما يسوق

المرموقين: الذين يلفتون الأنظار.

هزلاء: ضعفاء.

مقطّبين: عابسين.

الإنسان البهيمة، أو يقبضون على مملوكهم كما يقبض إنسان على قطعة من الحطب ليضعها في النار أو في سلة المهملات، وأخيراً لم يجد بينهم سانت كلير!

وقبيل البدء بالبيع، ظهر في الجموع وعلى المركز الذي يقف عليه توم رجل قصير القامة مفتول الساعدين كان يشق طريقه بقوة وحزم، فتأمله توم جيداً بقميصه الرقيق وبنطاله القديم المتّسخ فهو يشبه المرابين. حتى إذا بلغ الموضع حيث يقف أرقّاء سانت كلير أخذ يتفحصهم واحداً واحداً. ولم يكد توم يراه قربه حتى شعر بقشعريرة دُعر مفاجئ، إذ كان واضحاً أن الرجل على قصر قامته يبدو قوي الجسم رديء الطبع. كان ذا فم ضخم كبير متسخ يمضغ لفافة التبغ ثم يبصق بعصارة التبغ بين الفينة والفينة على الأرض، وكانت يداه كبيرتين إلى درجة قصوى، ويعلو ساعديه شعر كثيف قذر، وكانت أظافره كريهة بشكل يثير التقزز في النفس!

وحين وصل الرجل بفحصه إلى توم، أمسكه من فكيه واضطره أن يفتح فاه ليرى أسنانه، كما أكرهه على أن يخلع رداءه ليرى عضلاته، ثم طلب منه أن يُقبل ويُدبر ويقفز ويثب، وبعد ذلك سأله باختصار:

- أين نشأت أيها العجوز؟

فأجابه توم وهو يتطلع حوله كمن يحاول النجاة من يد هذا الشرير وقال:

المرابي: الذي يدبّر بفائدة.
يقبل ويدبر: يأتي ويذهب.
التقزّز: الاشمئزاز.

- في كانتاكي أيها السيد.

- وما كان عملك؟

- كنت أعنى بمزرعة مولاي.

فقال الرجل:

- غير معقول!

وتابع الرجل الغليظ سيره، ثم وقف لحظة أمام أدولف، وبصق بعدها مقداراً كبيراً من عصارة التبغ على حذائه الملمع، ومضى في سبيله. حتى إذا بلغ حيث كانت سوزان وابنتها إميلين، تمهّل في الفحص، ومدّ يده القذرة الغليظة إلى ذراع البنت وشدّها نحوه، ثم مد يده إلى عنقها وجذعها ولمس ذراعها بشكل مثير، ثم تطلع إلى أسنانها ثم دفعها إلى صدر أمها التي كانت شاحبة الوجه خوفاً على ابنتها من كل شرير صَلِفٍ يعتدي عليها بنظراته أو بلمساته.

وارتاعت الفتاة وأخذت تصرخ.

فصرخ النخّاس في وجهها:

- كفى أيتها الفاجرة! ليس لك أن تنتحبي. وليس المكان للصراخ. فأنت مُعَدَّة للبيع والبيع قريب.

وبدأ البيع فعلاً.

وبيع أدولف بثمن صالح للشاب الذي صمّم على شرائه من قبل. وتوزع أرقّاء سانت كلير الآخرون بين مشترين مختلفين.

الجذع: جسم الإنسان ما عدا الرأس والأطراف.
صلف: متكبّر.
ارتاعت: خافت.

وقال النخّاس لتوم:

- والآن جاء دورك يا صاح. تقدم. ألا تسمع؟

ووقف توم على المنصة، وأخذ ينظر بجزع إلى الجمع المحتشد حوله. وقد بدا له أن كل شيء يمتزج في جلبة عامة غير واضحة. صراخ الدلّال وصيحاته وهو يعدد مزايا السلعة التي يعرضها للبيع باللغتين الفرنسية والإنكليزية، والأصوات المنبعثة من جماعة المشترين، إذ كانوا يقدّمون عروضهم ويطرحون أسعارهم باللغتين الإنكليزية والفرنسية. وما هي إلا لحظة حتى رست ضربة المطرقة الأخيرة إيذاناً بأن السعر الأخير هو الذي ربح البيع. وما كاد الدلّال يلفظ الكلمات الأخيرة والرقم الذي انتهى إليه السعر حتى التفت توم إلى الرجل الذي رست عليه المزايدة.

وبعد أن بيع توم دفعه الدلّال عن المنصة، وأمسكه الرجل الجِلْف القصير من كتفه ودفعه إلى زاوية قصيّة بعنف، وقال له بصوت أجشّ:

- قف هناك!

ولم يفهم ما يرمي إليه هذا السيد الجديد، والمزايدة ما تزال مستمرة وباللغتين الفرنسية والإنكليزية، وسقطت المطرقة من جديد، وهذا كان معناه أن سوزان قد بيعت، وها هي تنزل عن المنصة وتقف متريّثة وقد تطلعت إلى سيدها الجديد بلهفة وحرارة، وهو كهل تبدو

الجلف: الغليظ الطبع، القاسي.
أجش: خشن.
قصيّة: بعيدة.
متريّثة: متمهّلة.

على سيماه أمارات الاحترام والمحتد الطيب، وتنظر في الوقت نفسه إلى ابنتها التي كانت تمد يدها نحوها، وقالت للسيد الجديد:

- أرجوك أيها المولى، أرجوك أن تشتري ابنتي!

فأجابها الرجل برقة:

- يسعدني أن ألبّي رغبتك؛ ولكني أخشى ألا تمكنني أموالي من إنجاز طلبك!

قال الرجل هذا الكلام، ونظر بشوق أليم إلى الفتاة وهي ترتقي المنصة وتنظر إلى ما حولها خائفة مضطربة.

لقد شاع دم الخجل في وجنتيها وكانتا من قبل شاحبتين، ولمعت عيناها ببريق، فتأوهت أمها بعد أن رأت ابنتها جميلة على هذا النحو، بل كانت أجمل مما رأتها في أي يوم مضى. ولم يتأخر الدلّال في العرض، فأفاض في وصف محاسن الفتاة بلغة هي مزيج من الفرنسية والإنكليزية. فأخذت الأرقام تقفز قفزات سريعة جنونية.

- سوف أفعل أقصى ما أستطيع أن أفعله.

أجاب الرجل الشهم أمَتَه الجديدة، وراح يُلقي بدلوه في المزاد. وما هي إلا لحظات حتى بلغ ثمن الفتاة إميلي حداً يعجز صاحبنا الشهم عن دفعه. فلاذ بالصمت وازداد الدلّال صراخاً وحماسة، ولكن المتزايدين بدأوا يتركون ساحة المزاد واحداً بعد واحد حتى إنه لم يثبت في الميدان غير مواطن أرستقراطي قديم وصاحبُنا مولى توم الجِلف القصير القذر. وزايد الارستقراطي بضعة دولارات قاصداً

على سيماه: على ملامح وجهه.
الشاحب: المتغيّر اللون، المصفرّ.

تخويف منافسه. ولكن خصمه القصير كان أكثر منه عناداً، ومحفظة نقوده أضخم. وما هي إلا لحظات قصيرة حتى أعلن الدلّال أن المزايدة رست على القصير القذر. وهكذا استولى هذا الشرس على الفتاة جسداً وروحاً إلّا أن تأتيها رحمة من لدن الله.

وكان سيدها هذا يدعى المستر ليغري. وكان يملك مزرعة قطن على النهر الأحمر، فانضمت إلى توم ورجلين آخرين وغاصت في بكاء مرير.

الفصل الثاني والعشرون

وراء النهر الأحمر

كان مركّب صغير حقير يشق عباب النهر الأحمر. وكان توم في ذلك المركب مكبّل القدمين، والأصفادُ في رُسغيه، وكان مرمياً في القسم السفلي من المركب. ولكن تلك الأصفاد والأغلال لم تكن شيئاً إزاء القيود النفسية التي تجثم على فؤاده. لقد خبا نور تفاؤله فلا أمل له في النجاة من الرق. وخبا كل نور في عينيه، فلا قمر ولا نجوم تلفت نظره. وقد أخذ يتذكر مجرى حياته، وصارت تمرّ به صور ماضيه ومستقبله كما تمر به أنئذ الأشجار الباسقة الخضراء. تذكر كوخه القديم في كاناكاي وزوجته وأولاده. ثم منزل سانت كلير بترفه وروعته، ورأس إيفا الذهبي وعينيها الشبيهتين بعيني فريسة، وتذكر سانت كلير الفخور بنفسه، الظريف، الطيب القلب والكريم أبداً، وساعات الراحة الممتعة. لقد تذكر كل هذا، وأسف لأنه لن يُتاح له أن يعود إلى ذلك مرة ثانية.

ولعل من أقذر ما يتعرض له الرقيق الطيب الوادع الذي يتكيف مع الجو الذي يعيش فيه، ويكتسب تحت رعاية أسرة كريمة عريقة

الأصفاد: القيود.

الرسغ: المفصل بين الساعد والكف، وكذلك بين الساق والقدم.

العادات والتقاليد والأحاسيس والمشاعر التي ينطبع بها ذلك المكان، هو أنه لا يقضي سحابة عمره في ذلك الجوّ، بل يزحزح من مكانه ليُلقى بين أيدي أناس قساة غلاظ لا يعرفون الشفقة، ولا أثر للشعور الرقيق في قلوبهم، تماماً كما تنتهي الكرسي أو الطاولة التي زُيِّنَت في وقت ما قاعة الاستقبال الفخمة ثم أُلقيتْ محطمةً مشوّهة في المطبخ. وما هو الفارق بين الرقيق والشيء المبتذل سوى أن الأشياء لا تحس ولا تعي في حين أن الإنسان يعجز عن إغفال مشاعره وكبتِ عواطفه.

كان سيد توم الجديد سايمون ليغري قد ابتاع عدداً من الأرقّاء يبلغ الثمانية في نيو أورليانز، وساقهم جميعاً مكبّلين بالأصفاد زوجاً زوجاً إلى المركب البخاري المستعد لرحلة عبر النهر الأحمر.

وعندما وصل رَتَلُ العبيد إلى السفينة، وسارت بهم في عباب النهر، جاءهم سيدهم الجديد وعلامات القسوة على وجهه. وصار يستعرضهم واحداً واحداً حتى إذا ألقى نظرة على توم، وكان ما يزال يرتدي بذلته المخاطة من الجوخ الجيد وقميصه المنشّى وحذاءه اللامع، صاح به:

- قف أيها العبد المنكر.

ووقف توم:

- إخلع هذه العُقْدة!

وفيما كان توم يحاول بيديه المصفّدتين بالأغلال أن يحلَّ عقدة

المبتذل: ما لا قيمة له. تعي: تفهم.
رتل: مجموعة تسير في صفّ.

رقبته، تقدم ليغري لمساعدته بأن جذبها في غلظة وعنف من عنقه ودسها في جيبه.

وهنا عاد ليغري إلى حقيبة توم، وكان قد فتشها من قبل ذلك، وسلب منها ما حلا له. وانتزع منها بنطالاً قديماً وسترة بالية كان توم متعوّداً أن يلبسهما أثناء عمله في الإسطبل، وقال محرراً يدَيْ عبده من أصفادهما ومشيراً إلى موضع مستتر بين الصناديق:

- اذهب إلى هناك واخلع ثيابك هذه الحريرية والبس هذه الثياب البالية. وامتثل توم لأمر سيده ورجع بعد لحظات وقال السيد ليغري:

- قلت لك اخلع نعليك.

وخلع توم نعليه. فصاح به مولاه وهو يلقي إليه حذاء ضخماً غليظاً كان يلبسه الجميع.

- إلبس هذا.

ورغم كل هذه الإهانات لم ينسَ توم أن يدس الكتاب المقدس الغالي على قلبه في أحد جيوبه، وقد أحسن صنعاً بهذا. ذلك لأن السيد ليغري أخذ يفتش جيوب الطقم الذي نزعه عن توم، بعد أن أعاد الأغلال إلى يدي العبد العجوز. ولقد عثر أثناء ذلك على منديل حريري فدسّه في جيبه، كما وقع على أشياء أخرى كان توم يحملها في جيوبه إذ كانت تذكره بإيفا. ولما كانت هذه الأشياء لا ترضيه فقد قذف بها في مياه النهر.

وكان توم قد نسي كتاب التراتيل فلم يُخْفِهِ كما أخفى الكتاب المقدس، وإذ وقع ذلك الكتاب في يد السيد ليغري صاح به:

- جميل! أنت تقيٌّ من غير شك. فما اسمك؟ أنت عضو في الكنيسة، إيه؟

فقال توم في عزم:

- أجل يا مولاي!

- حسناً! إن هذا لا يرضيني مطلقاً، ولسوف أبدّلك وأقتلع هذه العادة من نفسك حالاً، فليس في مزرعتي مكان لزنجي يضيع وقته بالصياح والصلاة أو الغناء، فأنا منذ الآن كنيستك. مفهوم؟! وعليك أن تطيعني وتكون كما آمرك أن تكون!

وفي أعماق توم كان صوت داخلي يجيب بكلمة «لا» وكأنما يرددها صوت خفي. ثم طافت في مخيلته جملة كانت إيفا ترددها على مسامعه «لا تخف يا عمّاه فقد افتديتك وسميتُك باسمي وأصبحتَ منذ اليوم مُلكي».

ولكن السيد القاسي لم يسمع أيّ صوت حتماً. فذاك صوت لم يُقدَّر لأمثاله أن يسمعوه أبدَ الدهر. ولكنه، إذ رأى وجوم توم، حدّق في وجهه لحظة ثم تابع طريقه، ثم وصل ليغري في تفتيشه إلى حيث كانت إميلين تجلس مشدودة إلى امرأة أخرى بالسلاسل الحديدية، فقال لها وهو يتصنع اللطف وقد رَبَتَ على ذقنها:

- حسناً يا عزيزتي، حافظي على مرحك!

ولم تخطئ عينه نظرات الذعر والنفور التي حدجته بها الفتاة فصاح بها مقطّباً:

وجوم: عبوس من شدة الحزن.

ربت: ضرب ضرباً خفيفاً استحساناً.

مقطّباً: عابساً.

- لا. يجب أن يكون وجهك لطيفاً حين أخاطبك، هل تسمعين أيتها الوقحة؟

ثم التفت إلى المرأة الخلاسية التي شدت إميلين إليها وصاح:

- وأنت أيضاً، يجب أن تكوني أكثر مرحاً وانشراحاً. أفهمت؟

ثم تراجع خطوة أو خطوتين إلى الوراء وصرخ بهم:

- هيه! انظروا إليّ جميعكم. ضعوا أعينكم في عينيّ على شكل مستقيم.

وحدّقت العيون كلها في عيني سايمون الرماديتين الضاربتين إلى الخضرة اللتين كانتا تقدحان شرراً كالنار. ورفع قبضته الضخمة الثقيلة فإذا بها أشبه ما تكون بمطرقة حداد وقال:

- والآن، أترون قبضة يدي هذه؟ شاهدوها وقدّروا قوتها.

ووضع جمع كفه على يد توم وتابع قائلاً:

- أرأيتم هذه العظام الصلبة؟ حسناً. ويحسن لي أن أخبركم منذ الآن أن قبضتي لم تصبح هكذا صلبة كالحديد إلا من كثرة ما حطمت من رؤوس العبيد. وإني لم أصادف بعد زنجياً يقوى على مقاومة قبضتي ويبقى حياً بعد لكمة واحدة.

وقرب جمع كفه إلى وجه توم كثيراً حتى رفت جفونه وارتدّ إلى الوراء مذعوراً. وأمسكت النساء أنفاسهن على نحوٍ غير إرادي، وأطرقت جماعة الأرقاء كلها، وعلت وجوههم أمارات الذعر والكآبة. وعندئذ انكفأ سايمون قاصداً إلى حانة السفينة للترفيه عن نفسه.

ارتدّ إلى الوراء: تراجع.

انكفأ: رجع.

- تلك هي الطريقة التي أستهل بها صلاتي مع العبيد.

قال سايمون ذلك لرجل صادف أن كان واقفاً قربه، حين ألقى خطبته على أرقائه.

- مذهبي أن أبدأ قوياً وأن أعرّفهم ما يجب عليهم أن يعرفوه أو ما قد يتعرضون له!

- ولكن أصدقاءك ممتازون على ما رأيت.

فقال سايمون:

- حقاً يا صاح! فإن توم بضاعة نادرة على ما علمت من عارفيه. ولقد كلفني ثمنه غالياً جداً بالنسبة إلى سنّه. وهنالك أيضاً تلك المرأة الصفراء الوجه، ويُخَيَّل إلي أن صحتها عليلة، وقد لا تقوى على العيش أكثر من سنة أو سنتين. فأنا لست من الذين يُشْقون أنفسهم في مداواة الزنوج ومعالجتهم. إني أشغلهم، وعندما يتعبون أبيعهم لأشتري غيرهم. تلك هي طريقتي. وهي لا تكلفني تعباً كثيراً. ولا أشك مطلقاً أنها الطريقة الأكثر توفيراً واقتصاداً في النفقات.

فسأله الرجل الغريب:

- وكم يبقون عادة على قيد الحياة بعد أن تتعبهم؟

- لست أدري. فذلك رهن بنيتهم الجسدية. فأما العبيد البدينون فيبقون ست سنوات أو سبعاً؛ وأما العبيد الهزيلون فيُستهلكون في سنتين أو ثلاث...

الفصل الثالث والعشرون

أماكن مظلمة

بعد زمن ليس بقصير، وصلت السفينة وحمولتها ومن عليها شاطئ إحدى المدن الصغيرة، فغادر ليغري المركب ومعه جماعته وساروا في اتجاه المزرعة التي استطاع ليغري أن يُثري من غِلالها في هذه الحقبة الأخيرة من حياته.

وفي منتصف الطريق المؤدي إلى المزرعة، حدج سايمون إميلين بعينيه الشريرتين وقال لها، وهو يضع كفه الغليظة على كتفها النحيل الرقيق:

«لا تحزني يا صغيرتي العزيزة، فها نحن قد أوشكنا أن نصل إلى المنزل...».

وسرى في جسم الفتاة تيار من الذعر. حاولت أن تتحاشى مداعبات ليغري السمجة بأن أخذت تلتصق برفيقتها أكثر فأكثر، تلك المرأة الخلاسية التي شد وثاقها بها وكأنها تمثّل أمها حقاً.

وأمسك ليغري أذن الفتاة وقال:

يثري: يغتني.

www.liilas.com

- أحسب أنك لم تلبسي **أقراطاً** في حياتك!

- لا يا مولاي!

- لا تحزني فلديّ الكثير منها، وسأقدم لك قرطاً حين نبلغ المنزل شريطة أن تكوني فتاة مطواعة. لا تخافي يا فتاتي فإني لا أرهقك بالعمل، وإنك سوف تقضين وقتاً سعيداً معي، وتعيشين كما تعيش السيدات في المجتمع الراقي. وكل ما أطلبه منك أن تكوني فتاة طيبة ومحبّة!

ووصلت أخيراً العربة التي تحمل سايمون وأرفاءه إلى ممر معبّد، تحيط به على الجانبين أشجار من الازدرخت وارفة الظلال. ويمتد الممر حتى يقود إلى بيت جميل؛ ولكنه يحتاج إلى النظافة والترتيب.

وعندما سمعت صوت عجلات العربة اندفعت أربعة كلاب مخيفة لاستقبالها، وصارت تنبح نباحاً غريباً وتتعلق بثياب القادمين، وتكاد تنهشهم بأنيابها لو لم يسرع لردها عنهم نفر من الأرقّاء القدامى الذين جاءوا بدورهم لاستقبال سيد المزرعة.

وقال ليغري وهو يداعب الكلاب في ارتياح، ويوجه الكلام لتوم وصحبه:

- ترون بأعينكم ما نوع الهلاك الذي أعددته لكم إذا ما **سوّلت** لكم أنفسكم الفرار. لقد ربيت الكلاب على **تعقّب** العبيد **الآبقين** وافتراسهم، فخذوا حذركم!

الأقراط: مفردها القرط: حليّةُ الأذن. **سوّلت:** أغرت.
تعقّب: ملاحقة. **الآبقين:** الهاربين.

والتفت إلى أحد الخدم وقال:

- والآن يا سامبو؟ كيف كانت الأمور تجري أثناء غيابي؟

- على غاية ما يرام يا مولاي!

ثم وجه السؤال إلى عبد آخر وقال:

- كويمبو. هل فعلت ما قلت لك أن تفعله؟

- طبعاً، يا مولاي، وهل يمكن أن أخالفك؟

والظاهر أن هذين الرقيقين كانا من أبرز الرقيق في مزرعة ليغري، وقد ربّاهما على الأساليب الوحشية القاسية كما ربّى على ذلك كلابه، فهما يعذبان كل عبد يخالف الأوامر من دون رحمة أو شفقة.

وقال ليغري:

- يا سامبو، **اقتدْ** هؤلاء الرجال إلى حظيرتهم. ودونك هذه الجارية التي اشتريتها لك. وفصل ليغري المرأة الخلاسية عن إميلين ودفعها إليه مردفاً بقوله:

- لقد وعدتك بأن آتيك بواحدة. أتذكر؟

وصاحت المرأة:

- رفقاً بي أيها السيد. فقد تركت زوجي في نيو أورليانز!

- وما الغريب في الأمر؟ ألا تريدين واحداً غيره؟ لا تنطقي بكلمة. أغربي عن وجهي.

قال ليغري ذلك ورفع سوطه في وجهها ثم التفت إلى إميلي وقال:

اقتدْ: الأمر من اقتاد: ساق، قاد.

- أما أنت أيتها السيدة فبإمكانك أن تدخلي معي إلى هنا.

وما إن دخل ليڤري باب المنزل حتى سُمع صوت نسائي يلغط كلاماً ما بلهجة سريعة آمرة، وقد سمعه توم الذي كان يُجيل النظر في الفتاة بلهفة وجزع، وسمع ليڤري يجيب بغضبٍ ذلك الصوت:

- من الأفضل لك أن تخرسي فإني أفعل ما يحلو لي وأراه خليقاً بي.

ما عاد سكان الأكواخ المجهدون إلى مساكنهم الحقيرة إلا وقت كانت الشمس قد توارت. رجال ونساء عادوا مكدودين وهم يرتدون الأثواب الممزقة القذرة، وكان عليهم بعد كل ذلك التعب الذي أصابهم في جمع القطن، وسياط النظّار تستحثّهم منذ الفجر حتى الغروب، كان عليهم أن يذهبوا إلى المطاحن اليدوية ليطحنوا أجْرَهم من الذرة، ويصنعوا منها أرغفة هي كل طعامهم للعشاء.

إن موسم القطن كان في أوج احتدامه، فكان يرى السيد أن جميع الأساليب مباحة لحمل الأرقّاء على بذل أقصى مجهودهم في جمع القطن.

وقد يقول المترفون ناعمو الأيادي: «ليس في جَنْي القطن أي جهد أو عناء». فنقول لهم: «صحيح أن لمس القطن لا يُضني، ولكن فليعلموا أن سقوط نقطة من الماء على الرأس شيء غير مزعج، ولكن أفظع أساليب التعذيب والتنكيل تكون في إسقاط نقط الماء على

توارت: اختفت.
تستحثّهم: تدفعهم إلى الإسراع في العمل.
أوج: أعلى، أشدّ.
جني: قطاف.

الموضع نفسه من الرأس بصورة مستمرة رتيبة. وكذلك العمل في جني القطن، فقد لا يكون في حد ذاته مضنياً وشاقاً، ولكنه يصبح مرهقاً إذا كان متلاحقاً من دون أي راحة، ساعة بعد ساعة، في تماثُل رتيب، وما يزيده صعوبة وطأة النظّار على العبيد ومضايقتهم المستمرة المتشدّدة».

ونظر توم إلى وجوه الأرقّاء فلم يرَ فيهم سوى وجوه مقطّبة مكفهرة، ورجال قد خارت قواهم وتحطمت نفوسهم، ونساء هزيلات قد وهنت عزيمتهن.

وظلت أصوات الجواريش اليدوية تسمع حتى ساعة متأخرة من الليل. ذلك لأن عددها كان أقل بكثير من عدد الراغبين في الطحن. وكان القوي يطحن حصته ثم يأتي دور الضعيف.

واقترب سامبو من المرأة الخلاسية وألقى كيساً من الذرة أمامها وقال:

- هيه أنت، ما الاسم الذي يدعونك به؟

فقالت المرأة:

- لوسي.

- حسناً، لوسي أنت مولاتي الآن. اطحني هذه الكمية من الذرة، وأعدّي لي عشائي منها، أسمعت؟

فقالت المرأة في يأس حاد:

رتيبة: على وتيرة واحدة.
تماثُل: تشابه.
خارت: ضعفت.

- لن يتاح لك أن تسميني امرأتك ولن أكون لك، فاذهب عني ولا تعكر خاطري.

ورفع سامبو قدمه بالتهديد:

- افعلي ما أمرتك به وإلا رفستك بقدمي هذه!

- في استطاعتك أن تقتلني إذا شئت، وكلما أسرعت بقتلي كان ذلك أفضل لي، فإني أتمنى أن أموت!

وكان توم جائعاً من جراء التعب ورحلة النهار الطويلة في حقول القطن، وكاد يقع على الأرض من شدة الإعياء والتعب. ولقد انتظر دوره في الطحن حتى ساعة متأخرة من الليل، كما أنه ساعد امرأتين تَعِبَتين في طحن نصيبهما من الذرة، وفي خبزها على نار خامدة. ثم مضى يعدّ عشاءه فشكرته العبدتان على عطفه وساعدتاه في إعداد خبزه، حتى إذا فرغ من تناول عشائه جلس يقرأ في الكتاب المقدس على ضوء النار.

فتساءلت إحدى الجاريتين:

- ما هذا؟

فقال توم:

- إنه الكتاب المقدس.

- أوه يا إلهي، إني لم أرَ كتاباً مقدساً مذ غادرت كانتاكي.

فسألها توم بشوق:

الإعياء: التعب الشديد.

- وهل نشأتِ في كانتاكي؟

- نعم، وكانت نشأة طيبة. ولم أكن أتوقع أن ينتهي بي المطاف إلى هذا المكان القذر.

وهنا سألت المرأة الأخرى:

- وما هو ذلك الكتاب على كل حال؟

فأجابتها رفيقتها:

- ألم تسمعي أحداً يتحدث عن الكتاب المقدس؟ لقد كنت أستمع إلى سيدتي وهي تتلو منه أجزاء متعاقبة في كانتاكي، ولكن وا أسفي على ما وصلت إليه حالي! فهنا لا نسمع سوى الصخب والغربدة والأوامر.

فقالت المرأة الأولى:

- أتلُ علينا يا عم شيئاً من كتابك!

وتلا توم:

- «تعالوا إلي يا جميع المتعبين وثقيلي الأحمال وأنا أريحكم».

فقالت المرأة:

- هذا كلام حسن. من الذي قال ذلك؟

فأجاب توم:

- هو السيد المسيح.

فقالت المرأة:

- ترى أين يقيم هذا السيد؟ ليت من يدلني على مكان إقامته

لأذهب إليه، فقد أصبحت على ما يبدو محتاجة إلى الراحة الماسّة. فقد تشقق جلدي لكثرة ما جلدني سامبو اللعين بسوطه. وكذلك فإني مضطرة أن أسهر كل ليلة حتى نصف الليل لأعدّ عشائي. فلا أكاد أغمض عيني حتى يوقظني البوق معلناً بزوغ الفجر والقيام إلى العمل. آه! ليتني أعرف أين يقيم هذا السيد حتى أخبره بما آلاقي!

فقال توم:

- إنه هنا. إنه في كل مكان.

- لا أظنك تقنعني بذلك. إن السيد ليس هنا، فلا تحاول خداعي.

قالت ذلك ومضت ورفيقتها إلى كوخهما لتناما وكذلك فعل توم.

الماسّة: الضرورية.

الفصل الرابع والعشرون

كاسي

تمضي أيام على توم في موطنه الجديد حتى برزت مهارته وتجلت مآثره وسجاياه الطيبة لكل ذي عين بصيرة. فقد كان هذا الزنجي العجوز قادراً على أن ينجز بإتقان أي عمل يعهد به إليه أسياده. وكان إلى جانب هذا مخلصاً في العمل. ولم يستطع البؤس والتعذيب أن ينالا منه أو يوقعاه في اليأس. فقد آثر الانصراف إلى العمل بجد وصبر من دون تململ متكلاً على الله، مسلّماً إياه أموره، ومنتظراً الرحمة من لَدُنه بأن يفتح باب الانعتاق في وجهه ذات يوم.

وفي ذات صباح، وقد كان العمّال محتشدين للعمل في الحقول، رأى توم شخصاً جديداً أثار اهتمامه بين العائلات. كانت امرأة فارعة في الطول رقيقة الحواشي ترتدي ثياباً نظيفة كيّسة. وكانت هيئتها تنبئ أن عمرها يراوح بين الخامسة والثلاثين والأربعين سنة، وأن ضلوعها تُخفي مأساة مفجعة. ويبدو أنها كانت على قدر عظيم من الجمال في شبابها الأول. أما اليوم فقد تغضّن وجهها بخطوط من الألم، وكانت

مآثره: أعماله الحسنة.
آثر: فضّل.
تغضّن: تجعّد.

بشرتها شاحبة تدل على مرض يصيب صاحبتها. ولكن أبرز ما في وجهها عيناها، فقد كانتا كبيرتين شديدتي السواد تظللهما أهداب فاحمة تنضح بيأس مفجع.

وكان يبدو على كل خط من خطوط وجهها تجبُّر شرس وتحدٍّ متمرد، كما كان ذلك واضحاً في كل حركاتها وسكناتها وانحناءاتها أو تحرك شفتيها، وكل حركات جسدها. ولكن الناظر إلى عينيها يرى ليلاً عميقاً من اللوعة لا ينسجم والازدراء الذي يبدو على وجهها، والكبرياء الذي يكلل هامتها.

ترى من أين أقبلت هذه الغريبة؟ ومن تكون؟ ذلك ما كان يتساءل عنه توم. كل ما عرفه عنها أنها كانت تسير إلى جانبه رشيقة الحركة منتصبة القامة رافعة الرأس. أما سائر الأرقاء فكانوا يعرفونها معرفة أكيدة، إذ ما كادوا يرونها بينهم تعمل حتى أخذوا يتهامسون ويعلّقون ضروب التعليقات حول وجودها.

انصرف توم إلى عمله، وكانت تلك المرأة الغريبة قريبة منه، فأخذ يُلقي إليها بين الفينة والفينة نظرات اهتمام، فإذا به يجدها بارعة في العمل خفيفة الحركة، فيبدو العمل بين يديها بسيطاً هيّناً إذا قيس بأوضاع العمال الآخرين. كانت تقطف القطن بسرعة ولباقة بل وباستخفاف كأنها تزدري العمل وتحتقر الظروف والأيام التي أوقعتها في مثل هذا الموقف.

واتفق أن توم كان قريباً في عمله من تلك المرأة الخلاسية التي

هامتها: رأسها.
ضروب: أنواع.

بيعت معه في سوق النخاسة، وكانت في حال قاتلة من الأسى والهزال، فكثيراً ما سمعها تبتهل إلى الله وهي ترتمي خائرة القوى لكاد تسقط من شدة الإعياء.

فما كان من توم إلا أن اقترب منها خلسة وألقى في سلتها بضع حفنات مما تمَّ له جمعه من القطن.

فقالت المرأة وقد أخذها الدهش:

- آه لا تفعل، لا تفعل ذلك، فقد يجرّك ذلك إلى عناء شديد.

وفي تلك اللحظة صادف أن جاء سامبو. وقد بدا كأنه يحمل حقداً خاصاً على تلك المرأة التي ترفض أن تعاشره كزوج. وفي لهجة وحشية قال وهو يهز سوطه:

- ما هذا، أتحاولين الغش، والخداع؟!

ورفس المرأة بعقب حذائه الثقيل، ثم ارتد إلى توم فضربه بالسوط على وجهه، واستأنف توم عمله في صمت. ولكن المرأة التي كانت قبل ذلك على حافة الإغماء سقطت على الأرض مغشياً عليها.

ولم يكد سامبو يراها تسقط حتى هدر:

- لا تخافوا. سوف أعيد إليها وعيها، وسأعطيها منبِّهاً أفضل من الكافور!

وانتزع من ردن سترته دبوساً وغرزه في لحمها حتى رأسه. فأنّت المرأة أنيناً موجعاً ونهضت فصاح بها الجِلّاد:

خائرة القوى: مُنْهَكة، متعبة.
الإعياء: التعب الشديد.

- انهضي أيتها البهيمة واشتغلي، وإلا أذقتك ما هو أقسى وأمر.

وانقضت لحظات واصلت المرأة بعدها العمل في لهفة يائسة. فقال لها الرجل:

- حذار أن تتراخي. أمّا إذا فعلت فَيْقي أن منيّتك ستكون هذه الليلة.

وسمع توم المرأة تقول:

- ليتها تكون الليلة، بل الآن.

ثم سمعها مرة ثانية تقول:

- آه يا إلهي إلى متى تهملني ولماذا لا تساعدني؟

وعلى الرغم من أن توم يعرف ما قد يلاقيه من تعب وعناء في مساعدة تلك المرأة الخلاسية، تقدم نحوها ووضع كل ما جناه من القطن في سلتها فقالت له بيأس:

- لا تفعل، فأنت لا تعلم كيف يتقمون منك؟

فقال توم:

- إني أستطيع أن أحتمل التعذيب أكثر منك.

وعاد إلى مكانه.

وكانت المرأة الغريبة، في تلك الأثناء، قد اقتربت من توم، وما إن سمعته ينطق بهذا الكلام حتى نظرت إليه نظرة بعينيها السوداوين وركزتهما عليه تركيزاً مقصوداً، ثم تناولت مقداراً من القطن الذي في سلتها ووضعته في سلة توم.

المنيّة: الموت.

- أنت لا تعرف شيئاً عما يجري في هذه المزرعة. ولو كنت تعرف لما فعلت ما فعلت، وعندما تقضي هنا شهراً ستجد نفسك مضطراً ألا تجدد المساعدة لأحد.

- ولكن المسيح يحرم هذه المظالم!

فأجابت المرأة بمرارة:

- المسيح لا يزور هذه الديار البتة!

وابتسمت ابتسامتها الصفراء، فاكتشف سامبو حركة المرأة وفهم مغزى ابتسامتها، فسارع إليها حتى إذا صار على مقربة منها صاح:

- ماذا؟ أنت تحت تصرفي الآن. انتبهي إلى عملك وإلا أدّبتك!

- اضربني إذا كنت تستطيع. فلي من القوة ما يحوّل لحمك طعاماً للكلاب أو وقوداً للنار.

وخاف الرجل وتراجع خطوة خطوة إلى الوراء ثم قال:

- وما عساك تفعلين هنا إذاً؟ أنا لم أقصد أن أسيء إليك يا سيدتي كاسي.

وعادت المرأة المدهشة إلى الجني بسرعة عجيبة. فما إن اقترب مغيب الشمس حتى كانت سلتها قد امتلأت رغماً عن أنها وضعت مقادير كثيرة في سلّة توم. وبعد الغروب، سار الأرقاء المتعبون وقد حمل كل منهم سلته على رأسه في اتجاه البناء المخصص لخزن القطن ووزنه وحَلْجه. وكان ليغري هناك مستغرقاً في الحديث مع سامبو وكوريمبو!

الحَلْج: ندف القطن لتخليصه من الحَبّ.

قال سامبو:

- لقد تحقّقت من أن ذلك الرجل المدعو توم سوف يجلب لنا متاعب طائلة، فقد شاهدته بعيني ينقل القطن من سلته ليضعه في سلة لوسي. وتصرُّفٌ كهذا يوحي إلى العبيد الزنوج أنهم مظلومون.

فقال ليغري هائجاً:

سوف أؤدبه! سوف آمره أن يجلد لوسي بالسوط بيده. انتظر قليلاً!

وفي بطء مكدود تقدمت المخلوقات البائسة إلى الغرفة، وقدمت سلالها إلى من يَزِنها. وكان ليغري يدوّن على لوح خشبي أسماء العبيد وقدر القطن الذي جناه كل منهم.

ووزنت سلة توم واجتازت الامتحان... وقدمت لوسي حاملة سلتها. وكانت طافحة تماماً، كما لاحظ ليغري من غير ريب ومع ذلك صاح بها غاضباً:

- ما هذا أيتها البهيمة الكسول؟! عدنا إلى النقص. قفي جانباً وانتظري جزاءك!

وهنا تقدمت كاسي، وسلمت سلتها في كبرياء ولا مبالاة. ولم تكد تفعل حتى حدجها ليغري بنظرات ساخرة، وأطالت النظر إليه بعينيها السوداوين وبدت شفتاها تتحركان لتلفظا كلاماً باللغة الفرنسية لم يفهمه أحد من العمال. أما ليغري الذي فهم ما فاهتْ به فقد رفع

طائلة: كثيرة.
يدوّن: يسجّل.
مكدود: متعب.
فاهتْ: تكلّمت.

قبضته فيما كانت تتكلم، وكأنه كان ينوي ضربها؛ ولكن نظراتها القوية اللامبالية التي حدجته بها كانت كافية لإنزال قبضته فمضت في سبيلها.

عندئذ صاح ليغري:

- والآن، تعال إلى هنا يا توم. إليك هذه الجارية فاجلدها بالسوط، وأنت مثلي تماماً تعرف السبب الذي يستوجب جلدها.

فتوسل توم إلى مولاه قائلاً:

- أرجو أن يُعفيَني مولاي من هذه المهمة... فأنا لم أقم بمثل هذا العمل من قبل ولن أقوى على القيام به.

وهاج ليغري وماج وضرب توم بالسوط على وجهه ضرباً مبرّحاً ثم قال:

- الآن، ألا تزال مصرًّا على موقفك؟

- أجل، يا سيدي.

قال توم ذلك بإباء ومسح الدم الذي أخذ يسيل من خديه وقال:

- مولاي، أتوسل إليك أن تعفيني من هذه المهمة. فبإمكانك أن تقتلني إذا شئت، أما أن تجبرني على جلد إنسانٍ فذلك ما لا أوافق عليه مطلقاً، وإني أفضل الموت على اقتراف مثل هذا الجرم.

وبرقت عينا ليغري ببريق وحشي وصاح ثائراً:

- حسناً، اذهبوا أيها الخطأة فقد جاءكم في آخر الأزمان كلب ورِعٌ أو إنسان نبيل.

إباء: عزّة نفس.
اقتراف: ارتكاب.
ورِع: تقيّ.

بل جاءكم قديس ليحدثكم عن متاعبكم وخطاياكم. ولكن يبدو أنك نسيت أيها الوغد اللئيم قول الكتاب المقدس: أيها الخدم أطيعوا أسيادكم. أولست أنا مولاك! ألم أبتعك بألف ومئتي دولار نقداً وعداً؟ ألست ملكي روحاً وجسداً أيها الكلب؟

قال ذلك، ورفس توم رفسة عنيفة بحذائه الغليظ.

- قل لي!

ورفع توم عينيه إلى السماء فيما كان الدمع والدم يمتزجان على صفحة وجهه السوداء وقال:

- لا. ثم لا. إن روحي لا تخصّك أيها السيد فأنت لم تشترها. بل إنك لا تستطيع أن تشتريها! فقد اشتراها من هو قادر على حفظها. ومهما كنت قوياً فليس في استطاعتك أن تُلحق بي أيّ أذى.

فصاح ليغري بجنون:

- لا أستطيع؟!

وضحك ضحكة ساخرة ثم قال:

- سوف ترى إذاً. سامبو! كويمبو! اجلدا هذا الكلب جلداً يدسم ظهره ويُقعده طوال هذا الشهر.

وأمسك الزنجيان الضخمان توم... وصرخت المرأة في ذعر. ونهض الجميع كلهم فيما كان سامبو وكويمبو يسوقان الرجل العجوز إلى الخارج ليجلداه.

يدسم: يكسر.

الفصل الخامس والعشرون

مأساة المرأة نصف الخلاسية

في ساعة متأخرة من الليل كان توم مرمياً على الأرض، والدم يسيل من جراحه في غرفة قديمة مهجورة كانت معدة لحلج القطن. وهناك بين الآلات المحطمة المتراكمة وبالات القطن التالف، سمع توم الجريح فجأة وطء أقدام في وسط الغرفة فصاح:

- من هذا؟

وانعكس ضوء فانوس صغير على عينيه، فقال:

- آه! هذا أنت يا سيدتي. تاوليني بربك قليلاً من الماء.

ووضعت كاسي الفانوس على الأرض، وصبّت الماء من زجاجة كانت معها، ورفعت رأس توم وقدمت له كوب الماء.

وشرب توم مرات حتى إذا ارتوى قال للمرأة الكريمة:

- أشكرك يا سيدتي.

فقالت كاسي:

- لا تدعُني سيدتك، فما أنا سوى عبدة بائسة مثلك، بل أشد بؤساً منك؛ ولكن ما لنا ولهذا الآن؟ فجراحك بليغة تحتاج إلى العناية.

كانت كاسي قد عاشت زمناً طويلاً مع الأرقّاء ضحايا الوحشية البشرية، فأخذت تتقن التمريض وتضمّد الجراح، فقامت لتوّها بتضميد جراح توم. وما هي إلا برهة حتى شعر توم بالراحة، فأخذ يشكر المرأة من جديد فيما كانت تجلس القرفصاء قبالته، وقد بدت على محيّاها موجة من الأسى المرير.

وصمتت المرأة برهة ثم قالت:

ـ أرأف بنفسك أيها الأخ البائس. لا فائدة ترجى من تهربك. لقد كنت شجاعاً حقاً والحق معك؛ ولكن من الغبن أن تحاول النضال وتبديل العقول. نحن هنا تحت سلطة شيطان، وهو أقوى منك، وعليك أن تبتعد عن كل محاولة تمرّد أو عصيان.

ـ يا إلهي، وكيف أستطيع ذلك؟!

فقالت المرأة:

ـ لا فائدة من الابتهال إلى الله فإنه لا يسمع. وأنا أعتقد أنه ليس ثمة الله. وإذا كان هناك إلٰه فليس من شك في أنه ضدنا. كل شيء ضدنا. الأرض والسماء. وكل شيء يقودنا إلى جهنم فلماذا لا نذهب إليها؟

وأغمض توم عينيه وارتجف لدى سماعه هذه الكلمات الكافرة.

وتابعت المرأة كلامها فقالت:

ـ إنك تجهل قوانين هذا المكان على ما يبدو، أما أنا فأعرفها. لقد مضى علي هنا خمس سنوات تحت سلطة هذا الرجل الوحش،

محيّاها: وجهها.

وإني أمقته كما أمقت الشيطان، فنحن هنا في مزرعة نائية معزولة تبعد أكثر من عشرة أميال عن أقرب مزرعة. وليس هنا رجل أبيض واحد يقوى أن يشهد ضد سيدك وجلادك، إذا ما قرر أن يدفنك حياً أو إذا ما أحرقك بالماء الحار أو قطّعك إرباً إرباً أو ألقى بك إلى كلابه أو شنقك بحبل أو جلدك بالسوط حتى الموت. ليس هنا قانون من صنع البشر أو من صنع الإلٰه يستطيع أن يفيدك أو يفيد أيّاً منّا، وهذا الرجل الوحش لا يتورّع عن اقتراف أبشع الجرائم. ويكفي أن أقص عليك بعض ما شاهدته واختبرته أثناء وجودي عنده حتى ينتابك الجزع وترتجف مفاصلك. على الرغم من أني لم أحب أن أعيش قربه، اضطررت أن أجالسه طوال السنوات الخمس المنصرمة. عشتها معه وتفانيت كل لحظة من لحظاتها بخدمته في الليل أو في النهار. وآخر الأمر فقد ابتاع اليوم فتاة جديدة في الخامسة عشرة من سنها تقول إنها نشأت نشأة دينية قويمة، وتزعم أن سيدتها النبيلة علمتها التوراة والإنجيل، وأنها جلبت معها الكتاب المقدس إلى هنا. ألا فلتهبط عليها لعنة السماء ولتذهب بها إلى الجحيم.

وضم توم ذراعيه وسط الظلمة وجار بالدعاء وقال:

ـ آه يا يسوع! يا سيدي يسوع! ترى هل نسيتنا نحن البائسين؟ ساعدني أيها السيد فإني أموت من الألم. ساعدني. ساعدني يا سيدي.

نائية: بعيدة.

جار: رفع صوته.

إرباً إرباً: قطعة قطعة.

واستطردت المرأة ووجهها تعلوه سحابة من الألم:

- في سبيل من تضحي براحتك وصحتك يا توم؟ بل من هم أولئك الرعاع البؤساء الذين تعمل لتخليصهم من آلامهم. إن أيًا منهم خليق بأن ينقلب عليك عند أول فرصة أو عند أقل إهانة توجه إليه. إنهم جميعاً شرسون قساة على بعضهم البعض.

- يا لهم من مساكين! ما الذي جعلهم متوحشين قساة؟ لو عشت عيشهم لغدوت مثلهم؟ لا. يا سيدتي. لقد فقدت زوجتي وأولادي وبيتي وسيداً كريماً. فلست أستطيع أن أخسر الآخرة فوق ذلك.

قال توم ذلك وصار يصلي.

فقالت كاسي:

- أوّاه يا عزيزي توم! ما هذه الصلوات؟ فقد سمعت بها من قبل وكلها تُلاشي وتحطم. وها هي إميلين الآن تعتصم بهذه الصلوات كما أنك تحاول أن تستجير بها، ولكن ما الفائدة منها؟ عليك أن ترضى بالأمر الواقع وإلا قطعك ليغري إرباً إرباً.

وصمتت كاسي برهة ثم أردفت:

- انظر إلي الآن. انظر إلى حالتي. حسناً، لقد نشأت في بيت ترف ونعمة، وتعلمت في أحد الأديرة الموسيقى والفرنسية والتطريز، حتى إذا بلغت الرابعة عشرة توفي والدي. وإذ لم تكفِ ممتلكاته لسداد الديون المتراكمة عليه، فقد وضعت في لائحة الممتلكات التي عرضت

تستجير بها: تلجأ إليها لتساعدك.

للبيع وفاء لتلك الديون. كانت أمي أمة رقيقة، وكان والدي يعتزم إعتاقها، ولكن الموت عاجله فلم يفعل. وبعد أن غُيّب والدي تحت التراب، اصطحبتنا زوجة أبي إلى مزرعة والدها. وكان يزورنا هناك كل يوم محامٍ شابٌّ كُلِّفَ إنجازَ تصفية الشركة. وقد كان هذا الشاب يحدثني بلطفٍ جم. وفي يوم، جاءنا وبصحبته شاب جميل لم تقع عيني على أجمل منه وجهاً، فمشيت مع الشاب الجميل في الحديقة وتجاذبنا أطراف الحديث، فادعى هذا أنه يعرفني قبل دخولي الدير وأني ولّهتُه حباً، وأنه سوف يصبح حبيبي وزوجي ثم اشتراني بألفي دولار فأصبحت ملكه وكنت بذلك سعيدة لأني أحببته.

لله ما كان أنبله وأنبل تصرفاته! لقد أسكنني في منزل جميل ووضع تحت تصرفي الخدم والخيل والعربات، وسلمني ما أشاء من مال ومتاع. ولكني كنت أطمع في أن أتزوجه فحدثته في هذا الأمر فأقنعني بأن زواجنا مستحيل، وادعى أن حبنا المخلص هو زواج أمام الله. وهكذا رزقت منه ولدين: الأول ذكر وسميناه باسم أبيه هنري والثانية أنثى دعوناها إليزا. يا لله ما كان أجملهما وأحلاهما! كان هنري يمحضهما الحب الكامل ويقول إنه سوف يعترف بهما ولدين شرعيين. وكان يطلب مني أن ألبسهما أجمل الثياب لنذهب معاً في عربة مكشوفة في صحبته، وكان كل همه أن يسمعني مديح الناس لي ولولديه. آه ما أجمل تلك الأيام وما كان أسعدها! ولكن السعد ما لبث أن أفَلَ. فقد كان لهنري ابن عم قدم إلى نيو أورليانز وكان صديقاً

ولّهته: جعلته يُحبني حبًّا شديداً.
أفل: غاب.
يمحضهما: يعطيهما بإخلاص.

له حميماً. أما أنا فقد توجّست من رؤيته شراً، وأيقنت أنه يجلب لي معه الشقاء. وقد صدق حدسي فما انقضت مدّة غير طويلة حتى صار هنري يقضي لياليه خارج المنزل، فلا يعود قبل الثانية أو الثالثة بعد منتصف الليل. وكان يقامر وهناك في بيت الميسر قدمه ابن عمه إلى فتاة فوقع في شباك غرامها. ولما اقترب من درجة الإفلاس عرض عليه ابن عمه أن يبيعني ويبيع ولديا ليتمكن من وفاء ديونه، تلك الديون التي كانت تمنع زواجه منها فباعنا جميعاً!

وعندما تقدم إليّ ابن عمه الوغد وهو يحمل صك البيع قذفته باللعنات وقلت له إني أفضّل الموت على أن أعيش معه. فهدّدني ببيع ولديّ، وادعى أنه أحبني منذ وقعت عيناه علي للمرّة الأولى، وأنه سعى لتوريط هنري بالديون، وأوقعه في شراك المرأة الأخرى ليتمكن من الوصول إلى امتلاكي.

وشاءت الأقدار أن أقع بين يديه فاستسلمت له مرغمة كي لا يبعد عني ولديّ. وهكذا عشت معه مسايرة أُظهر له الود وأخبئ له الكره. ولكن تضحيتي لم تُنْجِني مما كنت أخشى وقوعه، فقد باع الوغد ولديّ إذ كنت مرة وإياه في نزهة. وعندما عدنا لم أعثر لهما على أثر، ولما سألته عنهما أظهر صك البيع بوقاحة فثارت ثائرتي وقد خشي ثورتي على ما يظهر، فأخبرني بأن ولديّ قد بيعا حتماً؛ ولكن أمر استعادتهما مرهون بإرادتي وبمدى استسلامي لشهواته، فأخلدت إلى الهدوء ورضيت بحكمه، وهكذا كان يعللني بالآمال مدعياً أنه ينوي تحريرهما في وقت قريب.

وفيما كنت ذات يوم في سجن البلدة، رأيت جماعة من الناس

محتشدين حول أحد الأبواب. وسمعت آنذاك صوت طفل فإذا هو ابني، ولما رآني أفلتَ من أيدي رجلين أو ثلاثة كانوا يمسكون به واندفع صوبي يبكي ويصرخ وأخذ يتعلق بثيابي. فلحق به الرجال وهم يهدّدون ويتوعّدون. فقال أحدهم إن ولدي كان ذاهباً معه إلى السجن ليلقي عليه درساً لا يُنسى.

وعندئذ تعذبت روحي وحاولت أن أستعطف الرجلين وأتوسل إليهما فأغرقا في الضحك، وانتزعا الولد مني وهو يبكي ويصرخ بأعلى صوته: «ماما! ماما! ماما» فالتفتّ حولي علّي أرى من يساعدني، فوقع نظري على رجل قرأت في ملامح وجهه شيئاً من الشفقة عليّ. فرجوته أن يتدخل في الأمر لمساعدتي فهز رأسه نفياً وقال: إن مولى الولد يدعي أنه قد أذاقه الأمرين، لهذا فهو يريد إدخاله إلى السجن لتأديبه. وعندما رجعت إلى البيت رجوت باتلر أن يتدخل من أجل إنقاذ ابني من السجن، فراح يضحك مني ويسخر من لوعتي، عندئذ ثارت ثائرة نفسي **فزاغت عيناي** واسودت الدنيا في عيني وأظلمت، ولم أدر ماذا أصابني ولم أعِ إلا أني رأيت سكيناً على الطاولة.

وحين عدت إلى وعيي، رأيت نفسي في غرفة نظيفة هي غير غرفتي، ورأيت امرأة سوداء عجوزاً تعتني بي وطبيباً يشرف على معالجتي. وبعد مدة من الزمن علمت أن باتلر غادر المكان وتركني في ذلك المنزل لأباع، وكان هذا هو السبب الكامن وراء اعتنائهم بي كل ذلك الاعتناء البالغ.

زاغت عيناي: غشي بصري.

ورجوت الله ألا أشفى من مرضي؛ ولكن الحمى فارقتني بعد قليل، فأخذوا يضطرونني أن أظهر كل يوم بأجمل ثياب، فصار المشترون يأتون لمشاهدتي ويطرحون علي أنواعاً من الأسئلة، ويتحدثون في السعر الذي سأباع به. وجاء آخر الأمر رجل نبيل يدعى ستيوارت ولما رأى نفسي تقطر بالأسى، اشتراني ووعد بأن يبذل جُلَّ جهده لافتداء ولدي. وبالفعل فقد ذهب إلى الفندق الذي كان يقيم فيه ابني، فأخبروه بأنه بيع من جديد لصاحب مزرعة عند نهر بيرل، وكان ذلك آخر ما سمعته عنه. وأخيراً اكتشف مَقَرّ ابنتي، وكانت تشرف على تربيتها عجوز، فعرض عليها مبلغاً ضخماً من المال لكنها أبت أن تذعن لرجائه. ولقد تبدى لباتلر أن ستيورات يحب أن يبتاع الفتاة من أجل إرضائي، فكتب إلي يهدد ويقول إنني لن أرى ابنتي بعد ذلك أبد الدهر.

كان الكابتن ستيوارت شديد العطف علي فحملني إلى مزرعته الرائعة، وهناك عشنا سعيدين وفي خلال عام وضعت غلاماً. آه ما كان أجمل ذلك الولد وكم أحببته! وكم كان شديد الشبه بولدي هنري! ولكني كنت عقدت العزم على أن لا أترك ولداً من أولادي يحيا ويدب على الأرض. وهكذا وبعد أن بلغ الطفل أسبوعين حملته وقبلته وبكيت عليه طويلاً، ثم سقيته صبغة الأفيون وشددته إلى صدري فيما كان يغرق في نومه الأبدي! ولا تسل كم نُحتُ وانتحبت عليه، وكم تراءى لي عملي هذا إثماً جسيماً، ولكني مع ذلك لم أندم على ما فعلت بولدي، ويكفي أني أنقذته من حياة بائسة كان يمكن أن يحياها، وأبعدت عنه شبح البؤس والمذلة.

تذعن: تخضع.

ترى هل بإمكاني أن أقدم لذلك الطفل أفضل من الموت؟!

وبعد ذلك مات الكابتن ستيوارت متأثراً بوباء الكوليرا، ومات كثيرون غيره، في حين عشت أنا بعد أن اقتربت من باب الآخرة. ثم باعوني في سوق الرقيق، وصرت أنتقل من يد إلى يد حتى ذوى شبابي وذبلت نضارتي، فاشتراني أخيراً هذا الوغد ليغري، وها أنا كما تراني اليوم فريسة الشقاء والألم.

وبعد أن سكتت المرأة لحظة عادت إلى الكلام فقالت:

- وبعد هذا تقول إن هنالك إلهاً، إلهاً يرى كل هذه المظالم ولا يوقفها. من يدري؟ قد يكون ذلك صحيحاً. وقد كانت راهبات الدير يعلمنني أن هنالك إلهاً، وأن هنالك يوماً يحاسب فيه الإله الناس على أعمالهم، فيلقى كلٌّ جزاء عمله وينتقم لنا الله من الظلام. يا لظلمهم فهم يعتقدون ما نعانيه من آلام وما يعانيه أولادنا لا يعد آلاماً!

وفي ذات يوم، عصف اليأس في رأسي فبدا لي وكأن فيّ من الألم ما يكفي لتحطيم المدينة وتخريبها كلها، فأخذت أتمشى في الشوارع على غير هدى، وتمنيت لو تُهدم المنازل وتقع على هامتي وتريحني من بلواي! أجل يا توم، غداً في يوم الحساب سوف أشكوهم إلى الله، وأقف شاهدة على أولئك الذين عذّبوني وعذّبوا أولادي جسداً وروحاً.

لقد كنت في حداثتي ورعة تقية فأحببت الصلاة والله. أما اليوم فلست سوى روح تائهة تلاحقني الأرواح الشريرة ليلاً ونهاراً،

هامتي: رأسي.

وتدفعني لعمل شيء يجب أن أفعله، وثِق بأني سوف أفعله في يوم من الأيام.

قالت ذلك وجمعت كفها بقوة وقدحت عيناها شراراً مجنوناً ثم أردفت:

- سوف أرسله إلى المكان الذي يستحقه في ليلة ما، ولو كان ثمن ذلك إشعالي بالنار وأنا حية.

وبعد هذا ساد في الغرفة سكون رهيب ثم انفجرت كاسي بضحكة هستيرية وسقطت على الأرض.

وبعد أن ثابت كاسي إلى رشدها، اقتربت من توم وقالت:

- هل تريد مني أيها البائس المسكين أية خدمة؟ أتريد مزيداً من الماء؟

وشرب توم ونظر إليها بحنوٍّ وعطف.

- آه يا سيدتي. إني لا أتمنى لك إلا أن تذهبي إلى الذي يستطيع أن يقدّم لك ولجميع الناس المياه الحية...

فقالت كاسي وفي عينيها السوداوين وميض حلم مفجع:

- كنت أرى صورته فوق الهيكل، حين كنت فتاة صغيرة، ولكنه ليس هنا. ليس ههنا شيء غير الإثم وغير اليأس الطويل الذي لا ينقضي!

ثابتْ: عادت.

وميض: لمعان، بريق.

وتطلع إليها وكأنه يريد أن يقول شيئاً؛ ولكنها حالت بينه وبين الكلام وقالت:

- لا تتكلم أيها الرجل البائس. حاول أن تنام إذا كان في استطاعتك.

ووضعت مقداراً من الماء في تصرفه، وغادرت المكان.

الفصل السادس والعشرون

إشارات وعلامات

فيما كان ليڤري يعاقر الخمر في غرفة الجلوس الكبيرة الرطبة قرب الموقد، أخذ يدمدم ويقول:

ـ ليت سامبو يكون طُعمةً للأمراض، فقد أضاع علي مجهود الأيادي الجديدة التي جلبتها. فالعبد العجوز لن يقوى على العمل قبل انقضاء أسبوع أو أكثر. ومتى حصل ذلك؟ الآن والموسم على أشده! يا لك من شيطان يا سامبو!

فقال صوت من وراء الكرسي الذي كان يجلس عليه:

ـ أجل، مثلك تماماً.

كانت كاسي هي صاحبة ذلك الصوت. فلم يكد ليڤري يراها حتى قال:

ـ هذه أنت أيتها الشيطانة. لقد رجعت من العمل أليس كذلك؟!

فقالت في لامبالاة:

ـ أجل، ولسوف أعمل منذ اليوم ما يحلو لي أيضاً.

ـ إنك تهذين أيتها الماكرة الفاجرة، فأنت منذ اليوم ستساقين إلى

العمل يومياً كسائر العمال إن لم ترعوي وترجعي عن غيّك!

ـ إني أفضّل ألف مرة أن أعمل مع العبيد على أن أبقى تحت إمرتك هنا.

ـ ولكنك تحت أمري على أية حال... فاجلسي هنا على ركبتي يا عزيزتي واستمعي إلى صوت العقل.

وحدجته كاسي بنظرات شرسة وقالت:

ـ سايمون ليڤري، خذ حذرك. أنت خائف مني ولك الحق في ذلك. كن حذراً ففي بُرْدَيَّ ألف شيطان.

وهمست بالكلمات الأخيرة همساً.

ودفعها ليڤري بعيداً عنه، ونظر إليها نظرات تموّج بغيظ مكبوت.

ـ على كل حال يا كاسي، لماذا لا نكون أصدقاء كما كنا من قبل؟

وقالت في مرارة:

ـ كما كنت أفعل من قبل!

وصمتت فجأة. لقد ثارت في قلبها دنيا من الانفعالات المريرة اكرهتُها على السكوت.

كانت كاسي قبل ذلك الوقت قد استطاعت أن تفرض على ليڤري نوعاً من النفوذ الذي تلجأ إلى استخدامه المرأة القوية الثائرة في تحطيم

لم ترعوي: لم ترتدعي. غيّك: ضلالك.
بُرْدَيَّ: ثوبيّ، والمراد أن في جسمها ألف شيطان.
اكرهتُها: أجبرتها.

أشرس رجل، ولكنها انتهت في الآونة الأخيرة إلى أن أضحت أكثر انفعالاً وأشد قلقاً وهي ترضخ لنير عبودية ذلك الوحش القاسي. ولكن ليغري مع ذلك كان يخشاها، وهو مصاب بذلك الذعر الخرافي الذي يلازم بعض مخبولي العقول، والشائع عند ذوي العقول اليائسة غير المثقفة.

وعندما جاء ليغري بإميلين إلى البيت، دبت الغيرة الأنثوية في قلب كاسي المحطم، فوقفت إلى جانب الفتاة أول الأمر، فكان من جراء ذلك أن حصل شجار مخيف بينها وبين ليغري أقسم ليغري على أثره بأن يقذف بها لتعمل في الحقول، إذا لم تخلد إلى السكينة، فقبلت كاسي التحدي وعملت يوماً كاملاً كما رأينا لكي تبرهن له عن استعدادها لتحدّيه.

وكان الظلم النازل بتوم المسكين قد زاد في نقمتها فوجهت إلى ليغري أعنف اللوم تلك الليلة. وفيما هما يتشاجران فُتح الباب ودخل سامبو حاملاً بيده شيئاً قد لُفّ بورقة فقال ليغري:

- ما هذا، أيها الكلب؟

- إنها تميمة يا مولاي!

- ماذا؟

- لا شك في أنها إحدى التمائم التي يضعها العبيد في أعناقهم، فتساعدهم على احتمال الآلام والتعذيب. كانت معلقة حول عنق ذلك العبد الأسود توم.

وكان ليغري ممن يؤمنون بالخرافات فتناول الورقة وفتحها

بعصبية، فإذا في داخلها دولار فضي وخصلة طويلة من شعر أشقر طويل، شعرٍ التفّ كأنه شيء حيّ حول أصابع ليغري. وفي هياج مباغت وقف ليغري وطفق يجذب خصلة الشعر بعيداً عن أصابعه وكأنها تحرقه وصاح:

- من أين جئت بها؟ أبعدها عن عيني أحرقها. أحرقها.

وألقى الخصلة في نار الموقد واستطرد يقول:

- لماذا جئتني بها؟ لماذا؟

وأصاب سامبو ذهول مرعب فلم يستطع جواباً. وتمهّلت كاسي وكانت تنوي أن تبرح الغرفة وتطلعت إلى وجه ليغري باستغراب بالغ.

وصاح ليغري في وجه سامبو:

- أحذرك منذ اليوم أن تأتيني بشيء من الأشياء الشيطانية! ثم تناول الدولار الفضي وطرحه خارجاً.

عند ذلك ركن سامبو إلى الفرار، وخرجت كاسي إلى الغرفة المهجورة حيث كان توم المسكين يئن من جراحه بغية مساعدته.

ولكن ترى ما السر الذي جعل ليغري الوحش الشرس يثور ويضطرب لدى رؤيته خصلة الشعر؟ الإجابة عن هذا التساؤل تستوجب منا أن نرجع بالقراء قليلاً إلى الوراء.

وتفاصيل ما نبغيه هو أن ليغري الغليظ القلب الشرس كان قد تربّى في أحضان أمّ تقية ورعة همُّها أن تغرس في نفس ابنها روح التدين وأن تحبب إليه الصلاة. ولما كان أبوه سيئ الخلق مستهتراً

تبرح: تترك.

بالمثل العليا، شب صاحبنا على ما كان عليه والده، وطرح نصائح والدته جانباً من دون أن يعمل بها. وما إن شب ليڤري وصار رجلاً شديد البأس حتى فارق أمه وضرب في البحار يلتمس الثروة غير المشروعة والمتعة الضالّة. ولم يعد إلى والدته بعد ذلك إلا مرة واحدة، فتعلقت به وراحت تصلي من أجل خلاص روحه، وأخذت تنصحه بأن يبتعد عن حياة الإثم والرذيلة.

وقد أثرت ابتهالات والدته فيه، وظهر في قلبه نور الإيمان، ودعته الملائكة إلى إنقاذ نفسه، وكاد يقتنع بأن التقوى أفضل من الفساد. وكان أثر ذلك أن حصل عراك في ذات نفسه؛ ولكنْ كُتب النصر للإثم والشر آخر الأمر فانكفأ ليڤري إلى جهة الشر وانخرط في جنوده، وقد يئست أمه من إصلاحه. وفي ذات يوم، جاءته متوسِّلة وركعت على قدميه وقد بلغ منها اليأس غايته، فرفسها بعقبه فخرت على الأرض فاقدة الشعور. عندئذ ترك ليڤري البيت وعاد إلى سفينته من دون أن يعرف من أمر أمه شيئاً!

وفيما كان ذات يوم يحتسي الخمرة مع جماعة من رفاقه السكارى، جاءته رسالة، وما كاد يفضّها حتى وجد خصلة طويلة من الشعر الجعد قد التفت على أصابعه؛ أما الرسالة فقد حملت إليه نعي والدته وأنها سامحته على هَفْوَته، وغفرت له إذ كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة.

ضرب: سافر إلى أماكن بعيدة.
انكفأ: رجع.
هَفْوَته: غلطته، خطئه.
يلتمس الثروة: يبحث عنها.
يحتسي: يشرب.

وعندئذ ارتعدت فرائص ليڤري ثم أحرق خصلة الشعر وأحرق الرسالة. وفيما كان يشاهد النار تأكل الشعر والرسالة، شعر برجفة تهز كيانه كله إذ تراءت له من خلال ذلك النارُ الأبدية التي تنتظر المجرمين، ثم أخذ يُكثر من الشراب لينسى ما خالط ذهنه من صور بشعة. ولكنه كثيراً ما كان يتمثل في الليالي المظلمة أمه الشاحبة قائمة قربه في الفراش، ويشعر بالتفاف شعرها التفافاً ناعماً حول أنامله، ويحس بالعرق البارد يتصبب من جسمه فيثب من فراشه مذعوراً.

تلك حكاية ليڤري في إيجاز بالغ. وهكذا ما إن وجد ليڤري نفسه وحيداً بعد خروج سامبو وكاسي حتى انفجر بالغضب:

- ومن أين جاء بها ذلك اللعين؟ لقد ظننت أني نسيتها! آلا، ما أشقاني وما أتعسني إذ حسبت أني نسيتها! وعلى أية حال فأنا وحيد الآن، وسأدعو إميلين علّي أنسى معها كربتي! ولكنها تكرهني هذه اللعينة، غير أني لن أبالي بما ستظهره نحوي، ولسوف أحملها على أن تحضر إلي.

وخرج ليڤري من الغرفة مهرولاً، وصعد السلم المؤدّي إلى غرفة إميلي. وفيما هو يرتقي السلم، وصلت إلى أذنيه أنغام صلاة أو غناء تنطلق في البيت، فوقف متمهلاً وأصاخ سمعه إلى الصوت وكان شجياً رقيقاً، فإذا به يسمع أغنية من الأغاني الشائعة بين الزنوج:

«أوه. سيكون ثمة بكاء. بكاء. بكاء.

أوه سيكون ثمة بكاء حين يجلس المسيح للحساب».

وهدر ليڤري:

- لعنة الله على الفتاة! سوف أخنقها.

ثم صاح بصوت أجش:

- إميلين، إميلين!

فلم يردّ عليه غير صدى ساخر رجّعته الجدران. وواصل الصوت العذب إنشاده:

«هناك ينفصل الآباء عن الأبناء!

هناك ينفصل الآباء عن الأبناء.

ينفصلون لغير ما لقاء».

ثم عاد الصوت يتغنى باللازمة.

«أوه! سيكون ثمة بكاء. بكاء. بكاء!

آه سيكون ثمة بكاء حين يجلس المسيح للحساب».

وأصاب ليڤري ذهول غريب جمّده في مكانه. وقد خجل مما أصابه فهو لا يستطيع أن يروي على مسامع أحد ما اعتراه. لقد تصبب العرق بارداً على جبينه، وخفق قلبه خفوقاً غريباً، وخيل إليه أنه رأى نوراً جديداً يضيء الظلمة التي تكتنفه. ولكن أوصاله ارتعدت حين خطر في خلده أن شبح أمه قد يبرز له.

وكان أن عاد ليڤري إلى غرفة الجلوس، فأخذ يحدث نفسه قائلاً: لا بأس في أن أصرخ لنفسي بأني واثق من شيء واحد هو أني سأترك ذلك العبد وشأنه بعد اليوم. وبعد، فماذا يعنيني من ورقته المسحورة تلك؟ هل أكون قد سحرت؟ فالعرق البارد لا يفارقني منذ

اللازمة: كلمات تردد آخر كل مقطع. تكتنفه: تحيط به.

تلك اللحظة. ترى من أين أتى بتلك الخصلة من الشعر؟ لا، لا يمكن أن تكون خصلة شعر أمي. فقد أحرقتها بالنار. إني واثق من ذلك. وكم هو مضحك أن يعتقد المرء أن في مقدور الشعر أن يبعث حياً بعد أن يحترق؟

وصفر ليڤري للكلاب وصاح:

- ليُقِمْ بعضكم وليلازمني.

ولكن الكلاب اكتفت بأن فتحت عيناً واحدة ناعسة ثم أغمضتها وغرقت في الرقاد.

وقال ليڤري:

سوف أدعو سامبو وكويمبو إلى هنا لينشدا ويرقصا على طريقتهما الهندية الخاصة، وبهذا أطرد تلك الأفكار الجهنمية عني.

ولبس قبعته وقصد إلى الشرفة ونفخ في بوق تعوّد أن يستدعي به خادميه المقربين.

وفيما كانت كاسي عائدة من غرفة توم نحو الساعة الثانية بعد منتصف الليل لتنام في غرفتها، سمعت عربدة وصراخاً عالياً ممزوجاً بغناء يصدر من حجرة الجلوس، فصعدت إليها وألقت نظرة على من في الغرفة فوجدت ليڤري وخادميه في حال من السكر الشديد، وهم يغنون ويرقصون ويقلبون أثاث الغرفة رأساً على عقب.

فقالت في نفسها: ليس في التخلص من هذا الوغد اللئيم أي إثم وخطيئة!

الفصل السابع والعشرون

إميلين وكاسي

لما دخلت كاسي غرفة إميلين وجدتها جالسة مرتقبة خائفة في أقصى زاوية من زوايا الحجرة. وانتفضت إميلين لدى دخول كاسي، حتى إذا تبيّنت ملامحها أنست بها واندفعت نحوها تمد ذراعيها مرحبة قائلة:

- ما أسعدني بمجيئك يا كاسي! أهذا أنت؟ لقد حسبته هو القادم الذي دخل غرفتي. آه، هل سمعت تلك الضجة المخيفة التي تنبعث من الطابق السفلي طوال الليل؟ وهل عرفت مثلها من قبل؟

فقالت كاسي:

- وكيف لا أعرفها؟ لقد سمعت مثلها مئات المرات...

- آه يا أختاه يا كاسي! أليس من سبيل إلى أن نبتعد عن هذا البيت الحقير؟ أليس من يُنقذنا فنفرّ إلى مستنقع حيث الحيات والثعابين أو إلى أي مكان بعيد من هنا؟

فقالت كاسي:

- ليس في استطاعتنا أن نفرّ إلى أي مكان غير القبور.

- وهل حاولت ذلك يوماً؟

- لقد رأيت كثيراً من الأرقّاء يحاولون، وعرفت ما كانت نتيجتهم!

فقالت إميلين:

- إني أفضل أن أحيا في المستنقعات بين الأفاعي، وأن آكل جذور الشجر على أن أحيا إلى جانبه، فإني لا أخشى الحيات بقدر ما أخشاه...

- ولقد كان هنا كثيرون يشاركونك هذا الرأي. ولكنك لن تستطيعي البقاء في المستنقعات. إن الكلاب خليقة بأن تتعقب آثارك، وتعود بك إلى هنا وعندئذ...

فصاحت الجارية وهي تتطلع مندهشة:

- ما الذي يعمله عندئذ؟

فقالت كاسي:

- بل من الأفضل أن تسأليني وما الذي يمتنع عن عمله؟ لقد أتقن صناعة القتل جيداً بفعل تعاطيه القرصنة في جزائر الهند الغربية. وإني لو أروي على مسمعك بعض ما شهدته من أهوال، لما غمض لك جفن. لقد سمعت هنا عويلاً ما يزال يدوي في أذني طوال أسابيع بل حتى الآن. وإنك تجهلين أن في مكان لا يبعد كثيراً من هنا شجرة سوداء يابسة مكسوّة بالرماد الأسود. وإذا أردت أن تعلمي أية فظائع ارتُكبت في ذلك المكان فاسألي من تشائين، وسترَين إذا كان هنالك امرؤ يجرؤ أن يجيبك.

وليس في استطاعتي أن أخبرك. بل إني أتحاشى مجرد التفكير في ذلك. والله وحده هو الذي يعلم ما قد تراه أعيننا غداً أو بعد غد.

وغاض الدم في وجه إميلين وقالت:

- شيء مخيف يا كاسي. أخبريني ما الذي علي أن أفعله؟

- ما فعلته أنا. اعملي أقصى ما تستطيعين عمله. اعملي ما ينبغي، واعمليه ببغض.

فقالت إميلين:

- إنه يُكرهني على معاقرة الخمر معه... وإني أكرهها وأكرهه.

فأجابت كاسي:

- من الخير لك أن تشربي. لقد كنت أكرهها أيضاً؛ أما اليوم فأنا لا أستطيع أن أعيش من دونها ذلك أن الأمور المخيفة تبدو أقل قذارة مما هي عليه لمن يحتسي الخمر.

- ولكن أمي حذرتني منها كثيراً.

- كذلك فعلت أمي. ولكن لمَ تتعب الأمهات أنفسهن بمثل هذه النصائح والإرشادات الباطلة؟ أمّا ما يجري هنا فهو أننا نُباع جميعاً وتدفع أثماننا لمالكنا، وتصبح نفوسنا ملكاً لكل من يقدر على استرقاقنا. ومن أجل ذلك أقول لك: اشربي الخمر. اشربي أكبر قدر منها ما استطعت ففي ذلك ما يجعل حياتك أكثر احتمالاً.

* * *

في صباح اليوم التالي، دخلت كاسي على ليڤري فوجدته واجماً كئيب النفس بسبب حلم رآه. رأى في ما يرى النائم وجهاً محجّباً هو

غاض: نقص، غاب، والمراد أن لونها مال إلى الاصفرار.

وجه أمه من دون رَيْب، يمد إليه يداً دقيقة، ورأى أن تلك الخصلة من الشعر صارت تلتفّ حول أنامله ثم أخذت تطوّق رقبته وتضغط عليها بشدة حتى كادت تخنقه. وزاد على ذلك أن كاسي قد رمته في بئر عميقة. فقالت له كاسي:

- والآن، يا عزيزي سايمون، إني أقدّم لك نصيحة.

- وما تلك؟

- أن تترك توم وشأنه.

- ولكن ما الذي يهمك من أمر توم؟

- ماذا؟! أنسيت أننا في أوج الموسم، وأنه ليس من مصلحتك أن تجعل أنشط أيدٍ لك مغلولة عاطلة، في حين يُفرغ منافسوك الجهد للفوز عليك في هذا الميدان؟

وكان لدى ليڤري مطمح واحد شأن معظم المزارعين هو أن ينتهي موسم القطن بأوفر محصول ممكن. وقد صادف أنه راهن مراراً على ذلك الموسم، ولهذا فقد اقتنع بكلام كاسي بسهولة ويسر وقال:

- حسناً. سأخلي سبيله. ولكن من واجبه أن يسألني العفو، وأن يَعِدَني بأن ينهج منذ اليوم نهجاً أفضل.

فقالت كاسي:

- ذلك شيء لن يُقدم عليه توم.

- لا يُقدم عليه؟ ولمَ يا سيدتي؟

الرَيْب: الشكّ.

- لأنه عمل ما هو الصواب والحق فمن المتعذر عليه أن يعتذر.

- ولكنك سوف ترين أنه سوف يفعل مرغماً، فأنا أكثر الناس معرفة بالزنوج، وسترين أيضاً أنه سيتقدم إلي ملتمساً العفو كالكلب هذا الصباح.

فقالت كاسي:

- لن يفعل ذلك. فأنت لا تعرف هذه الفئة من الناس. إنه يفضل أن يُقطّع إرباً على أن يطلب العفو.

- سنرى!

قال ليثري ذلك وذهب إلى الغرفة التي وضع فيها توم جريحاً.

في ذلك الصباح، استفاق توم فبدا له أن وفاته قد غدت وشيكة الوقوع، وعندما أطلّت أنوار الضحى على الغرفة المهجورة، خفق قلب توم ببهجة وحبور واستعد للقاء ربه. وفيما هو يعارك الموت دخل عليه سيده ليثري ورفسه برجله باحتقار وقال له:

- حسناً يا توم. كيف تجد نفسك الآن؟ أحسب أن الدرس الذي أخذته كان كافياً!

واعتصم توم بالصمت.

فصاح به ليثري:

- انهض أيها الحيوان القذر.

ورفسه برجله من جديد.

ملتمساً: طالباً.

الضحى: وقت ارتفاع الشمس.

فتحامل توم على نفسه ونهض وواجه مولاه مرفوع الجبين. فتطلع إليه ليثري شزراً وقال:

- عجيب أن تقابلني بهذه الوقفة الجبارة. ويبدو أنك لم تأخذ نصيبك من الضرب الكافي. حسناً اركع الآن أمامي واطلب الصفح عما بدر منك الليلة البارحة.

ولم يتحرك توم.

- اركع أيها الكلب أقول لك.

وضربه بسوطه.

فقال توم:

- مولاي لا تحملني على فعل ما لا أستطيعه. فقد فعلت ما هو حق في اعتقادي. وسوف أقف الموقف نفسه إزاءك، إذا اضطررت إلى ذلك في المستقبل.

- إذاً ما قولك لو شددت وثاقك إلى جذع شجرة.وأضرمت النار حولك؟ إنه لمشهد جميل، أليس كذلك؟

فأجاب توم:

- مولاي أنا أعلم أن باستطاعتك أن تميتني؛ ولكن بعد أن تقتل جسدي لن يبقى شيء تستطيع أن تعذبه. فأنا على استعداد أن أقدم لك قوّتي كلها ووقتي كله وإخلاصي في العمل من دون تفكير. أما نفسي فلا أقدمها إلى أي إنسان فانٍ مثلي، بل أقدمها إلى الله وحده وأنفذ

وثاقك: رباطك.

WWW.Liilas.com/vb3

أوامره قبل كل شيء، سواء عشت أو مت!

.. كن على ثقة من أني لا أخشى الموت أبداً، وأنت تستطيع أن تجلدني بالسياط الفولاذية وأن تحرمني الطعام والماء، وأن تحرقني بالنار، ولكن ذلك لا يغضبني بل إنّه، على العكس، يعجّل في تركي هذا العالم الفاني لأذهب إلى عالم آخر هو أحب إلي من هذا العالم!

الفصل الثامن والعشرون

عاد توم إلى العمل في الحقل يكدح من الصباح حتى ساعة متأخرة من الليل، فعاوده الضعف الجسماني وتراءت له مأساته مخيفة رهيبة، فخالطه الغمّ وسيطر عليه الأسى. لقد فكر في الرسالة التي بعثت بها الآنسة أوفيليا إلى أصدقائه في كانتاكي، وفيها تضرع إلى الله أن يرسل إليه من ينقذه من [redacted] الشر التي [redacted] فيها. وأخذ المسكين يترقب منقذه ساعة ساعة ويوماً بعد يوم، حتى إذا خاب رجاؤه ولم يجد في جوّه إلا السراب الخادع، ساورته شكوك مرة فأخذ يقاومها. وهذه الشكوك كانت تلقي في فكره الخوف حيناً، كما كانت تسوقه أحياناً إلى الاعتقاد أن من [redacted] الذي لا طائل منه أن يستمر في تقوى الله لأن الله قد نسيه وتخلى عنه وهو في أشد الحاجة إليه.

ومن البديهي أنه عندما تضعف النفس عن احتمال أي عبء ثقيل، تتكاثر المشقات والأتعاب على أعصابنا وأعضائنا الجسدية،

فحماة: الطين الأسود.
يتردى: يسقط.
العبث: اللهو.

حتى على معنوياتنا واعتقاداتنا. وتثور ثائرتنا في يأس لزحزحة ذلك الثقل الذي يقصم ظهر الإنسان ويقضّ مضجعه ويهدّ كيانه.

ومن هنا يمكننا أن نستخلص القول: إن الصبر والشجاعة هما وليدا المصاعب والأوجاع، وهذا ما وقع لتوم نفسه. فإن المظالم التي تفنن ليغري مولاه في إنزالها به قد بلغت ذروة الوحشية والبشاعة. في حين كانت يد الإيمان لا تزال مستجيرة بالصخرة الأبدية؛ ولكن بقبضة حذرة دب في عروقها اليأس المرير. وكان يجلس شارد اللّب موزع النفس قرب النار المتّقدة، حين بدا له كأن كل أمل في النجاة قد انهار حوله.

وفكّر توم جيداً بذعر ودهشة في ما أصابه، فبرز له وجه مشرق يتوّجه إكليل من الشوك والدم يسيل من جراحه. وأمعن توم النظر في ذلك الوجه الإلهي والصبر الذي يتجلى على ذلك الوجه، فاستيقظت روحه الضعيفة من شكوكها وبسط يديه وجثا على قدميه، فيما كانت الرؤيا تتحول تدريجياً وتتبدل. فإذا بالأشواك التي تكلل هامته تنقلب إلى أشعة من بهاء ومحبة، وإذا بذلك الوجه نفسه يلتفت إليه بحنان وعطف ليقول له بصوت حنون: «طوبى لمن يصبر ويقاوم لأنه سيجلس معي على عرشي».

وحين ثاب توم إلى نفسه كانت النار قد خمدت، وإذا ثيابه تعتصر بالعرق الغزير. وقد ولّت أزمَنة الروح الرهيبة وانقضت وامتلأت جوانح نفسه بالبِشر والارتياح العلوي، فهو لا يخشى بعد ذلك الجوعَ

يقض مضجعه: يمنعه النومَ. المتّقدة: المشتعلة.

والبرد أو التحقير والإهانة الخبيثة والتعاسة. ونظر توم بخشوع إلى نجوم السماء الخالدة التي ما فتئت ترعى الإنسان وتلقي عليه أضواءها الملائكية، ثم راح ينشد في سكون الليل الجليل تمتمات ترنيمة تعوّد إنشادَها سابقاً، وقد غمره شعور سعيد لم يُحِسَّ به من قبل.

«إن الأرض سوف تذوب كالثلج
وإن الشمس سوف تفقد أنوارها
ولكن الله الذي دعاني هنا إليه
سوف يكون لي إلى الأبد».

وحين ظهر الصباح ولاح، كان في عداد أولئك البائسين المرتجفين من البرد، الذين استيقظوا من سُباتهم ليهرعوا إلى الخيل، رجلٌ يمشي بخطى سعيدة وادعة، لأن إيمانه بالله العلي القدير، إيمانه بالحب الخالد كان أقوى من الأرض التي يسير عليها.

ومنذ تلك اللحظة انفتحت في قلب ذلك المخلوق المعذب على الأرض كوّة سلام لا سبيل إلى سدّها. فقد زالت عنه تلك الأحزان والمخاوف بل تلك الرغبات التي كانت تملأه أسى ولوعة. والتزمت تلك النفس البشرية التي طالما تعذبت وناضلت التزاماً كلياً بالإرادة الإلهية التي هي جزء منها.

ولاحظ ليغري وأرقاؤه جميعهم ذلك النطور الذي ألمّ بنفس توم، وحاروا في تعليله وتاويله. وفيما كان ليغري ذات مساء عائداً من

كوّة: طاقة، نافذة صغيرة. ألمّ: حلّ.
تعليله: معرفة علّته (أي سببه). تاويله: تفسيره.

رحلة قام بها على حصانه في المدينة المجاورة، وكانت الليلة مقمرة والنسيم عليلاً، سمع توم ينشد ترنيمة كنائسية فرفع في وجهه السوط وصاح به:

- كيف تجرؤ أن تطلق لصوتك العنان في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل. الأفضل لك أن تطبق فمك الأسود وتأوي إلى فراشك.

فأجابه توم:

- نعم يا مولاي.

وكان توم يغط في نوم عميق هادئ، عندما أيقظته كاسي من شباك الغرفة ودعته للخروج فنهض جذلاً مستبشراً.

كانت الساعة تراوح ما بين الواحدة والثانية بعد منتصف الليل. وقد لاحظ توم على ضوء القمر في عيني كاسي الواسعتين السوداوين بريقاً وحشيًّا ثائراً كان يعصف بهما.

- تعال إلي ولا تخف أيها الأب توم. وجذبته بيدها الصغيرة من معصمه إلى الأمام بقوة وعزم وقالت له:

- تعال، فعندي أخبار أريد أن أبثّك إياها.

فقال توم في قلق:

- وما تلك الأخبار يا كاسي؟

- يا توم، ألا تريد أن تنعم بحريتك؟

أبثّك إياها: أفشيها لك، أبوح لك بها.

فقال توم:

- سوف أنعم بها في وقت قريب إن شاء الله!

- ولكن في استطاعتك أن تنعم بها الليلة. هيّا.

وتردد توم:

فركزت عينيها السوداوين عليه وهمست في أذنه:

- تعال انظر فهو نائم كالقتيل. لقد سقيته مقداراً زائداً من البراندي فغرق في النوم حتى أصبح كالميت. تعال. فالباب الخلفي مفتوح وهنالك فأس حادة. لقد أحضرتها ووضعتها هناك. وباب غرفته مُشرَع، وسوف أدلّك على الطريق. لقد كنت عازمة أن أتولى قتله بنفسي؛ ولكنّ ذراعيّ ضعيفتان ولا أقوى على القيام بهذه المهمة. تعال. تعال ونفّذ ما أقوله لك.

- لا. لا يا سيدتي. لن ألوّث يدي بالدم ولو أُعطيت الدنيا ثمناً لذلك.

فقالت كاسي:

- ولكن فكّر في هذه المخلوقات البشرية البائسة. إننا قد نوفق إلى تحريرهم جميعاً، ونذهب إلى مكان من المستنقعات ونقطن في جزيرة نستطيع أن نعيش فيها في عزلة عن العالم.

وأجابها توم في حزم:

- لا. لا. إن الخير لا ينبثق أبداً من الشر. إني أؤثر أن أقطع يميني قبل أن أقترف هذا المنكر.

مُشرَع: مفتوح.

أؤثر: أفضّل.

فقالت:

- إذاً سأقوم بهذه المهمة أنا بنفسي.

- بربك يا كاسي. لا تفعلي ذلك. بحق المسيح المخلص الذي مات من أجلنا لا تسلّمي نفسك الغالية للشيطان. إن هذا العمل الشرير لن يعطي إلا الشر. إن الله لم يطلب منا أن نعاقب أعداءنا، بل علينا أن نتعذب ونتحمل حتى يأتي بملكوته.

فقالت كاسي:

- انتظر مجيئه. لقد انتظرت حتى ضاق صدري واعتلّ قلبي. لماذا يفرض عليّ المخلّص أن أتعذب وغيري ينعم؟ لماذا يفرض على مئات من المخلوقات التّعِسة أن تتعذب؟ ألا يمتص ليغري الشرير دمك امتصاصاً؟ لا. لقد دُعيتُ إلى العمل المُجدي. وإن الضحايا تدعوني للانتقام ولسوف اسفح دم ذلك الشرير.

فأمسك توم يديها الصغيرتين وصاح:

- لا. أستحلفك، أيتها الإنسانة الضالة الشقية. إن معلمنا يسوع لم يسفح سوى دمه وحده. ولقد فعل ذلك لكي يفتدينا حين لم نكن بعد أصدقاء له. ساعدنا يا الله أن نطبق تعاليمه ونقتفي سيرته ونحب أعداءنا كما أحب أعداءه.

فقالت كاسي وقد لمعت عيناها ببريق وحشي:

اعتلّ: مرض.
اسفح: أسيل، أريق، أسفك.
المُجدي: النافع.
نقتفي: نتبع.

- نحب مثل هؤلاء الأعداء؟! ذلك ما لا طاقة للحم والدم على احتماله.

- لا، يا سيدتي، ليس ذلك بمتعذر. ولكنه هو يمنحنا القوة لملاقاة ذلك الشر والتغلب عليه وهذا هو نصرنا. وعندما نستطيع أن نحب جميع الناس ونعمل من أجلهم، عندئذ نربح المعركة وننتصر. فليكن اسمه مباركاً ومجده دائماً.

ورفع توم رأسه إلى العلاء وعيناه دامعتان، وأخذ يصلي بصوت أجش. فسقطت دموع توم الملتهبة على روح تلك المرأة القلقة الثائرة سقوط الندى فخمدت النار المضطربة في قلبها وأطرقت ملياً. وحالاً لاحظ توم أن تقلصات يديها قد ارتخت فيما كانت تقول:

- ألم أخبرك من قبل أني فريسة الروح الشريرة؟!

آه، أيها الأب المحترم. إني أتمنى أن أصلي ولكني لا أقوى على الصلاة. لم يُتح لي أن أصلي منذ اليوم الذي بيع فيه ولداي. إن ما تقول يا توم هو حق، ولكني عندما أجرّب أن أصلي أجدني مضطرة أن أكره وألعن. لهذا فليسامحني الله فأنا لا أستطيع أن أصلي!

فقال توم في حنان:

- أيتها المرأة البائسة، لا تسلّمي نفسك للشيطان الذي يريد أن يستولي عليك، وإني سأصلي لك ليحفظك الرب الإله من شره.

ووقفت كاسي صامتة. بينما انحدرت على خديها دموع مهطالة مريرة.

مهطالة: غزيرة، تنزل متتابعة.

وقال توم في لهجة المتردد:

- سيدتي. إذا كان في استطاعتك فعلاً أن تفرّي من هنا فإني أنصح لك بأن تهربي مع إميلين. أعني إذا كان في إمكانكما أن تفعلا ذلك من غير إراقة دماء.

- وهل تحاول ذلك معنا أيها الأب توم؟

- لا أستطيع أن أرافقكما، فمهمتي قائمة بين هؤلاء البائسين، ولسوف أظل معهم حتى يأتينا الله بالفرج. وسأحمل صليبي كما يحملون حتى نهاية الطريق. وإن الموضوع يختلف بالنسبة إليكما. فإنكما ستبقيان معذبتين، وليس في طاقتكما الصبر على ذلك. وأرى من الخير لكما أن تبرحا المكان إذا كان ذلك ممكناً.

فقالت كاسي:

- ليس من سبيل إلى ذلك سوى القبر، وإني لواجدة فيه راحتي. لأن الحيوانات العجماء والطيور لا بد من أن تجد لها منزلاً في مكان ما، وكذلك الحيات والتماسيح لها موطن تعيش فيه وترجو فيه الراحة، أما نحن فليس لنا مسكن ولا وطن ولا نزل نأوي إليه. فإذا ما ذهبنا إلى المستنقعات المرعبة تعقبتنا الكلاب ومزقتنا إرباً إرباً. الجميع ضدنا حتى البهائم هي عدوة لنا، فإلى أين نذهب؟

وصمت توم لحظة ثم قال:

- إن الذي أنقذ دانيال من مخالب الأسود... والذي سار على الماء وأمر الرياح أن تهدأ فسكنت لم يمت، وهو يمدّ لكما يد

ان تبرحا: أن تغادرا.

العجماء: التي لا تنطق.

المعونة. وإني واثق أن في استطاعته أن يحفظكما سليمتين. حاولا، وسوف أصلي بكل قواي من أجل سلامتكما.

ما أعجب تفكير الإنسان وما أغرب قوانينه! فقد تكون في موقف حرج تعوزنا الحيلة، فإذا بنا نقف على ما يوصلنا إلى محجتنا، فتلمع في رؤوسنا فجأة وعلى ضوء تفكير جديد فكرة طالما غفلنا عنها، وكأنها لا فائدة منها. فإذا تلك الحصاة ماسّةً تبهر الأنظار وتأخذ بمجامع القلوب.

لقد فكرت كاسي خلال ساعات بمختلف الخطط التي يمكن اصطناعها لتوفق في الهروب من ذلك الجحيم. ولكنها كانت تستبعدها كلها بوصفها فاشلة وغير منطقية. ولكن خطة واحدة لمعت في ذهنها فجأة، خطة كانت بسيطة وسهلة بحيث ملأت نفسها بالأمل الحي، فقالت كاسي فجأة:

- أيها الأب المحترم. سأحاول ذلك!

فقال توم:

- حسناً. ليساعدك الرب الإله.

اصطناعها: اختلاقها.

الفصل التاسع والعشرون

الحيلة

كانت في منزل ليغري علّيّة واسعة عريضة؛ ولكنها كانت مهملة فَعَلَتْها طبقة من الغبار، ونسجت فيها العنكبوت قصورها الفاخرة. وكانت أمتعة متنوعة الأشكال والأنواع متراكمة في تلك الفسحة. فقد خلّف أصحاب المنزل القدامى مقادير كبيرة من الأثاث العتيق والحاجات غير الضرورية. وفي جانب العلّيّة صندوقان ضخمان من الصناديق التي ينقل فيها الأثاث. وهنالك نافذة صغيرة يعلوها الغبار، وتخترقها أشعة باهتة تنعكس أنوارها الضعيفة على المناضد والكراسي المهملة ذات السندات العالية التي شهدت في ماضيها عهوداً زاهية.

كانت تلك العلّية بوجه عام مكاناً موحشاً يبعث في النفس الخوف. ولهذا فقد سَرَتْ بين الزنوج إشاعات مرعبة عن الأشباح والأرواح حول ذلك المكان. وقد سجن فيها ليغري قبل عدة سنوات امرأة زنجية. أما ما قاسته تلك المرأة من آلام وما جرى لها فهذا ما نكفّ عن ذكره، فقد كان الأرقّاء يتهامسون في ما بينهم إذا خلا

علتها: ظهرت فوقها.

بعضهم إلى بعض أن المنكودة الحظ أخرجت من ذلك المكان ميتة. ثم أخذت الأقوال تتردد بعد ذلك حول موتها، وأخذت اللعنات تُصَبّ عليها وعلى ذلك المكان المسحور. وقد علم ليغري بما يتحدث به العبيد، فخاف وارتاع وأقسم ألّا يترك المجال لرقيق أن يتحدث عن ذلك الحادث أو عن ذلك المكان. وكل من يخالفه كان يشده بوثاق ويلقيه هناك طوال أسبوع.

وكان أن هجر سكان المنزل تلك الغرفة مع الزمن، وأهملوا حتى السلم المؤدي إليها، والرواق المؤدي إلى السلم، وغابت الأسطورة في طيّات النسيان. ولكن كاسي تذكرت فجأة قصة تلك المرأة، فأحبت أن تستفيد منها لانتزاع حريتها وحرية زميلتها في العذاب، إميلين، فعمدت إلى هذه الحيلة الجهنمية.

كانت غرفة نوم كاسي تقع تحت العلّيّة المهملة مباشرة. وفي ذات يوم أوعزت إلى الخدم، أن ينقلوا أثاث غرفتها وأمتعتها كلها إلى غرفة أخرى بعيدة. وفيما كان الخدام منهمكين بإنجاز العملية رآهم ليغري، وكان عائداً من النزهة، فسأل كاسي عن السبب الذي من أجله رغبت في الانتقال إلى غرفة جديدة فقالت:

ـ لأني بتّ مشتاقة إلى أن أنعم بشيء من النوم.

ـ النوم؟ حسناً. ولكن ما الذي يحول بينك وبين النوم؟

فقالت كاسي:

المنكودة الحظ: السيّئة الحظ.
ارتاع: ذُعر، خاف خوفاً شديداً.

- إذا كان يعنيك أن تعرف فإني مستعدة أن أحدثك عن ذلك.

فصاح بها ليڤري:

- تحدثي أيتها الخبيثة!

- آه. لا لزوم للحديث. ولكني لا أعتقد أن حديثي قد يزعجك أو يقلقك. فكل ما هنالك أني أسمع ليليًا من العلّيّة أنّاتٍ مزعجة مؤلمة وشجاراً بين أناس، وأشياء تتدحرج، وذلك منذ نصف الليل حتى الصباح.

فسألها ليڤري في قلق وهو يتكلف الضحك:

- ما هذا؟! بعض الناس في علّية البيت؟ ومن يكون هؤلاء يا ترى؟

ورفعت كاسي عينيها السوداوين الحادتين ونظرت إلى وجه ليڤري نظراتٍ شَعَرَ كأنها تنفذ إلى عظامه.

- صحيح يا سايمون. من هم؟ أطالبك أن تخبرني. أحقاً لا تعرف من هم؟

وحاول ليڤري أن يضربها بسوطه، ولكنها انسلت في خفّة واجتازت الباب ثم تلفتت إلى الوراء وقالت له:

- لو نمت في تلك الغرفة إذاً لعرفت كل شيء عنهم. ولعل من الخير لك أن تجرّب ليلة واحدة.

وأغلقت الباب خلفها في الحال.

وما كادت تقول هذا حتى تملك الخوف قلب ليڤري فأخذ يرغي ويزبد. وتوعّد بأن يكسر باب العلّية، لكنّه ما لبث أن آثر السكوت.

ومضى إلى غرفة الجلوس فعلمت كاسي بفراستها أن سهمها لم يطش وأن خطتها ستنجح، فبدأت منذ ذلك الحين تحطّم أعصاب سيدها تحطيماً متواصلاً. وأخذت تنفّذ الخطة فأدخلت في ثقبٍ مؤدٍّ إلى العلّية عنق زجاجة قديمة بشكل منحنٍ بحيث لا تكاد الريح أو النسيم يمسها خفيفاً حتى يصدر عن فم الزجاجة ما يشبه الأنين الموجع المُثير. وإذا اشتدت الريح كان الأنين يتحول مع الصفير إلى ما يشبه الصراخ المخيف.

وكان الأرقّاء يسمعون في الليل هذه الأصوات حيناً بعد حين، فيخافون، وتحيا في مخيلتهم ذكرى أسطورة الأرواح القديمة. وما هي إلا أيام حتى امتلأ المنزل بمن فيه بالذعر والخوف المرعبين المخيفين. ومع أنّ أحداً لم يجرؤ على إخبار ليڤري عن قصة الأموات، فقد كانت تراوده تلك المخاوف إذ كان يجد نفسه مطوّقاً بالخرافات.

وبعد ليلة أو ليلتين كان ليڤري مضطجعاً في غرفة الجلوس القديمة يصطلي قرب النار، وكانت الرياح عاصفة مزمجرة تتلاعب بالنوافذ والأبواب وتكاد تحطمها، وتهزّ المدخنة حتى كادت تخربها وتثير الدخان والرماد بين الحين والآخر.

قضى ليڤري في تلك الغرفة عدة ساعات وهو يحسب ويقرأ الصحف، في حين جلست كاسي في الزاوية تحدّق به مكفهرّة الوجه.

الفراسة: إدراك الباطن أي ما يفكّر فيه الإنسان، من خلال ظاهره (أي ملامحه وشكله).

سهمها لم يطش: أي أنها أصابت الهدف. مطوّقاً: محاطاً.

يصطلي: يستدفئ. مكفهرّة الوجه: عابسة.

وألقى ليغري صحيفته ثم تناول كتاباً كان قد رأى كاسي تطالعه في الهزيع الأول من الليل وأخذ يتصفّحه. كان الكتاب بمجموعة قصصه ومواضيعه حلقة من تلك المسلسلات الكتبية التي تقدم للقراء عديداً من الروايات الإجرامية واللصوصية أو الحكايات المخيفة المتعلقة بالأشباح والأرواح وما أشبه ذلك. وقد استهوته القصة أول الأمر فراح يقرأها برغبة حتى أدركه النعاس. فطرح الكتاب جانباً وسأل كاسي:

ـ أعتقد أنك لا تؤمنين بخرافة الأرواح يا كاسي. أليس كذلك؟ إن ما يسمونه أرواحاً وشياطين ما هو في الواقع سوى فئران ورياح. كنت أسمع مثل هذه الضجة في عنبر السفينة؛ أما الرياح فحدثي عنها ولا حرج ففي استطاعتك أن تظني فيها الظنون.

لم تجب كاسي عن تساؤل ليغري بل اعتصمت بالصمت، وحدقت بعينيه بقوّة إذ تحقّقت أن سايمون قد أخذ يقلق ويخاف!

ولكن ليغري صاح بها:

ـ تكلمي أيتها المرأة الفاجرة. ألا تعتقدين بذلك؟

وهنا قالت كاسي:

ـ هل تستطيع الفئران أن تهبط السلم وتجري عبر المدخل، وتفتح باباً كنت قد أوصدته ووضعت كرسياً خلفه، ثم تسير وتسير حتى تبلغ مضجعي؟

الهزيع: القسم، وهزيع الليل ربعه أو نصفه. استهوته: استمالته، شوّقته.
عنبر: مخزن. مضجعي: موضع نومي، سريري.

وظلت كاسي تحدّق به وهي تتحدث، كأنه وقع تحت وطأة كابوس ثقيل، حتى إذا وضعت يداً ثلجية باردة على يديه ارتدَّ إلى الوراء وصاح:

ـ ماذا تقصدين، إذاً، أيتها المرأة، حين يحصل مثل ذلك؟

ـ تستطيع أن تنام هناك إذا كان يهمك كثيراً أن تعرف.

ـ هل جاءت من العلّية يا كاسي؟

فتساءلت كاسي:

ـ جاءت؟ من تقصد؟ ماذا تريد أن تقول؟

ـ تلك الأشياء التي تتحدثين عنها؟

فقالت كاسي في تجهّم وغضب:

ـ إني لم أحدثك عن شيء.

وأنشأ ليغري يذرع الغرفة، والقلق بادٍ على محياه ثم صاح بها:

ـ سوف أفحص العلّية هذه الليلة. وسوف أحمل مسدسي معي.

ـ افعل ونم في تلك الغرفة، عَلَّني أتخلص من تلك المخاوف.

وفي تلك اللحظة دقَّت ساعة الحائط القديمة الثانية عشرة. ولم يعلم ليغري كيف سُمّر في مكانه، وصعب عليه الكلام. فقد أحس أن قلقاً تلبّسه من رأسه حتى أخمص قدميه، في حين كانت كاسي تنظر إليه وتعدّ دقات الساعة.

ـ الساعة الثانية عشرة. حسناً الآن سوف نرى!

تلبّسه: خالطه، سيطر عليه.

قالت ذلك واستدارت وفتحت الباب المؤدي إلى الغرفة ووقفت كأنها تستمع:

- اسمع! ما هذا؟!

ورفعت إصبعها.

فقال ليڤري:

- إنها الريح لا غير. ألا تسمعينها كيف تهبّ هبوباً لعيناً؟

فوضعت كاسي يدها في يدي ليڤري وقادته إلى **أدنى السُلّم** وهمست في أذنه قائلة:

- سايمون. تعال إلى هنا. هل تعرف ما هذا الصوت؟ اسمع!

وانطلقت من جهة السلم صيحة مرعبة، وكانت الصيحة آتية حتماً من جهة العلّية، فخاف سايمون وكاد يقع على الأرض من الذعر.

فقالت كاسي في سخرية جمّدت دم ليڤري:

- أليس من الأفضل أن تأتي بمسدسك. إني أريد منك أن تصعد إلى العلّية الآن.

- لن أذهب. لا، لن أذهب.

- لم لا؟ ليس ثمة شيء اسمه عفاريت كما تقول.

وارتفت السلم برشاقة ونادت:

- تعال، هيّا، يا ليڤري.

فقال ليڤري:

أدنى السلّم: أسفل الدرج.

- يخيل إلي أنك أنت الشيطانة. ارجعي أيتها الساحرة. ارجعي، ولا يحسن بك أن تذهبي إلى تلك الغرفة.

ولكن كاسي أطلقت ضحكة قوية ومضت في سبيلها. وسمعها ليڤري تفتح الأبواب المؤدية إلى العلّية فخاف. وهبت آنذاك من تلك الأبواب المفتوحة ريح **عاتية** اطفأت الشمعة التي كان يحملها في يده، كما انطلقت في الوقت نفسه تلك الصيحات المخيفة فجمد الدم في عروقه.

وهكذا ظلت كاسي تلهو وتعبث بعقل ليڤري ساعة بعد ساعة ويوماً بعد يوم، حتى انتهى إلى أنه بات يخاف من العلّية وكأنها مكان مسحور.

في تلك الأثناء كانت كاسي تخزن في ذلك الموضع، أثناء الليالي السوداء والناس نيام، مؤونة تكفي لإقامة **أوَدها** وأود رفيقتها مدّة من الزمن. كما نقلت إليها أكبر قسم من ثيابها وثياب إميلين، حتى إذا أتمّت جميع الترتيبات الضرورية أخذتا تترقبان الفرصة المناسبة لتنفيذ خطتهما **بحذافيرها**.

اجتهدت كاسي في ملاطفة ليڤري وإظهار علامات الود له حتى أنس بها ووثق. وفي ذات يوم، قبيل غروب الشمس، كان ليڤري متغيباً في نزهة إلى مزرعة مجاورة، فأخذت كاسي في هذه الآونة تعد مع إميلين صرتين صغيرتين. وقالت كاسي تخاطب إميلين بقوة:

عاتية: شديدة.
الأوَد: ما يحفظ الحياة.
بحذافيرها: بتفاصيلها، بكل دقة.

- والآن البسي قبعتك، ولننطلق، فهذا هو الوقت المناسب.

فقالت إميلي:

- ولكن في استطاعتهم أن يَرونا إذا خرجنا الآن.

- كل ما أرجو هو أن يرونا. ألا تعلمين أنهم سوف يتعقبوننا. إن الخطة تقضي علينا أن نمشي الآن. ولسوف نخرج من الباب الخلفي. ولا شك أن سامبو وكويمبو سيرانا فيلحقان بنا. وعندما تبلغ المستنقعات يكونون هم في أتم الاستعداد لملاحقتنا، فيصطحبون كلابهم ويمرون شطر المستنقعات كما يفعلون دائماً. وعند ذلك نعود خائضتين مياه النهر المؤدي إلى المنزل حتى نصل إلى الباب الخلفي. ولا أشك مطلقاً في أن أهل البيت سيخرجون جميعهم في طلبنا، فنكون آنئذ مختبئتين في العلّية المسحورة على رأيهم حيث أعددت فراشاً وثيراً فوق صندوق كبير.

وهكذا هربت العبدتان الرقيقتان فرآهما ليغري عندما كان عائداً من نزهته فلحق بهما، ولكنه لم يتمكن من إدراكهما. وعندما وصلتا إلى المستنقعات خاضتا المستنقع الكبير رغم عمقه المخيف، فرأى ليغري أن الضرورة تقضي بأن يستعين بسامبو وكويمبو وسائر الأرقّاء، وكانوا قد عادوا من عمل النهار فأغراهم ليغري بالقبض على الجاريتين واعداً أن يعطي من يلقي القبض عليهما خمسين دولاراً.

وانطلق جيش الأرقّاء وهم يحملون المشاعل، ومعهم الكلاب المخيفة باتجاه المستنقعات، وهكذا نجحت خطة كاسي، إذ كان البيت

خاض الماء: مشى أو سبح فيه.

خالياً عند عودتها إليه. وقد أخذت الجاريتان تضحكان على الأرقّاء وهم في طريقهم إلى المستنقع والمشاعل في أيديهم والكلاب تتخبّط في أوحال المستنقعات نابحة هائجة!

ودب الخوف في إميلين فقالت:

- يجب أن نختبئ يا كاسي عجّلي.

فأجابتها كاسي في هدوء:

- لا داعي للعجلة. لقد خرجوا جميعهم لاقتناصنا. وهذا ما يترك لنا المجال لنلهو هذا المساء. إن في استطاعتنا أن نرتقي السلم بتؤدة.

قالت ذلك، وانتزعت مفتاحاً من جيب سترة كان ليغري قد نزعها عنه بداعي السرعة، ثم أردفت:

- في الوقت نفسه، سوف آخذ شيئاً نستعين به على العيش.

وفتحت كاسي الخزانة وانتزعت منها رزمة من الأوراق المالية وعدّتها بسرعة.

فقالت إميلين:

- لا يصح أن نفعل شيئاً من هذا.

فصاحت كاسي:

- وما الذي يمنعنا أن نفعل؟ أيهما أفضل أن نجوع ونعرى في المستنقعات، أم أن نستعين بهذه الأموال في اجتيازنا هذه الولاية

التؤدة: التمهّل.

www.liilas.com

للهجرة إلى إحدى الولايات التي لا تسمح بالرق؟ إن المال وحده يمكّننا أن نصل إلى غايتنا أيتها الأخت!

وفيما كانت تتكلم، بسّت المال في صدرها.

عندئذ همست إميلين وقالت:

- ولكن هذه سرقة!

فقالت كاسي بسخرية:

- ماذا تقولين؟ سرقة! لندع أولئك الذين سرقوا أجسادنا وأرواحنا يتحدثون بهذه اللغة. اعلمي يا إميلين، إن كل ورقة نقدية من هذه الأوراق هي مسروقة من مخلوقات فقيرة محرومة مُجْهَدَة تنضح بالعرق. وفي سبيل جمع هذه الأموال يموت الألوف من الأرقّاء من الضنك والغم. دعي ليڤري يتحدث عن السرقة وتعالي. الآن علينا أن نصعد إلى العلّية وعندي هناك الذخيرة من الشموع والكتب نقضي بها وقتنا. واعلمي أنهم لن يصعدوا للبحث عنا.

بسّت: أدخلت.
مجهدة: متعبة.
الضنك: التعب الشديد.

الفصل الثلاثون

الشهيد

ثارت ثائرة ليڤري على أثر فرار كاسي وإميلين بشكل لم يسبق له مثيل، فأخذ يصرف غضبه وينزل ضربته بتوم المسكين المستضعف. ذلك لأن توم، عندما علم بنبأ فرار الجاريتين، تهلّلت أساريره ورفصت عيناه ببريق الفرح، ثم رفع يديه إلى السماء ما أثار حفيظة ليڤري عليه. وما دعا ليڤري لصب النقمة على توم أنه لم يشترك مع الأرقاء في حملة التعقّب التي تمت للقبض على الهاربتين. وقد خطر ببال ليڤري أن يكون توم هو مدبّر خطة الهرب، وقرر أن يذيقه العذاب ليكرهه على البوح بالسر، ولكنه عدل عن عزمه، وفضل أن يتركه وشأنه لعلمه بصلابة رأيه وإصراره على التزام السكوت.

وفي صباح اليوم التالي انصرف ليڤري إلى إعداد حملة جديدة، قوامها بعض الرجال العاملين في المزارع المجاورة والكلاب لتعقب الجاريتين. وكان قد أمر رجاله أن يطوّقوا المستنقع ويواصلوا البحث بطريقة فنية ونظامية. فإذا ما وفق في القبض على الفتاتين كان ذلك في

تهلّلت أساريره: ظهر الفرح على وجهه.
التعقّب: الملاحقة.

مصلحة توم، وإلا فإن نقمته ستصب كلها على ذلك العبد المسكين وسيضطره للمثول بين يديه لتحطيمه أمام الجميع.

ونظرت كاسي في ذلك اليوم من أحد ثقوب العلّية وقالت:

- يبدو أن الحملة الجديدة على وشك المسير.

والحملة كانت كبيرة. أربعة من الفرسان يتبخترون على خيولهم في الساحة المقابلة للمنزل، وإلى قربهم جيش من الزنوج والكلاب. ووضعت كاسي أذنها على الثقب تسترق السمع فاستطاعت أن تسمع معظم الحديث. لقد سمعتهم يقتسمون مراقبة الميدان في ما بينهم، ويتناقشون في اختصاص الكلاب وقدرتها على بلوغ من تلاحقه. كما صاروا يحددون نوع القصاص الذي ستلقاه كل جارية بعد القبض عليهما.

وارتدّت كاسي إلى الوراء، وتطلعت إلى أعلى، شابكة يديها وقالت:

- أيها الإلٰه العلي القدير. نحن جميعاً آثمون ولكن ماذا جنينا نحن أكثر من سوانا حتى نعامل على هذه الشاكلة؟

ورانت على وجهها وعلى صوتها انطباعة أسى صارم، وتطلعت إلى إميلين وقالت:

- بُقي يا إميلين أني لولاك لما سعيت وراء حريتي. ولولاك لخرجت للقاء هؤلاء العبيد وكلابهم وتقبلت السيد الذي نطلق عليه

المثول: الحضور.

رانت: خيّمت.

اسم القرصان. فما فائدة الحرية؟ هل بإمكانها أن تعيد إلي أولادي؟ أو تعيد إلي شبابي وكرامتي؟

وعندما سمعت إميلين كلام كاسي داخلها الخوف، وسرت الرعدة في أوصالها، فلم تجبها واكتفت بأن ضغطت على يدي كاسي ملاطفة. فما كان من كاسي سوى أن وضعت يد الفتاة عنها بلطف وقالت:

- لا تحاولي أن تستميليني. فأنت تودّين إغرائي وحملي على حبك؛ ولكن ثقي بأني لا أنوي أن أحب أحداً بعد اليوم.

فقالت إميلين بلطف:

- أرجوك يا كاسي، لا تسمحي لهذا الشعور أن يتملكك ويستحوذ عليك. لمَ لا تعتقدين أن الله قد يعيد إليك ابنتك إذا ما وَهَبَنا الحرية؟ وعلى أية حال لمَ لا تعامليني كابنتك، فأنا لن يتاح لي أن أرى أمي مرة ثانية... اعلمي أني أحبك ولسوف أحبك يا كاسي مثل أمي سواء منحتني الحب أم لا!

وهكذا انتصرت فكرة إميلين الرقيقة، فأخذتها كاسي بين ذراعيها وجلست إلى جانبها ثم طوّقتها بذراعيها، وأخذت تداعب شعرها الناعم الأسمر بكفها وقالت:

- آه يا إميلين، لا تلوميني، فقد جاعت نفسي وعطشت لرؤية أولادي، وإن عينيّ تتحرّقان حنيناً لمرآهم واعلمي أن هذا، هنا - وضربت على صدرها في مكان القلب - مقفر كله وفارغ كله، فإذا ما أعاد الله إلي أولادي عندئذ أستطيع أن أصلي.

وهبنا: أعطانا.

فأجابتها إميلين:

- لا تقنطي من رحمة الله يا كاسي فهو خالقنا وهو أبونا، وإني لا أشك في مساعدته لنا.

وبعد لأي شديد، عادت الحملة الثانية التي جهزها ليڤري للبحث عن كاسي ورفيقتها فاشلة. فاستدعى إليه توم وهو يرغي ويزبد، وكان يعتقد أن الرجل العجوز هو الذي مهّد السبيل لفرار الجاريتين.

ومثل توم بين يدي مولاه، وكان حوله سامبو وكويمبو فأمسكه ليڤري بغلاظة من جيب سترته الأعلى وقال في غضب مخيف:

- هل تعلم أني قد وطّدت النفس على قتلك!

فأجاب توم بهدوء:

- قد تفعل ذلك أيها السيد.

فقال ليڤري:

- حقًّا، إني عازم على ذلك إلا إذا أنليت إلي بما تعرفه عن تينك الجاريتين.

واعتصم توم بالصمت.

وزأر ليڤري.

- هل تسمع أيها القذر؟

فقال توم بقلب ثابت:

لا تقنطي: لا تيأسي.
لأي: جهد.
وطّدت النفس: قرّرت.
عازم: مصمّم.
أنليت: أعلنت.

- ليس عندي ما أقوله يا مولاي، ولا أعرف عنهما شيئاً.

- أتجرؤ أن تقول إنك لا تعرف. أيها المسيحي الأسود العجوز؟

وصمت توم:

وانفجر ليڤري بمثل قصف الرعد ضارباً توم ضرباً مبرحاً:

- تكلم أيها اللعين! تكلم!

فقال توم:

- لا أعرف يا مولاي. لا أستطيع أن أقول شيئاً ولو أدّى ذلك إلى موتي.

وهنا كبت ليڤري ثورته وأمسك ذراع توم وقرب وجهه إلى وجهه وقال بقوة:

- انتبه يا توم، واسمع ما أقوله لك. قد تظنني هذه المرة غير جادٍّ شأني في المرات السابقة، ولكني قررت هذه المرة أن أبطش بك البطش كله. لقد اختبرتك جيداً فوجدتك عدوّي الألدّ في هذه المزرعة. فاختر بين أمرين: إمّا أن تتكلم وتصرّح عما ينطوي عليه سكوتك من سر في ما يتعلق بكاسي وإميلين أو أن تبقى صامتاً، فأنزع منك دماءك وقد عددتها قطرة قطرة وبوسعي أن أنتزعها قطرة قطرة.

ونظر توم إلى مولاه برفق وأجاب:

- سيدي لو أنك مصاب بمرض عضال، أو أنك تحتضر على فراش الموت، وكان في مقدوري أن أشفيك وأنقذك، إذاً لما تأخرت

الألدّ: الشديد الخصومة.
عضال: لا شفاء منه.

عن أن أقدّم لك دمي عن رضاء وبطيبة خاطر. وَهَبْ أن تنازلي عن آخر نقطة من دمي ينقذ جسدك وروحك لما تلكأت عن تقديمها، ولما أحجمت عن أن أسفحها من أجلك كما سفح يسوع دمه من أجلنا.

آه يا مولاي! حذار أن تقترف هذا الإثم العظيم! فعملك هذا قمين بأن يسيء إليك وإلى روحك الغالية أكثر مما يسيء إلي ويؤذيني. افعل بي ما تريد أن تفعله فلن يلبث بلائي أن ينقضي، أما إذا لم تتب عن فعلتك وتصلح نفسك فإن بلاءك سيلازمك إلى الأبد.

كانت كلمات توم العابقة بالعطف والحنان والمشبعة بالفكرة الدينية أشبه شيء بنفحة سماوية وقعت على أسماع ليڤري فوقف منذهلاً حائراً، ونظر إلى توم بصمت وأخذ يستمع إلى تكّات الساعة القديمة تعلن أن السلك الإنساني الذي لامس ذلك القلب المتحجر قد أخذ يبتعد عنه.

إن التحدث عن المظالم والفظائع ومشاهد الدم الوحشية يدمي فؤاد الإنسان ويؤذيه. ذلك لأن ما لا تقوى أعصاب الإنسان على اقترافه تعجز الأعصاب عن سماعه. وإن ما يتوجب على إخوتنا في الإنسانية أن يقاسوه عليهم أن يتجنبوا أن يفعلوه. إن كل هذه المآسي تدمي القلب وتؤذي النفس. ومع ذلك فإن تلك الفظائع والمظالم إنما تُقترف تحت ظل القوانين وتحت سمع السلطة.

وما هي إلا لحظة حتى عاودت ليڤري روح الشر بأعنف من ذي

تلكأت: تأخرت.
قمين: جدير.

قبل، فانقضّ على ضحيته وطرح توم على الأرض وراح يشبعه ضرباً وتعذيباً.

ـ لقد انتهى أو يكاد يا مولاي. قال سامبو ذلك وقد أخذته الشفقة على توم، بعد أن رأى تجلده العجيب وصبره على ضربات السوط التي تلهب جسده التعب.

فصاح ليڤري:

ـ اضربه حتى الموت. إني أريد أن أنتزع آخر نقطة من دمه أو أن يعترف بكل ما يعرفه عن الفتاتين.

وفتح توم عينيه ونظر إلى سيده ثم قال:

ـ أيها المخلوق البائس. لم يبق ما تستطيع أن تفعله بي أكثر من ذلك. إني أغفر لك من صميم قلبي.

واستغرق في اللاوعي الكامل.

وتقدم ليڤري قليلاً ليرى ما حل به عن كثب وقال:

ـ يخيل إلي أنه انتهى. أجل لقد انتهى.

ولكن توم لم يلفظ أنفاسه الأخيرة بعد. فكان دائماً يصلي ليسامح الله معذبيه. وكأن صلواته وكلماته الأخيرة لمست بعصاها السحرية قلبي سامبو وكويمبو اللذين كُلّفا تعذيبَه حتى الموت. فلم يكد ليڤري يغادر الغرفة حتى هرع العبدان لمساعدة توم وإنقاذه من الموت من دون أن يعرفا ما الذي دفعهما إلى هذا المعروف.

وقال سامبو:

ـ لا شك في أننا كنا آلات شريرة مخيفة. وإني لأرجو الله أن يحاسب سيدنا على ذلك لا نحن.

وغسل العبدان جراح توم وأعدّا له فراشاً من بذور القطن مدداه عليه ثم انطلق أحدهما وطلب من مولاه كأساً من البراندي بحجة أنه تعب، حتى إذا ناوله مولاه إياها قفل راجعاً إلى توم وأفرغ البراندي في فمه.

وقال كويمبو:

ـ اوه! يا توم. لقد كنا قاسيَين معك.

فقال توم بصوت خافت:

ـ إني أغفر لكما من صميم قلبي.

وتساءل سامبو:

ـ آه يا توم. أخبرنا من هو يسوع على أية حال؟ يسوع الذي كان واقفاً إلى جانبك، طوال هذه المدة. من هو؟

وأثار هذا السؤال الحياة في تلك الروح الضعيفة، فأطلق توم بعض جمل تنضح بالقوة والمجد عن حياة ذلك المخلّص وخلوده وقدرته على إنقاذ أرواح المؤمنين به.

وبكى سامبو وكويمبو. بكى الرجلان المتوحشان.

وقال سامبو:

ـ لماذا لم أسمع بهذا الرجل، من قبل؟ ولكني أؤمن به. إني لا أستطيع إلا أن أؤمن. آه أَسْبِغْ علينا رحمتك يا يسوع.

فقال توم:

ـ أيها المخلوقان البائسان، إني أصلي من أجلكما. ولقد استجيب دعائي!

قَسيغْ: أفِضْ.

الفصل الحادي والثلاثون

المولى الصغير

بعد يومين من ذلك الحادث الشنيع، وقفت عربة صغيرة أمام منزل ليغري، ونزل منها شاب في مقتبل العمر، ثم ألقى زمام العربة على غوارب الخيل، وأخذ يسأل عن صاحب المنزل سؤال الملهوف المتعطش لرؤيته.

وكان ذلك الشاب هو جورج شيلبي. ولكي يعلم القرّاء ما الذي جاء به إلى هناك نذكّرهم بما جرى في السابق، وأن الآنسة أوفيليا كتبت للسيدة شيلبي تشرح لها ما وصلت إليه أحوال توم، وتطلب منها أن تفتديه. ولكن تلك الرسالة لأمر مشؤوم لم تصل في حينها إلى السيدة شيلبي، وظلت محتجزة في مركز البريد زهاء شهرين. ولما وصلت آخر الأمر إلى السيدة شيلبي، كان توم قد وقع في قبضة ليغري المجرمة، وسيق على متن باخرة عبر النهر الأحمر إلى مسكنه الجديد.

وقرأت السيدة شيلبي الرسالة آنذاك باهتمام كبير؛ ولكنها لم تستطع أن تقوم بأي عمل إيجابي عاجل من أجل إنقاذ توم. كان زوجها آنذاك طريح الفراش، فهي تمرّضه وتقضي يومها إلى جانبه،

غوارب: كواهل، ظهور.

كما كان ابنها جورج قد كبر وترعرع وقوي ساعده فأخذ يدير شؤون المزرعة بحكمة وبراعة. والذي ساعد السيدة شيلبي هو أن الآنسة أوفيليا كانت قد ذكرت في رسالتها، احتياطاً للأمر، اسم المحامي المكلف تصفيةَ تركة سانت كلير، على أمل أن تتصل به عند الحاجة. لكن وفاة السيد شيلبي زوجها، بعد بضعة أيام، كانت قد أبعدتها عن كل نشاط يؤدي إلى خدمة توم.

واتصلت السيدة شيلبي آخر الأمر بالمحامي الذي سمّته لها الآنسة أوفيليا واستوضحته الأمر، فكتب لها يقول إنه لا يعرف من الأمر شيئاً وإن الرجل قد بيع في مزايدة علنية.

وما كان لجورج وللسيدة شيلبي أن يرتاحا لهذه النتيجة. وهكذا عزم الشاب بعد نحو ستة أشهر، وكانت أمه قد عهدت إليه في إنجاز بعض الشؤون، على أن يذهب إلى نيو أورليانز بحثاً عن توم وافتدائه من مالكه.

وبعد بضعة أشهر من البحث المتواصل غير **المجدي**، التقى جورج صدفة برجل يعلم أين يقيم توم. فما كان من جورج إلا أن امتطى متن النهر الأحمر **ممنّياً** نفسه بلقاء صديقه الشيخ الطيب توم الذي رعاه طفلاً وأحبه يافعاً.

ورحب ليغري بضيفه ترحيباً جافًّا، حتى إذا استقر المقام بالشاب الشهم قال:

- لنتحدث عن الموضوع حالاً. إني أعلم أنك اشتريت في نيو

المجدي: النافع.

ممنّيا: واعداً.

أورليانز رقيقاً اسمه توم وقد كان سابقاً يعمل في مزرعتنا. وإني أحب أن أعرف إذا كان بإمكاني أن أشتريه من جديد.

فتجهم وجه ليغري وقال في انفعال واضح:

- نعم أُقرّ بأني ابتعت ذلك العبد اللعين. وليتني لم أفعل. فقد أثار أرقاني وأغراهم بالهرب، وهكذا فقدت جاريتين تساوي كل منهما الف دولار بل أكثر. والأنكى من ذلك أني حينما سألته عن مقرهما قال إنه يعرف عنهما كل شيء؛ ولكنه لا يريد أن يعترف لي بذلك. ولقد أصر على عناده رغم السياط اللاهبة التي كوت جسده بشكل لم يسبق بعد أن ضرب مثلها. وأعتقد أن صديقك هذا يحتضر الآن ولكني أجهل متى يموت!

فسأله جورج بغضب:

- أين هو؟ دعني أرَه.

وشاع الدم في وجه الشاب **الفارع الطول**، وتطاير الشرر من عينيه.

لم يجبه ليغري عن سؤاله. ولكن أحد الغلمان دلّ جورج على السقيفة التي تؤوي العجوز المحتضر فانطلق يعدو في ذلك الاتجاه.

كان توم ساعتئذ منطرحاً على أرض السقيفة بعد انقضاء يومين على ذلك الحادث المنكر. وكان الألم قد فارقه وكأن أعصابه قد تبلدت وتحجرت. وما هو معروف أن ذوي البنية المتينة لا يفقدون الروح دفعة واحدة. وقد ساعده على البقاء حياً ما قدمه أخوته المعذبون

الفارع الطول: الشديد الطول.

على الأرض من مساعدات بسيطة ككوب ماء بارد أو غسل جراح.

ومن الغريب أن كاسي التي كانت تهرب من الموت قد وفدت إلى السقيفة لزيارة توم في الليلة الماضية، بعد أن علمت بالتضحية الكبرى التي قام بها من أجلها ومن أجل رفيقتها. فخرجت من مخبئها متحدية أنواع المخاطر المحدقة بها. فاستمعت عن كثب إلى الكلمات الأخيرة التي كان فم ذلك الرجل الكبير يفوه بها، فَعَرَتْها هزة عنيفة وشعرت باليأس يملأ جوانحها ثم أخذت تبكي وتصلي...

وحين دخل جورج على الشهيد المحتضر أحسَّ بألم في رأسه وانقباض في صدره.

وركع إلى جانبه وراح يخاطبه:

- هل هذا ممكن؟ أيها العم توم. أيها الصديق البائس العجوز!

ونفذ شيء من ذلك الصوت إلى أذن الرجل المطل على العالم الآخر فحرَّك رأسه برفق وابتسم وقال:

- باستطاعة يسوع أن يجعل فراش الاحتضار ناعماً كالوسادة المحشوة بزغب الأطيار.

وتحدرت من عيني الشاب عبرات غزيرة، فيما كان منحنياً فوق صديقه البائس المحتضر.

- أوه أيها العم توم. أَفِقْ. تكلم مرة أخرى. أنظر إلي أنا

المحدقة: المحيطة.
جوانحها: صدرها، قلبها.
عبرات: دمعات.
عَرَتْها: أصابتها.
زغب: صغار الريش.

جورج، مَوْلاك الصغير جورج، ألا تعرفني!

ففتح توم عينيه وقال بصوت ضعيف:

- مولاي جورج! مولاي جورج.

وبدا ذاهلاً دهشاً.

وما هي إلا لحظات حتى استفاق توم جيداً فتركزت عينه الغارقة في محجرها وأضاء الوجه بنور غريب. فتشابكت اليدان اليابستان بيدي الشاب النضرتين. وتحدرت فوق خدي الشيخ دموع الفرح وقال:

- تبارك الله! إن هذا كل ما أطمع فيه. إنهم لم ينسوني. إن هذا يخلع على روحي الدفء ويجعل قلبي مطمئناً. والآن سوف أموت مرتاح البال.

فصاح جورج في عزم:

- لا. لن تموت. ينبغي ألا تموت وألا تفكر في الموت مطلقاً. لقد جئت لكي أشتريك وأعود بك إلى كوخك القديم.

- أوه أيها المولى الصغير. لقد جئت متأخراً جداً. لقد اشتراني الرب، وسوف يحملني إلى عالم الخلود.... أفضل من كاتاكي.

- آه بربك يا توم. لا تمت. فإن موتك يقتلني وإن قلبي يتفطر أسى، إذ أفكر بما قد قاسيت وما تقاسي هنا في هذه السقيفة القديمة. لا تمت يا صديقي بحق السماء.

فقال توم:

- لا تقل إني تعس مسكين. لقد كنت تعساً مسكيناً ولكن ذلك قد

مولاك: سيّدك.
المحجر: موضع العين في الوجه.

ولّى وانقضى. أنا الآن في طريقي إلى المجد. آه أيها السيد جورج، لقد فتحت أبواب السماء أمامي وقد فزت بالنصر!

وذهل جورج من تلك القوة التي تحويها كلمات توم فجلس يحدّق به.

وأمسك توم بيده وأردف:

- أرجو يا عزيزي جورج ألا تخبر كلو كيف وجدتني، فقد يدمي فؤادها هذا الموقف. أخبرها فقط أنك رأيتني ذاهباً إلى المجد، إلى السماء، وأن الله كان بجانبي، وأنه سهّل لي الأسباب وخفّف عني. وولداي البائسان والطفلة. آه لقد تفطر قلبي المكلوم عليهم. قل لهم أن يتبعوني. أقرئ سلامي، يا جورج، مولاي الطيب ومولاتي والدتك وكلَّ إنسان في مزرعتكم، فأنا أحبهم كلهم بل أحب كل مخلوق بشري أينما كان.

وفي تلك اللحظة تلاشت قوة توم التي بعثها فيه لقاء الشاب الشهم، فأغمض عينيه وتطاولت أنفاسه وأخذ صدره العريض يعلو ويهبط؛ أما وجهه فقد ارتسمت عليه علامات النصر والظفر!

- من؟ من ذا الذي يستطيع أن يبعدنا عن حب المسيح؟

قال ذلك بصوت كالهمس وبابتسامة وادعة، وأغفى توم إغفاءة الأبدية.

ونهض جورج مثقل القلب مهيض الجناح، واستدار على عقبيه فإذا به وجهاً لوجه أمام ليغري، وألجمت رجفة الموت عاطفة الشاب

مهيض: مكسور.

الثائر فرمق ليغري بعينيه الحادتين السوداوين، واكتفى بأن قال مشيراً إلى الميت:

- لقد انتزعت منه كل ما يمكنك أن تنتزعه. والآن كم يتوجب علي أن أدفع ثمناً للجثة، فإني أرغب في حملها إلى مكان بعيد لمواراتها التراب؟

فقال ليغري في غلظة:

- أنا لا أبيع عبيداً أمواتاً. في استطاعتك أن تدفنه أينما شئت، ومتى شئت.

فوجه جورج خطابه إلى اثنين أو ثلاثة من الزنوج كانوا واقفين قرب الجثة.

- أيها الإخوان ساعدوني على حمله ونقله إلى عربتي وأعطوني معولاً.

وانطلق أحدهم للبحث عن معول، في حين تعاون الآخران مع جورج في نقل الجثمان إلى العربة.

ولم يقل جورج أية كلمة لليغري الذي كان يصفر في غير مبالاة، ولم يتطلع إليه. حتى إذا انطلقت العربة لحق بهم متجهم الوجه كالح الجبين.

ونشر جورج معطفه فوق أرض العربة ولف الجثمان به. ثم رجع فحدق بليغري وقال بهدوء متكلف: آسف لأعمالك؛ ولكن ثق وتحقّق يا سيد أن هذا الدم الطاهر لن يذهب هدراً بل سيثأر، وسوف أخبر

كالح: مسودّ، عابس.

السلطات بذلك وسأخبر أول حاكم مسؤول بذلك وأشكوك إليه.

فقال ليغري وهو يفرقع أصابعه بسخرية:

- اذهب وإني مشتاق لأراك تذهب وتشكوني. فمن أين لك بالشهود؟ شهود الإثبات. وكيف تراك تبرهن على دعواك. تعال. تعال الآن واثأر.

وأدرك جورج حالاً صوت التحدي الصارخ في كلام ليغري وفكر في الانتقام؛ ولكنه تعقّل وسكت لأنه لم يكن هناك رجل أبيض يشهد على ما يحدث بينهما. فشهادة العبد لا وزن لها ولا قيمة. وتألم جورج في داخله وتمنى لو يستطيع أن يصرخ صوتاً يمزق **حجب** الأرض والسماء.

وقال ليغري:

- وعلى أية حال، فلا داعي لهذه الضجة كلها من أجل زنجي ميت.

وعندما سمع جورج كلام ليغري شعر وكأن شرارة نار مست زناد نفسه، فغضب وارتد إلى الوراء وضرب ليغري على وجهه ضربة طرحته على الأرض، فأقام بهذا العمل الدليلَ على أنه جدير بأن يحمل اسم البطل القديس جاورجيوس الذي انتصر على التنّين.

والواقع أن بعض الرجال يلقون التهذيب عندما يُضربون فلا يكاد امرؤ يمرغ رؤوسهم بالتراب حتى يحترموه و**يُجِلّوه**. وكان ليغري من هذه الطبقة. وهكذا نهض ليغري ونفض الغبار عن ثيابه، وراح يرمق

الحجب: مفردها الحجاب: الستار. **يجلّوه**: يحترموه، يكرّموه.

العربة الماضية لسبيلها في كثير من الاحترام. بل إنه لم يفتح فمه إلا بعد أن غابت العربة عن بصره.

وكانت عينا جورج قد وقعتا على ربوة قائمة وراء حدود المزرعة تظللها بضع أشجار وارفة، فأحب أن يحفر فيها **رمس** صديقه الراحل، حتى إذا تمَّ شقُّ الرمس تساءل الزنوج:

- هل ننزع المعطف أيها السيد؟

فأجاب جورج:

- لا. لا. أدفنوه معه. إنه كل ما أستطيع أن أقدمه له فعسى أن يتقبله مني.

ودفنوه تحت التراب، وأقاموا حوله سداً، ووضعوا قليلاً من العشب الأخضر فوقه.

وألقى جورج ربع دولار في يد كل من الأرقاء وقال:

- والآن تستطيعون أن تذهبوا أيها الإخوان.

ولكنهم لزموا أماكنهم لا يتحركون.

وقال أحدهم:

- ليت مولاي الشاب يتعطف فيشترينا.

وقال ثان:

- سنكون له مخلصين حتى الموت.

وعاد الأول للكلام:

رمس: قبر.

- إننا ههنا نقضي أياماً عسيرة أيها السيد، فتكرم، يا مولاي، واشترِنا من مالكنا.

فقال جورج في حرج:

- لا أستطيع. لا أستطيع، ذلك مستحيل.

وران الأسى على وجوه الأرقاء البائسين، وغادروا المكان صامتين.

وانحنى جورج فوق رمس صديقه المسكين وقال معاهداً الله على أمر عظيم:

- أيها الإله الذي لا يموت. إشهد علي بأني سوف أعمل منذ الآن كل ما يمكنني أن أفعله كفرد لمحو عار الاسترقاق عن جبين بلادي.

الفصل الثاني والثلاثون

قصة الأشباح الحقيقية

راجت سوق سرد الحوادث المثيرة عن الأشباح والعفاريت في تلك الأيام بين الأرقاء الذين يملكهم ليغري. فقد أخذ العبيد المساكين يروون بهمس في ما بينهم عن سماعهم وقع أقدام حقيقية لا تقبل التكذيب تطرطق قرب سلّم العلّية، وأن الأرواح أخذت تمشي هناك ليلاً. وقد بادر الأرقاء لإقفال الأبواب المؤدية إلى ذلك المكان؛ ولكن تلك الأبواب كانت تفتح بمفتاح طبق الأصل، فيجدها الأرقاء مفتوحة في اليوم الثاني فيشيع الذعر في صفوفهم.

وليغري نفسه لم يتجاهل ما تتناقله الألسنة عن العلّية وما يحدث فيها فاشتد به الخوف ولازمه. ففزع إلى الخمرة يعاقرها ليتسلى عن همومه أو إلى التهديد والشتائم ينفّس بها عن كُرْبَته، ولكن بلاءه الأكبر كان في ما يراه من أحلام مزعجة.

في تلك الليلة التي تلت نقل جشمان توم، أوصد ليغري باب

يشيع: ينتشر.
كُرْبَته: حزنه وغمّه.
فزع إلى: لجأ.

www.liilas.com/vb3

غرفته ووضع خلفه كرسياً وأقام مصباحاً ليلياً فوق سريره، وأعد مسدسه للقتال بعد أن أحكم إغلاق الباب والنوافذ ومنّى نفسه بنوم هادئ مريح.

كانت ليلة قمراء كثيرة الغيم والضباب وهناك رآه. لقد رأى شبحاً أبيض يتسلل إلى الغرفة وسمع حفيف ثوبه الأسطوري الساكن. كان الشبح واقفاً إلى جانب فراشه وكأن على رأسه الطير. وامتدت يد باردة لمست يده. وهمس صوت عميق مرعب:

ـ تعال. تعال. تعال.

وفيما كان ليڤري يتصبب عرقاً من غير أن يدري أين كان ذلك وكيف كان، مضى الشبح لسبيله فوثب الجِلْف من فراشه وهرع إلى الباب وهزه بقوة فإذا بالباب موصد محكم الأقفال. وإذا به يسقط على الأرض من شدة الخوف.

ومنذ ذلك الحين أخذ ليڤري يعاقر الخمرة دون احتياط ولا اعتدال، وكان يشربها من قبل أحياناً بحكمة وحذر؛ ولكنه انقلب اليوم إلى مدمن يشربها حين يستيقظ، ويشربها حين ينام، ويغلو في شربها غلوًّا كبيراً.

وما هي إلا مدّة يسيرة حتى شاع بين الأرقّاء بل في المنطقة كلها أن ليڤري مصاب بمرض عضال، وأنه يتقلب على فراش الاحتضار.

منّى: وعد.
الجِلْف: الرجل القاسي.
عضال: يصعب شفاؤه.
قمراء: يُضيئها القمر.
يغلو: يجاوز الحد.

وكان من يقومون على خدمته يسمعونه دائماً يتخوف من شبح أبيض عابس قاسي الفؤاد يناديه «تعال. تعال. تعال».

وبمعاونة عجيبة وجد باب غرفته مفتوحاً في صباح تلك الليلة التي رأى فيها ليڤري هذه الرؤيا، وشاهد بعض الأرقّاء شخصين أبيضين يتخذان سبيلهما إلى الطريق الرئيسية في تلك الليلة. وكان نور الصباح قد ارتفع حين توقفت كاسي وإميلين في الطريق بعد أن غادرتا منزل ليڤري، قرب مجتمع من الأشجار، قرب المدينة.

وكانت كاسي متّشحة بالثياب السوداء على طريقة السيدات اللواتي يختلط دهن الإسباني بالدم الزنجي، وكانت تعتمر قبعة سوداء صغيرة يتدلى منها غشاء أسود موشّى يخفي معالم وجهها.

وقد اتفقت الجاريتان أن تمثل كاسي شخصية السيدة ذات الدم الإسباني الزنجي في حين تمثل إميلين دور الخادمة.

ولم تجد كاسي صعوبة ما في تمثيل دورها، ذلك لأنها كانت نشأت في بيئة غنية. فلغتها وملامحها وحركاتها كانت منسجمة تماماً مع هذه الفكرة. وما زاد في إتقان دورها تلك الجواهر التي تزينت بها فجاء دورها واقعياً مناسباً لها.

ووقفت كاسي في ضاحية المدينة لتبتاع حقيبة. وبعد أن دفعت للبائع الثمن، طلبت منه أن يرسل معها خادماً يحمل لها الحقيبة. فما كان من البائع إلا أن أوعز إلى غلامه للسير معها فتابعت طريقها يمشي معها الغلام من جهة وإميلين من جهة أخرى، حتى إذا بلغت النزل

موشّى: مزخرف.

الصغير دخلته وكأنها سيدة محترمة من الطبقة الأرستقراطية.

وكان أول ما لفت نظرها بعد وصولها إلى النزل هو جورج شيلبي الذي كان ينتظر في ذلك النزل سفينة تعود به إلى موطنه. وكانت كاسي قد رأته عندما قدم إلى منزل ليغري من خلال ثقب العلّية التي اختبأت فيها، وشاهدته في اليوم الثاني ينقل جثمان توم وينتقم له من ليغري فيطرحه على الأرض.

ولقد عرفت كاسي من الأحاديث التي سمعتها تدور بين الأرقاء ساعة أخذت تتجول في المنزل متنكرة بزي الشبح بعد أن هبط الليل، من هو ذلك الشاب والصلة التي تربطه بتوم، لهذا شعرت نحوه بالثقة والطمأنينة حين اكتشفت أنه كان مثلها على وشك السفر في السفينة المرتقبة، فلحقت به مع رفيقتها إلى المدينة.

وفي الهزيع الأول من الليل وصلت السفينة، فأخذ جورج يد كاسي وساعدها على الصعود إلى المركب بلطف عُرف به شباب كانتاكي، ثم أخذ يفتش لها عن غرفة مستقلة صالحة.

ولازمت كاسي غرفتها وفراشها طوال تلك الرحلة في النهر الأحمر بداعي أن اعتلالاً في صحتها أصابها، فكانت إميلين تشرف على راحتها في تفانٍ وإخلاص.

وعندما انتهت السفينة إلى نهر المسيسيبي، اقترح جورج على السيدة الغريبة بعد أن عرف أنها متجهة صعداً مثله تماماً، اقترح عليها أن يحجز لها غرفة مستقلة في السفينة التي يعتزم السفر على ظهرها.

الهزيع من الليل: القسم منه ربعه أو نصفه.

وكانت تحدوه رغبة في أن يخدم تلك السيدة المريضة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

وانتقل الرفقاء الثلاثة إلى الباخرة التي ستمخر عباب المسيسيبي قريباً.

وتحسنت صحة كاسي رويداً رويداً، فصارت تظهر على متن الباخرة، وتتناول طعامها مثل سائر الركاب على المائدة العامة، فلفتت أنظار جميع الركاب وأعجبوا بها سيدةً جميلة كانت على جانب كبير من الملاحة والجمال.

وقد وقعت عينا جورج على كاسي إذ تبدّت له شدّة الشبه بوجه يعرفه جيداً، فراح جورج يطيل إليها النظر حتى إنه ما كان يرفع بصره عنها إلا عندما يلحظ أنها متضايقة من تحديقه بها.

واضطربت كاسي وداخلَها الريب في أن الشاب يرتاب بأمرها إلى أن قررت أخيراً أن تسلم أمرها إلى خلقه الكريم وتقص عليه سيرتها بكاملها.

وكان جورج مستعداً استعداداً نفسياً للعطف عليها كمن يعطف على أي إنسان وفّق للفرار من إقطاعة ليغري المشؤومة. ولم يكد يستمع إلى حديث كاسي حتى أكد لها أنه سوف ينفق كل ما يمكنه من جهد لحمايتها مهما كانت النتائج.

وكانت تقيم في الغرفة المجاورة لغرفة كاسي سيدة فرنسية تسمى

تمخر: تجري وتشق الماء.
عباب: موج.
الريب: الشك.
سيرتها: قصة حياتها.

«مدام دي تو» وبصحبتها ابنتها الجميلة وهي طفلة لا يتجاوز عمرها اثني عشر عاماً.

ولما علمت هذه السيدة الفرنسية من خلال أحاديثها مع جورج أنه من سكان ولاية كانتاكي، عنيت أن تكون صلتها به وثيقة، وكانت فتاتها الظريفة الأدبية ترافقها دائماً فتطرد بوجودها ولطفها كل سأم يُلِمُّ عادة بالركاب طوال أسبوعين كاملين.

وقد اعتاد جورج أن يجلس قرب غرفة تلك السيدة، فكان بميسور كاسي أن تستمع إلى ما يدور بينهما من أحاديث، فكانت السيدة «دي تو» لا تفتأ تسأله بالتفصيل عن الحياة في كانتاكي حيث قضت فترة من حياتها كما اذعت. وقد دهش جورج حين أخبرته تلك السيدة بأن بيت ذويها لم يكن بعيداً عن بيت والديه حتى إنها كانت تذكر أمامه أسماء الأشخاص والأشياء المعروفة في تلك الدار وكأنها تعرفها جيداً.

وذات يوم سألته السيدة دي تو:

- هل تعلم شيئاً عن رجل كان في جواركم يدعى هاريس؟

فقال جورج:

- حقاً إني أعرف رجلاً مُسِنًّا بهذا الاسم لا يسكن بعيداً عن بيتنا. ولكن صلتنا به كانت محدودة دائماً...

وقالت السيدة دي تو بلهجة كشفت عن شوقها لمعرفة ما كانت راغبة في معرفته.

مُسِنًّا: عجوزاً.

- وهو أحد كبار المتاجرين بالرقيق على ما أعتقد.

فقال جورج بدهشة:

- أجل إنه كذلك.

- هل سبق لك وعلمت أنه امتلك ذات يوم غلاماً خلاسياً يدعى جورج.

- آه طبعاً. جورج هاريس. أنا أعرفه جيداً. لقد تزوج إحدى إماء والدي وفر معها إلى كندا...

فقالت السيدة دي تو بسرعة:

- فر إلى كندا؟ شكراً لله!

وازداد جورج دهشة ولكنه لم يقل شيئاً.

وأسندت السيدة دي تو رأسها إلى يدها وأخذت تبكي، وقالت:

- إنه أخي.

- مدام، ماذا تقولين؟

قالها جورج بنبرة عجب قوية.

فكفكفت السيدة دي تو عبراتها وقالت:

- سيد شيلبي، إن جورج هاريس هو أخي.

وأطرق جورج قليلاً مفكراً ثم قال:

- إن ذلك يدهشني ويبعث عجبي.

وقالت السيدة:

- صدقني يا هذا. فقد باعوني لتاجر رقيق من سكان الغرب حين

كان جورج أخي يافعاً. وكان الذي ابتاعني رجلاً طيب القلب كريم النفس، فأخذني معه إلى جزر الهند الغربية حيث حررني ثم تزوجني. ولما لقي وجه ربه، مؤخّرًا، رأيت من الأفضل أن أعود إلى كاتناكي.

قال جورج:

- لقد سمعته يتحدث مرة عن أخت له تدعى إميلي بيعت في الجنوب.

- أجل حقاً أنا هي. والآن قل لي ما رأيك فيه وما تعرف عنه؟

- إن أخاك شاب شهم يتحلى بأخلاق عالية ويتصف بقدر كبير من الذكاء والوفاء لأصدقائه. إني أعرفه جيداً فقد تزوج إحدى إماء والدي كما أخبرتك.

فتساءلت السيدة دي تو بلهفة:

- وماذا تستطيع أن تحدثني عن زوجته؟

فقال جورج:

- إن زوجته جميلة جداً وذكية الفؤاد وهي كنز إذا قيست ببقية النساء. يحبها ويحترمها كل من يعرفها. وهي شديدة التقوى والصلاح. وكانت أمي تعاملها كابنتها، وهي تقرأ وتكتب وتخيط وتطرز. وفضلاً عن ذلك، فهي جميلة الصوت حسنة الأداء.

فسألت السيدة دي تو:

- وهل ولدت في بيتكم؟

يافعاً: شاباً.

- كلا يا سيدتي. فقد اتفق أن اشتراها أبي ذات يوم كان يقوم برحلة إلى نيو أورليانز. وكانت آنئذ في السابعة من عمرها أو الثامنة. ولم يخبر والدي أمي مقدار ما دفع ثمنها. ولكن فيما كنا نقلّب الأوراق القديمة التي تركها أبي منذ أيام، عثرنا على صك البيع فإذا به يدلنا على أن ثمنها كان ضخماً جداً. وأعتقد أن سبب ذلك ما تتمتع به من جمال بارع يندر وجوده بين الإماء.

كانت كاسي جالسة بالقرب من جورج حين دار هذا الحديث وكانت تُصغي إلى كلامه بشوق بالغ ولهفة عارمة. حتى إذا انتهى إلى هذا الموضع لم تتمالك أن وجّهت إليه هذا السؤال:

- هل تعرف أسماء الذين كانوا يملكونها سابقاً؟

فقال جورج:

- أظن أن رجلاً اسمه سِمّونز كان هو الشخص أو المتصرف بتلك الصفقة. ذلك على الأقل هو الاسم المنصوص عليه في صك البيع.

وهنا صاحت كاسي:

- آه، يا إلهي.

وسقطت على الأرض من شدة التأثر.

الفصل الثالث والثلاثون

نتائج

سنعلم في الصفحات القليلة الآتية أن نقصّ على قرائنا الكرام بقية قصتنا بإيجاز كثير. فقد اهتم جورج بأن يخدم كاسي فبعث إليها بصك البيع الخاص بإليزا، فإذا التاريخ المدوّن عليه واسما المشتري والبائع تتّفق والحقائقَ التي تحملها في فكرها عن ابنتها، فتحقّقت بما لا يدعو إلى الشك أن إليزا هذه هي ابنتها التي انتزعتها منها الأقدار وهي بعد طفلة. ولم يبق أمامها الآن سوى أن تتبع خطاها وخطى زوجها في موطنهما الجديد الذي هربا إليه.

وقد وحدت الأهداف بين السيدة دي تو وكاسي، بعد أن وجدتا أن مصيرهما مرتبط أشد الارتباط بالسفر إلى كندا، فقامتا برحلة استطلاع في المعسكرات التي تضم شمل الآبقين من العبودية. وهناك في مدينة آمهر سبيرغ صادفتا مبشراً كان قد حمى جورج وإليزا عند وصولهما إلى كندا، وبواسطته تمكنت السيدتان من معرفة أن جورج وزوجته يقيمان الآن في مدينة مونتريال، فتوجهتا وجهتها يصحبهُما راعي المعسكر في آمهر سبيرغ الذي رَقَّ لابنتها فوضع نفسه في تصرفهما في هذه المهمة.

أما جورج وزوجته السعيدان فقد قضيا خمس سنين من عمرهما

في ظل الحرية **الوارف**، وقد وجد جورج عملاً في مشغل ميكانيكي شهير، وصار يتقاضى أجراً وافراً يلبي به حاجة أسرته وكانت قد ازدادت عنصراً جديداً هو ابنتهما إليزا الصغيرة!

وفي مساء يوم جميل، بينما كانت هذه الأسرة الهانئة تستعد لتناول طعام العشاء في منزلها الصغير النظيف بضاحية مونتريال، قرع الباب عليهما فأسرعت الزوجة لترى من الطارق، حتى إذا عرفت أنه راعي آمهر سبيرغ الخَلوق رحبت به ترحيباً حاراً كما رحبت بالسيدتين اللتين كانتا برفقته ودعتهم جميعاً للجلوس ثم استدعت زوجها بسرور وغبطة.

والراعي الصالح كان قد رسم خطة حكيمة لتعريف البنت إلى أمها والأخ إلى أخته فطلب إلى مرافقيه التزام السكوت و**التريّث**؛ ولكن مدام دي تو أفسدت خطته فما كادت تقع عينها على أخيها جورج حتى هرعت إليه كالمجنونة وطوقت عنقه بذارعيها وقالت من غير إبطاء:

ـ آه يا جورج. ألا تعرفني؟ أنا أختك إميلي.

أما كاسي فقد ضبطت أعصابها احتراماً للخطة التي رسمها القسيس راعي المعسكر، فمثّلت دورها بنجاح كبير ثم فشلت إذ برزت إليزا الصغيرة فجأة أمامها وكأنها بملامحها وبخطوط شعرها الجعد صورة عينية لما كانت عليه ابنتها الحبيبة يوم ودعتها آخر مرة.

كان حقاً من الصعب على السيدتين كاسي ومدام دي تو أن تحافظا على خطة القس الطيب المرسومة. ولكنه مع ذلك نجح في

الوارف: الكثيف الظلّ. **التريّث**: التمهّل.

تهدئة الخواطر وألقى خطبته التي كان ينوي إلقاءها استهلالاً بالتعريف. وما كاد يبلغ نهاية حديثه حتى انخرط الجميع في البكاء ثم ركعوا جميعاً وصلى القس فيهم. وحين انتهوا من الصلاة التأم شمل القافلة المجتمعة من جديد بعد فراق طويل مرير وحمدوا الله لما منحهم من نعمة وسلامة اللقاء.

وبعد ذلك أخبرت مدام دي تو أخاها بأن زوجها الراحل قد ترك لها ثروة ضخمة، وأنها مستعدة لأن تضع القسم الأكبر منها في تصرفه، ثم سألته عن السبيل الذي يفضّل أن ينفق فيه تلك الحصة الكبيرة من المال فقال:

- كل ما أطلبه يا إميلي أن أستفيق جيداً ثم بعد ذلك أستطيع أن أعمل ما أريد.

وبعد تفكير قررت الأسرة أن تسافر إلى فرنسا لقضاء بضع سنوات في ربوعها. وما انقضت فترة طويلة حتى ركبوا البحر ومعهم إميلين قاصدين أوروبا.

وقد لفتنت إميلين بجمالها الفاتن **الربّان** ووقعت في قلبه موقعاً حسناً، ولم تكد السفينة تبلغ **الثغر** حتى عقد قرانه عليها!

وهناك قضى جورج أربع سنوات يتلقى فيها العلوم في إحدى الجامعات الفرنسية. وبهذا اكتسب ثقافة عالية وانصرف بكليته لاكتساب المعرفة، ونضج عقله نضوجاً ملحوظاً.

ولكن الأسرة عادت إلى الوطن بمناسبة اضطراب الأحوال

الربّان: قائد السفينة. **الثغر:** المدينة على شاطئ البحر.

السياسية في فرنسا آنذاك، و**آثر** جورج أن يبقى فيها مع عائلته فتوجه شطر ليبريا الجمهورية السوداء المستقلة، ليعمل هناك على خدمة الزنجية بوصفه عضواً في أمة حرّة.

آثر: فضّل.

الفصل الرابع والثلاثون

المحرر

كان جورج شيلبي بطلنا الشاب قد كتب إلى أمه رسالة لا تزيد عن سطرين حدد لها فيها موعد عودته من رحلته. لقد خطر بباله أن يخبرها عن موت العجوز توم؛ لكن قلبه لم يطاوعه، فكان كل مرة يكتب فيها شيئاً من هذا يمزق الرسالة وينخرط بالبكاء.

وفي الموعد المحدد لعودته ساد منزل شيلبي ضجيج فرح، فكانت أمه جالسة في غرفة الاستقبال **الوثيرة** قرب النار **المتّقدة**، وكانت مائدة العشاء قد بسطت بإشراف كلو العجوز زوج توم.

وكانت كلو ترتدي ثوباً جديداً من الخام ومئزراً نظيفاً أبيض وتعتمر شبه عمامة منشّاة.

وكان وجهها الأسود يلمع ببريق الغبطة والارتياح وهي تحضر المائدة وترتبها ملتمسة مختلف الأعذار لتحدّث سيدتها، فقالت:

ـ والآن أعتقد أن المائدة ستبدو عادية فقد وضعت صحنه حيث يجب أن يوضع قريباً من النار كما يحب! إن مولاي جورج يجب أن

الوثيرة: المريحة.
المتّقدة: الملتهبة، المشتعلة.

يكون قريباً من النار. آه... لماذا لم تحضر سالي إبريق الشاي الجيد، ذلك الإبريق الجديد الصغير الذي اشتراه مولاي جورج هدية لسيدتي في عيد الميلاد؟ علي أن أحضره... وبالمناسبة، هل كتب لك مولاي جورج شيئاً؟

فقالت السيدة شيلبي:

ـ نعم يا كلو. ولكنه كتب سطراً واحداً لا غير، سطراً يحدد فيه عودته الليلة.

ـ ألم يذكر شيئاً عن زوجي العجوز؟

ـ لا يا كلو. لم يذكر شيئاً بل قال إنه سيخبرنا بكل شيء عند عودته.

ـ تلك هي عادة مولاي جورج دائماً. إنه يفضل أن يقول كل شيء بنفسه.

قالت كلو ذلك وصمتت لحظة ثم أردفت:

ـ لن يعرف زوجي العجوز الأولاد. فقد تركهم صغاراً فكبروا. ولقد ذهبت «بولي» الآن إلى البيت لتشرف على صنع خبز الكعك. إن زوجي يحب ذلك النوع من الكعك كثيراً. فقد قدّمته له زاداً صباح افترقنا. ألا فليباركنا الله. أي فرح استولى علي منذ الصباح، يا سيدتي!

وتنهدت السيدة شيلبي وشعرت بثقل يضغط على قلبها لدى سماعها هذه الكلمات. والحق أن القلق لم **يبارحها** منذ أن تلقت رسالة ابنها الموجزة. فقد خشيت أن يكون جورج قد تحاشى ذكر أمر سيّئ وراء حجاب السكوت والإيجاز!

يبارحها: يفارقها.

وقالت كلو بلهفة:

- وهل احتفظت سيدتي بالأوراق المالية؟

- أجل يا كلو.

- عفواً يا سيدتي فقد وجهت إليك هذا السؤال لأني أرغب في أن أُري زوجي العجوز الأوراق المالية التي ربحتها عند صانع الحلويات. فقد كان جونز رجلاً طيب الأخلاق وقد قال لي: «كنت أود لو تبقين في محلنا مدّة أطول» فأجبته: شكراً يا سيدي. لقد كان بودّي أن أبقى لولا أن زوجي عزم أن يعود إلى كوخه، ولولا أنّ سيدتي ما عادت تستطيع أن تحيا من دوني بعد اليوم.

وكانت كلو قد أصرت على أن تبقي الأوراق المالية التي أخذتها أجوراً من سيدتها لتُريها لزوجها برهانًا على براعتها. وقد لبت السيدة شيلبي رغبتها بغية أن تدخل السرور إلى قلبها.

وقالت كلو:

- ترى هل يعرف زوجي ابنتنا پولي؟ إن بعلي العجوز لن يعرفها بالتأكيد فقد انقضت خمس سنوات على مغادرته الكوخ، وكانت آنئذ طفلة لا تقوى على الوقوف، وأذكر كم كان قلقه عليها شديداً عندما كانت تحاول السير على قدميها فلا تُفلح.

وإذ قالت كلو هذا سمع الجميع صوت عجلات عربة مقبلة فاندفعت العمة كلو إلى النافذة وقالت:

تُفلح: تنجح.

- إنه سيدي جورج.

وهرعت السيدة شيلبي إلى الباب فطوقت ابنها بذراعيها، فيما وقفت كلو تحدق بعينيها إلى الظلام بلهفة وقلق.

- لا تحزني أيتها العمة كلو. قال جورج بأسى وتقدم إليها وشد على يدها الخشنة السوداء بيده. لقد كنت مستعداً أن أفتديه بثروتي كلها لو لزم الأمر، ولكنه ذهب إلى عالم أفضل!

وأطلقت السيدة شيلبي صيحة إشفاق. ولكن العمة كلو لم تقل شيئاً. ودخل الجميع غرفة الطعام. وكانت الأوراق المالية التي اعتزّت بها كلو كل ذلك الاعتزاز ما تزال على الطاولة.

فجمعتها كلو وبيد مرتجفة قدمتها إلى سيدتها وقالت:

- خذي هذه الأوراق فلا أريد أن أراها أو أسمع بها بعد اليوم. لقد وقع ما كنت أخشاه. لقد وقع ما كنت أتوقعه. وهكذا فقد بيع توم إلى مُزارع القطن ثم قتل ومات فيها وحيداً.

ونهضت كلو واتخذت سبيلها إلى خارج الغرفة، فلحقت بها السيدة شيلبي وأمسكت بإحدى يديها وأجلستها على كرسي وجلست هي إزاءها.

وقالت السيدة شيلبي:

- أوه. أيتها المرأة الصالحة.

وأمالت كلو رأسها على كتف سيدتها وتنهدت:

- آه يا سيدتي. أعذريني فقد تحطم قلبي. هذا كل ما هنالك.

فقالت السيدة شيلبي والدمع يتساقط على وجنتيها:

- لا أجهل مقدار المصيبة على قلبك، وليس في استطاعتي أن أجبر قلبك المكسور؛ ولكن يسوع قادر على ذلك. فهو يساعد ذوي القلوب المكلومة ويضمد جراحاتهم...

وران الصمت لحظة على الغرفة. وبكى الثلاثة جميعاً. وأخيراً راح جورج يروي على المرأة المفجوعة كيف مات زوجها موت الأبطال الشهداء وينقل إليها آخر كلماته وتحياته.

وبعد شهر على هذه الحال، جمع جورج شيلبي جميع الأرقّاء الذين يحيون في مزرعته في قاعة البيت الكبيرة ليلقي عليهم بضع كلمات أراد أن يُسمعهم إياها.

ودهش الأرقاء جميعهم حين شاهدوا في يده رزمة من الصكوك التي تحدد أثمان جميع العبيد العاملين في الإقطاعة، وتعالت تنهداتهم وسكبوا الدمع السخين حين طفق جورج يتلو على مسامعهم الوثائق واحدة واحدة وسلم كلًّا منهم وثيقته الخاصة به.

والتف الأرقاء حوله وراحوا يتوسلون إليه كي لا يتخلى عنهم، وأمارات القلق تعلو وجوههم كما حاولوا إعادة الوثائق له وقال بعضهم:

- نحن لا نريد أن نفارق هذا البيت الكريم، لا نريد أن نفارق سيدنا وسيدتنا وسائر الرفقاء.

وقال جورج عندما لزم الجميع الصمت:

المكلومة: المجروحة.

- أصدقائي الطيبين. لا حاجة تدعوكم لمفارقتي فإن هذا المنزل وهذه المزرعة يتطلبان اليوم أيادي عاملة كالماضي تماماً. ولكنكم أصبحتم الآن أحراراً. ولسوف أنقدكم أجوراً مقابل عملكم. أجوراً تتفق وأتعابكم ونتفق عليها معاً. وبهذه الطريقة تنجون من خطر التشتت والبيع إذا ما رزحت تحت عبء الديون أو قضيت نحبي، وهما أمران قد يحدثان في كل ساعة. إني أريد أن أتابع العمل في مزرعتي وأن أعلّمكم كيف تستعملون الحقوق التي أعطيتكم إياها بصفتكم أحراراً. وأرجو أن تظلوا أناساً صالحين وأن تُبدوا رغبة في التعلّم. وإني أعاهد الله أن أكون مخلصاً لكم راغباً في تعليمكم. والآن، أيها الأصدقاء لنبتهل إلى الله ولنشكره على نعمة الحرية.

وهنا نهض زنجي قضى سحابة عمره في المزرعة فرفع يديه المرتعشتين وقال: «لنرفع آيات الشكر إلى الله العلي القدير».

حتى إذا ركع الجميع ركعة رجل واحد اندفعوا يرتّلون «نمجدك يا الله».

فلم ترتفع إلى السماء قط ترنيمة أعمق أثراً وأصدق نبرة من تلك التي صدرت عن ذلك القلب الوفي العجوز.

ولم يكد الجمع ينهضون حتى خاطبهم جورج قائلاً:

- أنتم جميعاً تذكرون صاحبنا العم توم من غير شك!

وهنا قص عليهم حكاية موت توم البطولية ووداعه المؤثر لجميع أصدقائه القدماء ثم أضاف:

- واعلموا أيها الأصدقاء أني أعاهد الله ألا أمتلك رقيقاً بعد

اليوم ما دمت قادراً على إعتاقه. وأقسم بألا أسمح لأي إنسان أن يفصل إنساناً عن أفراد عائلته لبيعه، ويموت كما مات توم. وأقول لكم: إني عاهدت الله على هذا أمام رمس توم صديقي الخالد. لأجل ذلك أطالبكم بأن تذكروا صديقنا توم كلما كنتم مسرورين، فأنتم تدينون لنفسه الطيبة بحريتكم. فكّروا في حريتكم كلما رأيتم كوخ العم توم. واتخذوه مثلاً يُحتذى وترسَموا خطاه وكونوا أوفياء ومخلصين بعضكم لبعض في جميع الظروف والمناسبات، وكونوا أوفياء للإنسانية بقدر ما كان وفياً لكم ومخلصاً لبني البشر. واذكروا دائماً منقذاً شهيداً!

تمّت

www.liilas.com/vb3

يُحتذى: يُقتدى به.

ترسَموا خطاه: افعلوا مثله.